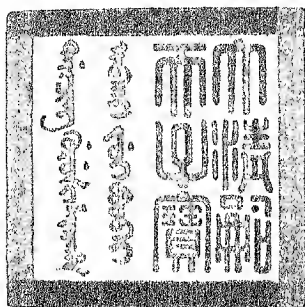
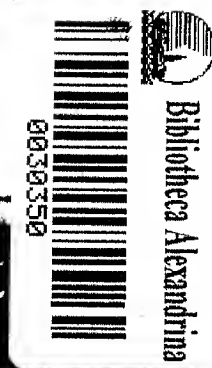


# من امبراطور الى مواطن

السيرة الذاتية  
لأيشين-جيولوه  
بويسى



المجلد الثاني



ان كتاب « من امبراطور الى مواطن » يحكى السيرة الذاتية للرجل الذى كان آخر امبراطور فى الصين ، والذى اصبح فيما بعد امبراطورا عميلا لـ ” امبراطورية منشوريا “ الخاضعة للامبريالية اليابانية فى شمال شرقى الصين .

فى المجلد الاول من هذا الكتاب يقدم المؤلف صورة واضحة للحياة فى بلاط تشينغ المتفسخ فى اخريات ايامه ، يكشف كيف قام ، بعد الاطاحة بالاسرة ، هو والقوى الاقطاعية الاخرى بالتآمر مع السلطات الاجنبية لاعادة الملكية ، وكيف اصبح عميلا للامبرياليين اليابانيين . وفى المجلد الثانى يصف بو يى حياته فى بلاط منشوريا ، ويتحدث كيف وقع فى قبضة الحكومة الشعبية ، ويقدم وصفا حيا لاعادة تكوين نفسه عبر العمل والدراسة داخل سجون مجرمى الحرب ، وكيف تغير تفكيره . وفى الفصل الاخير من الكتاب يصف كيف عاش بعد العفو عنه ، بوصفه مواطنا عاديا فى جمهورية الصين الشعبية .

٠٠٦٤٢



الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية

# من امبراطور الى مواطن

السيرة الذاتية  
لآبشين-جيولوه  
بويسى

المجلد الثانى



دار النشر باللغات الاجنبية بكين



الطبعة الاولى . . . . . عام ١٩٨٥

ترجمة : محمد نمر عبد الكريم

دار النشر باللغات الاجنبية

٢٤ شارع باى وان تشوانغ

بكين - الصين

طبع في جمهورية الصين الشعبية

# الفهرس

## الفصل السادس اربعة عشر عاما من حكم "امبراطورية منشوريا"

١	
٣	الدور العميل يبدأ
٨	سلطان بلا سلطة
١٣	توقيع المعاهدة السرية وما بعدها
١٨	« تقرير لجنة التحقيق التابعة لعصبة الامم »
٢٥	"امبراطور" للمرة الثالثة
٣٧	نهاية الوهم
٤٨	يوشيوكا ياسونورى
٥٢	"مراسيم امبراطورية"
٦١	حياة البيت
٧١	الانهيار

## الفصل السابع فى الاتحاد السوفياتى

٨٥	خوف ووهم
٨٧	ما زلت ابدى كبرياء مصطنعة
٩٠	ارفض الاعتراف بلانيسى

- ٩٧ اتوقع ان اموت  
 ١٠٤ الوصول الى فوشون  
 ١١٠ مفصلا عن اسرتى  
 ١١٨ الانتقال الى هاربين  
 ١٢٣ كتابة سيرتى الذاتية وتقديم اختامى  
 ١٢٩ تغييرات فى اسرتى  
 ١٣٧ اعتراف ولين  
 ١٤٤ صنع الصناديق  
 ١٥٣ وصول المحققين  
 ١٦٠ معاناة وحقد الشعب فى الشمال الشرقى  
 ١٦٦ "انك لا تستطيع ابدا ان تنجو من عواقب خطاياك"

- ١٧٥ كيف اصبح انسانا ؟  
 ١٨٣ ذلك يعتمد على  
 ١٨٩ لماذا كل هذه الشهامة  
 ١٩٩ التغيرات توضح كل شىء  
 ٢٠٥ لقاء الاقرباء  
 ٢١٦ مجرمو الحرب اليابانيون  
 ٢٢٣ "المجد العالمى"  
 ٢٣٢ زيارة اخرى  
 ٢٤٣ عمل وتفاؤل

۲۴۹	الاختبار
۲۵۹	عفو خاص
۲۶۷	فصل جديد
۲۸۱	ملاحظات

## الفصل السادس

اربعة عشر عاما من حكم  
”امبراطورية منشوريا“

## الدور العميل يبدأ

كانت مشاعري مضطربة ومتناقضة وأنا اجلس على المائدة الخاصة التي اقامها لي الكولونيل اتاجاكي مساء ٢٤ فبراير ١٩٣٢ احتفالا بموافقتي على ان اصبح "رئيسا تنفيذيا لدولة منشوريا" العملية اليابانية الجديدة . وقدم اتاجاكي مومسات يابانيات الضيوف ، وقد لطفهن وعانقهن دون ان ينزعج بخصوص تقاليد السلوك المذهب . ونظرا الى انه شرب بحرية وجلجل صوته بالضحك فانه لم يحاول اخفاء سروره بنجاحه في اجباري على القبول بشروطه . وفيما كان ما يزال يسيطر على نفسه الى حد ما شرب نخبي بمتنهى الاحترام ، متمنيا الى مستقبلا باهرا وتحقيقا تاما لمطامحي ، وقد سررت غاية السرور لسماعي ذلك . ولكن مع انقضاء المساء وشربه المزيد المزيد من الخمر ازداد وجهه شحوبا ، وبدأت الامور تسوء . وسألتني مومس يابانية بصينية متكلفة : "هل عندك تجارة ؟" وعندما سمع اتاجاكي ذلك انفجر بضحك غريب ، وادركت انه ليس هناك ما يسر .

وفي ٢٨ فبراير وبأمر من جيش قوانغدونغ الياباني اتخذ "مجلس جميع منشوريا" في شينانغ قرارا بخصوص اعلان استقلال الشمال الشرقي وتعييني "رئيسا تنفيذيا للدولة الجديدة" . واخبرني كايسومي وتشنغ شياو شيوى بأن مندوبي هذا "المجلس" سيأتون الى ليويشون كي يدعوني الى قبول المنصب ، وسنحتاج الى اعداد جواب او جوابين . الاول سيكون رفضا والثاني قبولاً ، ليكون هذا الجواب جاهزا عندما يضغط على المندوبون مرة ثانية . وفي ١ مارس وصل الوفد المكون من تسعة رجال الى ليويشون ، وسامهم تشنغ شياو

شيوى الذى قابلهم باسمى بالجواب الاول . وبعد ذلك قابلتهم بنفسى ،  
والقى كلا الطرفين الخطاب التى طلب منه القاؤها ؛ و”توسلوا الى بحماسة“  
ولكننى ”رفضت بتواضع“ ، وقبل ان تنقضى عشرون دقيقة انتهى اللقاء .  
وفى ٥ مارس ازداد عدد ”الوفد“ الى تسعة وعشرين عضوا بأمر من القسم  
الرابع (١) لجيش قوانغدونغ وجاء مرة اخرى كى ”يتوسل الى بحرارة“ ؛  
وهذه المرة انجز الوفد مهمته ، وكان جوابى النهائى كما يلى :

نظرا الى انكم تعهدون الى بهذه المسؤولية العظيمة ، كيف يسعنى ان  
اتجرأ على الرفض بدافع التوانى والراحة ؟ ولكن بعد تفكير عميق اشعر اننى  
قد اخيب آمال الجماهير . . . سوف اعتصر امكاناتى الضعيفة واعمل لمدة  
سنة رئيسا تنفيذيا مؤقتا ؛ واذا كانت نواقصى مفرطة فاننى سأستقعد باحترام  
بعد مرور تلك السنة . واذا ما تم ايجاد دستور خلال تلك السنة واقر شكل  
الدولة وفقا لمقصدى الاصلى فسأعيد حين ذاك النظر بدقة فى فضلى وقوتى  
واقدر ماذا افعل .

وانتهت هذه الفترة الفاصلة ، وغادرت الى تشانغتشون فى اليوم التالى مع  
وان رونج وتشنغ شياو شيوى وتشانغ جينغ هوى والآخرين . ولدى توقف  
قطارى فى محطة تشانغتشون فى الساعة الثالثة بعد الظهر من ٨ مارس ، سمعت  
صوت الفرق الموسيقية العسكرية وهتاف الحشود . وعندما خطوت على رصيف  
المحطة محاطا بتشانغ جينغ هوى وشى تشيا واماكاسو وكايسومى وغيرهم  
رأيت رجال الدرك اليابانيين وصفوفا من الناس يلبسون مختلف انواع الملابس ؛  
بعضهم بستر واثواب صينية ، وبعضهم ببدلات غربية ، وآخرون بملابس  
يابانية تقليدية ، وكانوا جميعا يمسكون بأيديهم اعلاما صغيرة فتأثرت بذلك ،  
وفكرت فى اننى ارى الآن المشهد الذى افتقدته عند الميناء . وفيما كنت  
امر بهم اشار شى تشيا الى صف من اعلام التين بين الاعلام اليابانية وقال  
ان الناس الذين يمسكون بهذه الاعلام هم من رجال الرايات المانشويين الذين

كانوا ينتظرون قدومي منذ عشرين سنة . فدمعت عيناى لسماع هذه الكلمات ،  
وازددت فناعة ان مستقبلى سيكون مشرقا .

وعندما صعدت سيارتى عادت بى افكارى الى مدينتى المحرمة وطردى  
منها وسرقة المدفن الشرقى والعهد الذى قطعته على نفسى نتيجة ذلك . وشغلنى  
التفكير فى آمالى واحقادى عن الانتباه الى الشوارع التى مررت بها او عن  
ملاحظة الترحيب الفاتر الذى لقينى به اهالى تشانغتشون ، وهم صامتون رعبا  
وبغضا . وبعد رحلة قصيرة دخلت السيارة الى رحبة مبنى قديم . وهو الذى  
سيكون ”مقر الرئيس التنفيذى“ ، مع انه لم يكن كما بدا لى واحدا من افخم  
المنازل فى المدينة .

وفى اليوم التالى تسلمت المنصب وفقا للمراسم المتبعة فى قاعة استقبال  
كبيرة رُتبت على عجل . وكان بين الحاضرين اوتشيدا ، مدير سكة حديد  
جنوبى منشوريا اليابانية ، وهونجو ، قائد جيش قوانغدونغ ، وماييك ، رئيس  
اركانه ، وضابط الاركان اتاجاكى . وحضر كثير من ”وزرائى القدامى“ :  
وكان بينهم ، بالاضافة الى تشنغ شياو شيوى ولوه تشن يوى وهو سى يوان  
وتشن تسنغ شو ، عدد آخر من موظفى اسرة تشينغ السابقين ومن الامراء  
المنغوليين . وكان هناك ايضا عدد من رجال عصبة فنغتيان السابقين مثل  
تشانغ جينغ هوى وتسانغ شى يى وشى تشيا وتشانغ هاى بنغ ؛ وكان هناك  
كذلك ضابط اركان سابق لدى الجنرال ابو احم الكلب تشانغ تسونغ تشانغ .  
ولبست بدلة رسمية غربية . وتحت نظر ذوى المقامات الرفيعة من  
اليابانيين انحنى لى ”مؤسسو الوطن“ ثلاث مرات وانحنيت لهم مرة واحدة .  
ومن ثم قدم لى تسانغ شى يى وتشانغ جينغ هوى باسم ”شعب منشوريا“  
”ختم الرئيس التنفيذى“ ملفوفا بقطعة من الحرير الاصفر . وبعد هذا  
قرأ تشنغ شياو شيوى ”بيان الرئيس التنفيذى“ نيابة عنى :



ينبغي للنوع البشرى ان يحترم الاخلاق ، ولكن نظرا لوجود تمييز عنصري فان الناس يضطهدون الآخرين ليرفعوا من شأن انفسهم ، مضعفين بذلك القيم الخلقية . كما ينبغي للنوع البشرى ان يحترم نزعة الخير ، ولكن بسبب النزاع الدولى فان بعض الناس يحاول ايذاء الآخرين من اجل المصلحة الشخصية ، مضعفا بذلك نزعة الخير . والاخلاق ونزعة الخير هما المبدعان اللذان تؤسس عليهما دولتنا ، التى من المحتم ان تصبح بازالة التمييز العنصرى والنزاع الدولى جنة على الطريقة الملكية . وآمل ان يسعى جميع ابناء شعبي الى تحقيق ذلك .

وعندما قابلت الضيوف الاجانب بعد انتهاء المراسم القى مدير سكة جنوبى منشوريا اليابانية خطاب تهنئة ، وقرأ لوه تشن يوى جوابى . وبعدها دخلنا القناء لرفع العلم الجديد والتقاط الصور ، وانتهى ذلك بمأدبة . وبعد ظهر ذلك اليوم جاء تشنغ شياو شيوى ببعض ” الاعمال الرسمية “ الى ” مكتب الرئيس التنفيذى “ . وانحنى قائلا بصوت رقيق ورأسه الاصلع يلتمع :

— ان الجنرال هونجىو قد اوصى بأن يصبح خادكم رئيس وزراء ويؤلف وزارة . وهذه قائمة للتعيينات (٢) فهل تسمح جلالتك بأن توقعوا عليها .

ونظرا الى ان الوكيل اليابانى اماكاسو كان قد ناقشنى بها قبل ذلك فى ليويشون تناولت فرشتى ووقعت . وبذلك قمت بأول عمل من اعمال ” دولة منشوريا “ .

وقد تأثرت تأثرا عميقا بالجوقة العسكرية واعلام التنين فى محطة تشانغشون وبمراسم تسلّم المنصب وبخطاب التهنئة الذى القى عندما قابلت الضيوف الاجانب ، وشعرت انى بتسلمى المنصب على المكشوف قد وضعت نفسى فى موضع لا انسحاب منه . وفوق ذلك قد يساعدنى اليابانيون فى استعادة لقبى

الامبراطورى اذا انا مضيت فى التعاون معهم . وعندما نظرت الى الجانب المشرق فى ذلك ، بدا لى كونى ” رئيسا تنفيذيا “ ليس امرا هينا بل خطوة نحو العرش الامبراطورى . وكانت المشكلة التى اعطيتها انتباهى الآن هى كيف استفيد من هذا المنصب الى ابعد حد . وبعد ان فكرت فى ذلك عدة ايام اعلنت خلاصة ما توصلت اليه على تشن تسنغ شو وهو سى يوان اللذين اصبحا الآن من امنائى :

” ان عندى عهدين وامنية ، واننى اود ان اخبركما بها . اولاً ، اننى سأعمل على التخلص من جميع اخطائى السابقة ، وقد عاهدت نفسى ألا اكون كسولا قط او عابثا كما وصفنى تشن باو تشن قبل عشر سنوات . ثانياً ، عاهدت نفسى بأن لا استريح حتى اتغلب على جميع العقبات واعيد ميراثى السلفى . ثالثاً ، ارجو ان ترسل لى السماء وريثا ليتابع مسيرة اسرة تشينغ العظيمة . واذا تحققت هذه الاشياء الثلاثة فسيكون بوسعى ان اموت سعيدا . “

بعد شهر تقريبا من تسلمى المنصب انتقل ” مقر الرئيس التنفيذى “ الى مبنى اعيد تربيته ، كان فى السابق مكتب مكوس الملح لمقاطعتى جيلين - هياونغجيانغ . وفى البداية اخذت انهض باكرا كل صباح واذهب الى مكتبى مباشرة ، ولا اعود الى مسكنى حتى المساء . واتبعت تعليمات جيش قواندونغ فى عملى ساعات طويلة تحت وهم ان اصبح قادرا على استخدام السلطة بصفتى رئيس دولة ، آملا خلال ذلك ان انجز العهدين اللذين قطعتهما على نفسى واعدود الى العرش . ولكن هذا الاجتهاد لم يستمر طويلا لأنه لم يكن هناك عمل اقوم به ، وسرعان ما اكتشفت ان سلطات ” الرئيس التنفيذى “ ليست الا حبرا على ورق .

## سلطان بلا سلطة

لقد حددت المواد الثلاث عشرة من القسم الاول من « قانون دولة منشوريا التنظيمى » سلطاتى بكل وضوح . وقد نصت المادة الاولى على ان « الرئيس التنفيذى يحكم دولة منشوريا » ، والثانية الى الرابعة على ان لى سلطة تشريعية وتنفيذية وقضائية . والمواد الاخرى نصت على ان بلاغاتى سيكون لها قوة القانون ، واننى انا الذى اقرر بنية الادارة والتعيينات الرسمية ، واننى القائد الاعلى للقوات البرية والبحرية والجوية ، وان لدى السلطة فى اصدار قرارات الصفح والعمو العام ، وفى تخفيف العقوبات واعادة الحقوق الى ذويها من الناس الذين كانت قد جردت منهم ، وما الى ذلك .

والواقع اننى لم اكن املك حتى السلطة التى تخولنى ان اقرر الخروج من بوابات مسكنى الداخلية متى شئت . وذات يوم فكرت فى الخروج للتمشى ، فأخذت زوجتى وان رونغ واثنين من شقيقائى للقيام بنزهة فى « منتزه داتونغ » ، ولكن لم تمض علينا عدة دقائق فى المنتزه حتى جاء رجال الدرك اليابانى ورجال « مكتب الامن التابع لمقر الرئيس التنفيذى » فى سيارة وطلبوا منى ان اعود ، حيث ان غيايى عن مقرى قد بلغ عنه فورا ، فحشدت اعداد كبيرة من الجند ورجال البوليس للتفتيش عنى ، مثيرين احتياجا عظيما فى كافة انحاء المدينة . وبعد انتهاء الامر قال لى مستشارى كايسوى انه من اجل هيبتى وامنى يجب ألا اخرج وحدى مرة ثانية . ومنذ ذلك الحين لم اجتز البوابة الامامية قط الا فى الارساليات التى رتبها جيش قواندونغ .

وقد صدقت فى البداية التوضيح الذى قدم لى بخصوص وجوب عدم خروجى من تلقاء نفسى ، ولكن بعد بضعة ايام من القيام بـ « اعمال الدولة » فى مكتبى بدأت تتابنى الشكوك . وعلى الرغم من اننى بدوت مشغولا جدا باستقبال زوار كثيرين ، معظمهم من الوزراء والمستشارين ذوى المراتب

العالية ، كانوا يعبرون عن ولائهم ويقدمون الهدايا الى ، الا انهم لم يناقشوا معي اى عمل رسمى قط . واذا ما سألتهم عن امور رسمية كان جوابهم اما ” نائب الوزير يهتم بذلك “ ، واما ” يجب ان اسأل نائب الوزير عن ذلك “ : ونواب الوزراء كانوا يابانيين ، وهم لم يحضروا مطلقا لرؤيتى . وكان هو سى يوان اول من فقد صبره . فقد وضع تشنغ شياوشوى الذى اصبح الآن رئيس وزراء النظام العميل بأن الوزراء يجب ان تكون لهم السيطرة على وزاراتهم ، وان القرارات الهامة يجب ان يتخذها اولا الرئيس التنفيذى ومن ثم ينفذها الوزراء ، وانه لمن الخطأ تماما ان يقرر نواب الوزراء كل شىء . فكان جواب تشنغ ” اننا نطبق حكما وزاريا مسؤولا ، وشؤون الدولة يجب ان تقرر اولا فى اجتماعات مجلس الدولة . ان مجلس الوزراء مسؤول امام الرئيس التنفيذى ، وكل اسبوع يعكس رئيس الوزراء الاقتراحات التى تبناها فى اجتماعاته الى الرئيس التنفيذى لاتخاذ القرار : وهذه هى الطريقة المتبعة فى اليابان . “ ووافق تشنغ على ضرورة ان يضبط كل وزير وزارته ، وقال انه سيعرض هذه النقطة على قائد جيش قواندونغ . وقد واجه فى الواقع نفس المشكلة فى علاقته بالرئيس اليابانى لمكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة .

لا ادرى كيف كانت محادثة تشنغ شياوشوى مع قائد جيش قواندونغ فى هذا الموضوع ، واكننى علمت ما قصد حقا بعبارة ” المحكم الوزارى المسؤول “ وبالعلاقة بين الوزراء ونواب الوزراء من الوصف الذى قدمه لى هو سى يوان عن احد اجتماعات مجلس الدولة .

كان موضع البحث هو رواتب الموظفين . وكالمعتاد اعد الاقتراح من قبل مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة ، وسلمت نسخة مطبوعة منه اكل من الوزراء . وكان قد سبق للوزراء ان وافقوا فورا على لوائح بشأن الاستيلاء على ممتلكات حكومة الشمال الشرقى السابقة وتزويد الجيش اليابانى بالحبوب

والعالم ومصادرة مصارف الشمال الشرقى الرئيسية الاربعة : ولكنهم هذه المرة لا يمكن ان يكونوا غير مباينين لأن الموضوع يمس مصالحهم مباشرة فدققوا فيه وعندما وجدوا ان درجات رواتب الموظفين اليابانيين اعلى من درجات الموظفين "المانشويين" بحوالى ٤٠ فى المئة ، اعربوا عن استيائهم بوضوح فى النقاش الغاضب الذى يلى ذلك . واحتج شى تشيا ، وزير المالية ، ان الرواتب الاعلى لليابانيين متناقضة مع المساواة العرقية والصدقة اللتين يفترض ان الدولة قد استست عليهما . ولما رأى رئيس مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة ، كومى توكوتسو الاتجاه المزعج الذى يتجه اليه الاجتماع ، اوقف النقاش وارسل فى طلب الذى وضع مسودة الاقتراح ، وهو الرئيس اليابانى لدائرة شؤون الموظفين ، ليجيب عن اسئلتهم . فوضح المذكور بهدوء ان على المرء ان يكشف اولاً ما اذا كان الناس متساوين فى المقدرة قبل ان يفكر فى المساواة بينهم . ونظرا الى ان اليابانيين مقتدرون جدا فمن البديهي ان تدفع لهم رواتب اكثر ؛ كما انهم قد اعتادوا على مستوى معيشى اعلى ، فاعتادوا اكل الرز لا الدرة الرفيعة مثل "المانشويين" . اما بالنسبة للصدقة ، فهى من باب اولى توجب اعطاء اليابانيين رواتب اعلى . ولكن هذا الخطاب لم ينجح فى ارضاء الوزراء ، فاضطر كومى الى تأجيل الاجتماع لليوم التالى .

وفى اليوم التالى افتتح كومى الاجتماع بقوله انه قد بحث المسألة مع نواب الوزراء ، وان جيش قواندونغ قد وافق على رفع رواتب الوزراء الى نفس مستوى رواتب نواب الوزراء . واضاف يقول : "ولكن نظرا الى ان الموظفين اليابانيين سيقبضون بعيدا عن موطنهم وسيقيمون ببناء فردوس على الطريقة الماكية للمانشويين ، فعلينا ان نكون ممتنين لهم . ولذلك فاننا سنعطيهم علاوات خاصة . وهذا القرار قرار نهائى لا ضرورة للمزيد من المناقشة . " وشعر معظم الوزراء انهم حصلوا على تقودهم وان خلق المزيد من المتاعب لن

يجديهم نفعا ، - ولكن شى تشيا الذى رأى انه على علاقة جيدة بقائد جيش  
قواندونغ لم يرض بأن يصده كوماى فعاق قائلا :

— اننى لن اناقش فى مسألة بعض النقود ، ولكننى اود ان اسأل اين  
سيقيم اليابانيون هذا الفردوس ان لم يكن فى منشوريا . وهل يمكنهم ان  
يقيموه من دون المانشويين ؟

فاستاء كوماى وقرع الطاولة ، وجأر بصوت عال :  
— هل تعرف تاريخ منشوريا ؟ ألا تدرك ان اليابانيين قد دفعوا مقابلها  
دماءهم وعرقهم عندما اخذوها من الروس ؟  
فرد عليه شى تشيا وقد شحب وجهه :  
— هل تسمح لى بالتحدث ؟ ان الجنرال هونجو لم يصرخ فى وجهى  
قط .

فرد كوماى مزمجرا :  
— اننى اقول لك ان هذا قد قرره الجيش .  
ولم يبق هناك ما يمكن ان يقوله شى تشيا ، وعم الصمت القاعة .  
ومنذ ذلك الحين و”الحكم الوزارى المسؤول” و”اجتماعات مجلس  
الدولة” لم تخلد احدا . ولم يكن رئيس الوزراء الحقيقى هو تشنغ شياو  
شيوى بل كوماى ، رئيس مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة . وحتى  
اليابانيين لم يخفوا هذا ، وقد اشارت مجلة « الاصلاح » اليابانية الى كوماى  
صراحة على انه ”رئيس وزراء دولة منشوريا” . وهو بدوره اعتبر قائد  
جيش قواندونغ رئيسه الاعلى ، وليس الرئيس التنفيذى الاسمى . وكانت الاقتراحات  
التي نوقشت فى اجتماعات مجلس الدولة يتم تقريرها فى النقاشات الاسبوعية  
التي يعقدها نواب الوزراء الذين شكلوا مجلس الوزراء الحقيقى فى ”دولة  
منشوريا” وهو المسؤول امام ”الحاكم الاعلى” قائد جيش قواندونغ .  
وكان القسم الرابع من جيش قواندونغ يشترك دائما فى مثل هذه المناقشات ،

وكثير من الاقتراحات كانت تصاغ وفقا لمطالب مندوبيه .

وهذا كله سرعان ما اصبحت واضحا لكل شخص وكان يجب ان يبذل اوهامى ، ولكنها لم تتبدد . وكان الثثار هو سى يوان يذكرنى دائما بوضعى الفريد ، ولقد تذكرت رأيا كنت اعتقدته خلال اقامتى فى تيانجين :

” من دونى انا الامبراطور الحقيقى ، سيصبح اليابانيون فى وضع صعب جدا . ”

ان الطريقة القائمة على الاحترام الظاهرى التى عاملنى بها اليابانيون جعلتنى اعتقد خطأ اننى مختلف تمام الاختلاف عن شى تشيا ، وان اليابانيين مضطرون الى معاملتى باحترام . وهذا ما ظننته فى ايام تأسيس ” جمعية الوثام ” .

ذات يوم ، بعد شهر تقريبا من تسلمى المنصب ، اخبرنى تشنغ شياو شيوى فى مجرى احد تقاريره المنتظمة بأن جيش قواندونغ يريد ان يشكل حزبا سياسيا ويسميه ” حزب الوثام ” . وكان هدف الحزب ” تنظيم الجماهير للتعاون فى بناء الوطن ” ويجاد روح ” احترام الشعائر الدينية وتقبل الأوامر السماوية بابتهاج ” . وكانت كلمة ” حزب ” تفرغنى دائما ، لذلك كان ذعرى لدى سماعى هذه الاخبار اكثر منه عندما بلغت بقرع كوموى للطاولة . فقطعت حديث تشنغ ولوحت بيدى مشيرا الى عدم الموافقة . وقلت :

— لماذا يريدون حزبا ؟ ما الفائدة التى يمكن ان يقدمها الحزب ؟ ألم يكن سقوط الاسرة من جراء عمل الحزب ؟ هل نسيت ان كونفوشيوس قال بأن الرجل الكريم لا حاجة به الى التحزبات ؟

فقال تشنغ شياو شيوى وقد امتقع وجهه :

— ان جلالتم على صواب تام ، ولكن الجيش قد اتخذ قراره .

وكان يأمل ان يسكننى بهذا الكلام ، ولكنه دهش عندما رأتى اعتبر هذا الامر مسألة حياة او موت وارفض الموافقة عليه . لقد آلمنى سماع ان كل شىء قد قرره الجيش . وقلت فى غضب :

— اما ان تذهب وتبلغ اليابانيين ، واما ان تطلب منهم القدوم الى ،

وبعد يومين جاء اتاجاكي وضابطان آخران من القسم الرابع لجيش قواندونغ ليقدموا لى توضيحات ، ولكنهم اخفقوا فى اقناعى ، لذلك ظلت المسألة دون حل .

وفى يوليو ، بعد ثلاثة اشهر ، ظننت اننى انتصرت . فقد قرر جيش قواندونغ ان يشكل "جمعية وئام" لا "حزب وئام" ومهمتها ان تدعم الحكومة . وكانت الجمعية والمنظمات المناهضة لها تشمل كافة سكان "دولة منشوريا" فوق سن العاشرة .

ان السبب الحقيقى فى تغيير جيش قواندونغ اسم "حزب" الى "جمعية" لم يكن له اية علاقة بى . فقد رأى الجيش ان الجمعية اكثر فاعلية من الحزب السياسى بالنسبة للدعاية والتجنس واستعباد الناس . وانا بالطبع لم ادرك هذا ، وظننت انهم استجابوا لرغبتى . ونظرا الى اننى كنت مقتنعا بهذا الوهم فلم يكن من المدهش ان لا يبقى لى موقع بعد توقيع المعاهدة السرية بين "دولة منشوريا" واليابان .

### توقيع المعاهدة السرية وما بعدها

منذ زمن يرجع الى اقامتنا فى ليويشون اتفق تشنغ شياو شيوى مع هونجو على الشروط التى سأسلم بها منصب الرئيس التنفيذى حيث سيكون هو رئيسا للوزراء . وقد اخبرنى تشنغ بذلك عشية استقالة هونجو . وفى ١٨ اغسطس ١٩٣٢ جاء تشنغ شياو شيوى الى مكتبى يحمل رزمة من الوثائق ، وقال :

— هذه اتفاقية عقدها تابعكم مع الجنرال هونجو ، فهل لجلالتكم ان تنفضلوا بالموافقة عليها ؟  
فنظرت الى الاتفاقية ، وقلت غاضبا :



— من طلب منك التوقيع عليها ؟

فأجاب ببرود :

— هذه هي جميع الشروط التي اقراها اتاجاكي في ليويشون . وقد اخبر

اتاجاكي جلالتيكم بها منذ وقت طويل .

— هراء ! لم يخبرني مطلقا ، وحتى اذا كان قد اخبرني لا يحق لك

ان توقع قبل ان تستشيرني .

— لقد فعلت ذلك وفقا لتعليمات اتاجاكي . فقد قال انه يخشى ان

تحدث متاعب اذا رآها هو سي يوان والآخرين مقدما وهم لا يفهمون الوضع .

— من المسؤول هنا ؟ انت ام انا ؟

— ما كان لتابعكم ان يتجرأ على ذلك . ان هذه الاتفاقية اجراء مؤقت .

فكيف يمكن لجلالتيكم ان ترفضوا توقيعها اذا كنتم تريدون مساعدة اليابانيين ؟

كل ما تقدمه الاتفاقية لليابانيين من سلطات هو ما يتمتعون به في الواقع ،

ويمكننا ان نوقع في المستقبل معاهدة اخرى تنص على ان تستعيدوا هذه

الحقوق بعد بضع سنوات .

وكان محقا في قوله ، فان اليابانيين كانوا قد حصلوا على الحقوق التي

نصت عليها الاتفاقية . وكان جوهر الاتفاقية هو ان اليابان ستكمل سيطرتها

على ” دفاع وامن ” ” دولة منشوريا ” ؛ وانها ستدير خطوط السكك والموانئ

والطرق المائية والطرق الجوية في ” دولة منشوريا ” وتنفذ المزيد من الانشاءات ؛

وان ” دولة منشوريا ” ستزود القوات اليابانية بالامدادات والمعدات اللازمة ؛

وان اليابانيين سيكون لهم الحق في فتح المناجم واستغلال المصادر الطبيعية ؛

وانه سيسمح لهم بتسلم مناصب في ” دولة منشوريا ” ؛ وان اليابان سيكون

لها الحق في نقل المهاجرين الى ” دولة منشوريا ” ؛ واشياء اخرى كثيرة .

وانتهت الاتفاقية الى النص على انها ستكون اساسا لمعاهدة رسمية بين البلدين .

وكان تشنغ شياو شيوى مصيبا في قوله اننا لا بد ان ندفع ثمن ” دعم ”

اليابان لنا . ومع ذلك لم يسعنى الا ان اشعر بالاستياء . لقد احسست ان تشنغ شياو شيوى قد اشتط كثيرا فى مبادرته ببيع ” بلادى “ لليابانيين . وغضبت كذلك من اليابانيين على خداعهم اياى . فمع انهم رفضوا اعطائى عرشا امبراطوريا ، الا انهم كانوا ما يزالون يريدون اخذ المزيد منى .

وعلى الرغم من اننى غضبت ، الا انه لم يكن امامى ما استطيع فعله ، لأن المسألة كانت قد انتهت . فوقعت الاتفاقية السرية ، واخذها تشنغ معه . ودخل هو سى يوان ، واستشاط غضبا عندما اخبرته بما جرى :

— ان تشنغ شياو شيوى رجل مخزى . لقد قال تشن باو تشن عنه منذ وقت طويل انه يعطى من مال غيره ، وها هو الآن قد تجرأ على ان يفعل ذلك من تلقاء نفسه .  
فقلت مكتثبا :

— فات الأوان لعمل شىء بخصوص ذلك .

— يمكن ان لا يكون الامر كذلك . يجب ان ننتظر الاخبار التى نحصل عليها من طوكيو .

وقبل ذلك ببعض الوقت كنا قد علمنا ان هونجو ، قائد جيش قوانغدونغ سوف يحل محله قائد آخر ، وان اليابان سوف تعترف بـ ” دولة منشوريا “ . وعلق هو سى يوان اهمية كبيرة على هذه الاخبار ، لأنه رأى ان تغيير القيادة قد يشير الى تغير طفيف فى موقف طوكيو ، ورأى ان علينا ان نرسل شخصا الى اليابان لاستغلال هذه الفرصة . وكان من المستحيل فى رأيه تجنب اعطاء اليابان بعض الامتيازات مثل السيطرة على تعدين البلاد وسككها ومواردها الطبيعية ودفاعها ، ولكن كان ضروريا جدا ان اظل محتفظا بتعيين الموظفين فى يدى . وبناء على توصية هو سى يوان ارسلت مبعوثين الى طوكيو لرؤية بعض العسكريين الكبار ، فقلما مطالبى الى رئيس اركان الجيش اليابانى والى كاشى ، القائد اليابانى السابق فى تيانجين ، والى موتو نوبويوشى ، قائد

جيش قواندونغ لاحقا . وبناء على نصيحة هو سى يوان غالبية فى مطالبى لأترك مجالا للتنازل دون التخلّى عن الموضوع الاساسى - التحكم بالتعيينات . وكانت المطالب الاضافية هى ان يكون للوزراء السيطرة الحقيقية على وزاراتهم ، وان يلغى نظام ادارة اليابانيين لمكاتب الشؤون العامة ، وان تدرب قوات جديدة ، وان يقرر المجلس التشريعى شكل الدولة ، وان يكون مسموحا لى باعادة تنظيم مجلس الوزراء .

وبعد يومين اخبرنى هو سى يوان وهو ثائر بأن رسالة قد جاءت من مبعوثى الاثنين فى طوكيو يقولان فيها ان بضعة من رجال الدولة اليابانيين الكبار والعسكريين ممن تعاطفوا معى ولم يعجبهم موقف هونجو منى راغبون فى تأييد جميع مطالبى . ومضى يقول ان هذا يبين ان الامور ستتغير مع وصول قائد جيش قواندونغ الجديد ، واننى سأصبح قادرا على اختيار موظفى وحكم بلادى . ولكن سأحتاج حتى احكمها بنجاح الى رئيس وزراء مطيع . فوافقت ، وقررت ان اطرد تشنغ شياو شيوى واستبدل به تسانغ شى يى الذى سيشعر نحوى بالامتنان ويطيع توجيهاتى . وارسلت فى طلب تسانغ شى يى ، ولكن جاء بدلا منه تشنغ تشوى ليرانى ويحتج على التقرير الذى يشير الى رغبتى فى اعادة تنظيم مجلس الوزراء . وبعد ذلك بقليل رفض تسانغ شى يى ان يصبح رئيسا للوزراء . فقد ادرك انه سيجلب المتاعب لنفسه اذا هو وافق دون اذن من جيش قواندونغ .

وعندما سمع تشنغ شياو شيوى بأن تسانغ شى يى قد رفض ، قرر ان يسلك خطة طلب اذن بالاستراحة بحجة انه موعوك . وكنت قد تقويت بالأخبار المشجعة القادمة من طوكيو ، فانتهزت الفرصة للتخلص منه ، وقلت دون ان ابذل ادنى جهد لاقناعه فى البقاء :

— لقد حان وقت تقاعدك . لن احتفظ بك . ارجو ان ترشح خلفا لك .  
فحبا البريق من رأسه الاصلع وقال :

— خادمكم اراد فقط اذن مرض لبضعة ايام :

— حسن جدا .

وحالما غادر تشنغ شياو شيوى ارسلت فى طلب تسانغ شى يى وكلفته بأن يصبح رئيس وزراء بالنيابة ، طانا اننى استطيع ان اجد طريقة للتخلص من تشنغ شياو شيوى فيما بعد . ولكن قبل ان يتعهد تسانغ شى يى بذلك عاد تشنغ الى منصبه .

وقررت ان اقدم مطالبى شخصيا عندما يصل قائد جيش قواندونج الجديد . وايدنى هو سى يوان فى ذلك ، وذكرنى بالاصرار على ازاحة تشنغ شياو شيوى :

وهذا كله حدث فى بداية سبتمبر : ون منتصف الشهر وصل الى تشانغتشون موتو نوبويوشى ، القائد الجديد لجيش قواندونج و ” السفير “ اليابانى الاول لدى ” دولة منشوريا “ . وفى اليوم الخامس عشر وقع موتو وتشنغ شياو شيوى « بروتوكول اليابان — دولة منشوريا » . وكانت هذه هى المعاهدة العلنية المبنية على اساس الاتفاقية السرية . وبعد ان انتهت المراسم وشرينا الشامبانيا كنت فى غاية التعجل لاجراء حديث خاص مع موتو . وكنت واثقا من نتيجة هذا الحديث ، حيث ان مبعوثى فى طوكيو قد بلغانى بتعاطفه مع مطالبى ورغبته فى النظر فى اعادة لقبى الامبراطورى . كان موتو قد قاد القوات اليابانية التى احتلت سيبريا خلال الحرب العالمية الاولى . وقد جاء الى الشمال الشرقى هذه المرة بمناصبه الثلاثة — قائد جيش قواندونج ، وحاكم ” اراضى قواندونج المؤجرة “ و ” سفير لدى دولة منشوريا “ . وكان الحاكم الفعلى للشمال الشرقى ، الامبراطور الحقيقى لـ ” دولة منشوريا “ . وقد لقبته الصحافة اليابانية ” الاله الحارس لمنشوريا “ ، وكان هذا العجوز الابيض الشعر ذو الخمسة والستين ربيعا قويا فى نظرى كاله . وعندما انحنى لى فى المرة الاولى انحناؤه تطفح بالأدب الجرم ، تملكنى شعور بأننى مدعوم من السماء . وبعد

ان سمع كلامى اجاب فى كياسة : ” سأبحث اقتراحات جلالتكم بمهنتى الدقة . “

واخذ معه قائمة الطلبات التى كتبها لى هو سى يون ، ولكن مرت الايام دون ان اسمع نتائج هذا البحث المتروى . ولما كان من المفروض ان اقابل قائد جيش قوانغدونغ ثلاث مرات فى الشهر ، فقد قابلته ثانية بعد عشرة ايام . وسألته عن النتائج التى توصل اليها ، فأجاب بأنه ما زال يدرس المطالب . وفى كل مرة رأيته فيها كان يبدو لطيفا على نحو ناجح ، فينحني بشدة ويبتسم قائلا : ” سعادتك ” ، ويتحدث عن كل واحد من اسلافي بعظيم الاحترام ، ولكنه لم يشر مرة واحدة الى مطالبى . وكنت اذا ما حاولت توجيه المحادثة الى تلك الوجهة يقبر الموضوع فورا . وبعد ان زاغ على هذا النحو مرتين لم تعد عندى اعصاب تمكنتنى من ان اسأله حول المطالب مرة اخرى . ومنذ ذلك الحين والى موته فى يوليو ١٩٣٣ لم نكن نتحدث كلما التقينا الا حول البوذية والكونفوشية و ” الصداقة “ . وقد بدت لى سلطته تزداد يوما بعد يوم بينما لم يكن هناك اى نمو فى سلطتى .

### « تقرير لجنة التحقيق التابعة لعصبة الامم »

فى مايو ١٩٣٢ وصلت لجنة التحقيق لعصبة الامم الى الشمال الشرقى : فعلى تشنغ شياو شيوى وتشنغ تشوى آمالا كبيرة على هذه اللجنة ، وعندما نشر تقريرها فى اكتوبر من تلك السنة ، تأكدا من ان حلمهما فى الادارة الدولية سيتحقق فى المستقبل المنظور . ولكننى لم اشاركهما هذا التناؤل ، بل علمت الكثير عن الشؤون الدولية من مناقشاتهما . وخلافا لهما اصبح اعتقادى بقوة اليابان اقوى منه باللجنة .

كان تشنغ وابنه كثيرا ما يتكلمان عن موقف القوى الغربية من ” مسألة

منشوريا“ ، وما قالاه كان عادة كما يلي : ” لا تظهروا ادنى اهتمام للاجتماعات الصاخبة (اجتماعات عصبة الامم) في جنيف وباريس . فلا احد من هذه البلدان مستعد في الواقع لصدام مباشر مع اليابان ، وامريكا ، للدولة القوية الوحيدة منذ الحرب العالمية ، لا تريد ان تتخذ موقفا مشددا ازاء اليابان كذلك .“ وكثيرا ما كان تشنغ تشوى البارع في الانكليزية واليابانية يخبرنى بما تقوله الصحافة الاجنبية . فقال ان عددا لا بأس به من الصحف الامريكية موالية لليابانيين ، وكشف لى ذات مرة عن اتفاقية سرية بين الولايات المتحدة واليابان ورد في احد بنودها ان امريكا تفهم نشاطات اليابان في الشمال الشرقى . واخبرنى ايضا بمزيد من التفصيل انه قبل احداث ١٨ سبتمبر عام ١٩٣١ نصحت شخصية امريكية هامة تشيانغ كاي شيك ببيع منشوريا لليابان حتى تجلب اليابان الى نزاع مباشر مع الاتحاد السوفياتى . قال تشنغ شياو شوى : ” لقد جاءت لجنة التحقيق بدعوة من الكومينتانغ . ان الكومينتانغ يأمل بأن تساعد اللجنة على تدبر شأن اليابان ، ولكنه سيصاب بخيبة امل حيث ان اللجنة مهمة بالباب المفتوح ، وبتساوى الفرص ، وبمقاومة روسيا السوفياتية ، وهذا ما كانوا قد ناقشوه مع اوتشيدا (٣) في طوكيو . ولا حاجة الى القلق ؛ فعندما يحين الوقت ستحتاجون فقط الى قول بضع كلمات لهم . ان الكومينتانغ ، في رأى تابعكم ، يعرف ان للجنة ان تحقق شيئا ، وربما يدرك جيدا فوائد الادارة الدولية لمنشوريا .“ وفيما بعد اظهرت الاحداث ان تشنغ وابنه لم يكونا مخطئين كثيرا فيما قالاه .

وبعد نشوب القتال في الشمال الشرقى في ١٨ سبتمبر ١٩٣١ ابلغ تشيانغ كاي شيك تشانغ شيوه ليانغ مرارا بأن يأمر جنده في الشمال الشرقى ”بألا يقاوموا تحت اى ظرف من الظروف لكي يتجنبوا توسيع القتال“ . وبعد اربعة ايام ، في ٢٢ سبتمبر ، اعلن تشيانغ كاي شيك في اجتماع حاشد للكومينتانغ في نانجينغ (نانكين) ان الصين يجب ”ان تقابل القوة بالقوة“ ،

وتقابل الوحشية بالسلم ، وتحمل الاذلال الذى لحق بها ، وتكبح غضبها ،  
وتقبل مؤقتا ما لا يقبل الى ان تعطى العدالة الدولية حكمها “ . ولكنه فى الوقت  
نفسه كان يواصل الحرب الاهلية داخل الوطن بمتهى الوحشية ضاربا  
بـ ” السلم “ و ” الحق “ عرض الحائط .

وفى ٣٠ سبتمبر طلب الكوميتانغ من عصبة الامم ان ترسل لجنة تحقيق  
حيادية الى الشمال الشرقى . وبعد نقاشات مطولة وافقت اليابان على ذلك فى  
١٠ ديسمبر ، وصدر قرار بالدعوة الى انشاء لجنة تحقيق : وقد شكلت اللجنة  
من مواطنى خمسة بلدان وهم اللورد ليتون من بريطانيا ( رئيسا ) واللواء فرانك  
روس مكورى من الولايات المتحدة الامريكية والفريق هنرى كلوديل من  
فرنسا والكونت آلدروفانى من ايطاليا والدكتور هانترش سناى من المانيا . وتحركت  
هذه اللجنة فى ٣ فبراير ١٩٣٢ ، وبعد زيارة انحاء من الصين وطوكيو وصلت  
الى الشمال الشرقى فى مايو . وكان اليابانيون فى ذلك الحين يشنون اوسع حملاتهم  
العدوانية بينما كانت حكومة نانجينغ تقدم المزيد من التنازلات .

وفى ٣ مايو اجتمعت بلجنة التحقيق مدة استغرقت حوالى ربع ساعة سألونى  
خلالها سؤاين : كيف جئت الى الشمال الشرقى ؟ وكيف اسست ” دولة  
منشوريا “ ؟

وقبل ان اجيبهم اومضت فى ذهنى فكرة . لقد تذكرت ان جونستون  
اخبرنى فى الماضى ان بوابات لندن مفتوحة لى ، وتساءلت ان كانوا يوافقون  
على اخذى الى لندن اذا انا اخبرتهم بأننى لم اصبح ” الرئيس التنفيذى لدولة  
منشوريا “ الا نتيجة لخداع دويهارا وتهديدات اتاجاكى . ولكننى تذكرت  
ان اتاجاكى ورئيس اركان جيش قواندونغ ، هاشيموتو تورانوسوك ، كانا  
جالسين بجانبى . وب نظرة الى وجه اتاجاكى البغيض شرعت اقول فى اذعان  
ما قيل لى مسبقا : ” لقد جئت الى منشوريا بعد ان اختارتى الجماهير المانشوية .  
ان بلادى مستقلة تماما . . . “

فهرز اعضاء لجنة التحقيق جميعا رؤوسهم وابتسموا ، ولم يسألوا اى سؤال آخر . ومن ثم التقطنا صورة جماعية وتبادلنا معا انخاب الشامانيا . وبعد ان غادرت اللجنة تهلل وجه اتاجاكي الشاحب الفاتر بالابتسامات وهو يشيد بأدائى : ” ان اسلوب سعادتكم رائع جدا ؛ لقد تكلمتم على نحو مجتبع . ” وهنأنى كذلك تشنغ شياو شيوى .

عرضت على فيما بعد ترجمة لمقالة نشرها كوماي فى المجلة اليابانية « تشوكورون » فى اكتوبر ، وبعد تلك المقالة مباشرة وقع « تقرير لجنة التحقيق » بين يدى . وكلتا الوثيقتين تؤكد رأى تشنغ وابنه بأن المسألتين اللتين جذبتا انتباه اللجنة حقا هى ” الفرص المتساوية ” و ” الباب المفتوح ” . كان عنوان مقالة كوماي « دولة منشوريا تتحدث الى العالم » ، وقد تضمنت وصفا لمحادثاته مع اللورد ليتون والآخرين . وقال كوماي ان السؤال الاول الذى سألته ليتون هو : ” ألم يكن تأسيس دولة منشوريا سابقا لأوانه بعض الشيء ؟ ” فأجاب فى شيء من الهذيان انه كان متأخرا جدا لا مبكرا . واستمرت المحادثة كما يلى :

سألنى الجنرال مكوى : ” هل اعلان دولة منشوريا لمبدأ الباب المفتوح مطبق ؟ ” فأجبت فى الحال ان الباب المفتوح والفرص المتساوية هما من المبادئ الاساسية فى البلاد . واستطردت : ” من بين جميع البلدان التى كان لها تعامل فى السابق مع الصين ، كانت امريكا الروح المرشدة فى مبادراتها الى اتباع هذه السياسة . ولكن بينما هذا المبدأ يقبل الآن فى كل مكان من العالم ، اغلقت الصين ابوابها . أيمكن ان توجد فى الصين الآن ابواب مفتوحة ؟ لقد فتحنا الآن ابواب دولة منشوريا بمفتاح قوى جدا ، وافنا لنستحق الشكر على ذلك لا احتجاجاتكم ايها السادة . . . ويجب ان اضيف ايضا انه ليس هناك باب مفتوح عندما يصبح الامر متعلقا بالدفاع الوطنى ، ان هذا لا مثيل له فى اى بلد آخر فى العالم . ”



ثم سألتني ليتون : " هل تضع دولة منشوريا مبدأ الفرص المتساوية موضع التطبيق ؟ "

فأجبت دون تردد : " ان بلادك هي التي سبقت الى تطبيق الفرص المتساوية في الصين . ففي اواخر اسرة تشينغ السابقة ، حيث جلب الانحلال السياسي في الصين البلاد الى حافة التجزئة ، حذر روبرت هارت بلاط تشينغ من انه اذا ما استمرت الصين في الطريق الذي تسلكه ، فانها ستتوقف عن اداء اى دور في الشؤون الدولية . وسيكون من الافضل لها ان تعتمد على الغرب ، كما ان الادارة الجمركية ضرورية تماما . وعندها عينت حكومة تشينغ هارت هذا مفتشا عاما لجمارك الملاحة البحرية الامبراطورية . واسست بذلك ادارة جمارك الملاحة البحرية الامبراطورية . ونظرا الى ان هذه الادارة استخدمت كثيرا من الانكليز والفرنسيين واليابانيين ، فقد عرفت بأنها من اكثر المؤسسات الحكومية المعتمد عليها في الصين ، وبسببها قدمت الدول قروضا للصين كانت بمثابة مساعدة مالية كبيرة . واعتبر البريطانيون الجمارك تساويا في الفرص ، ولكن اذا اردنا نحن اليابانيين ان نعمل للجمارك فعلينا ان نجتاز امتحانا قاسيا في اللغة الانكليزية يتعذر اجتيازه تقريبا .

" . . . ان دولة منشوريا دولة اسست من خلال تعاون المانشويين واليابانيين ، ولهذا السبب تنشر جميع وثائق الدولة باللغتين المانشوية واليابانية . واننا سنرحب ترحيبا حارا بأى شخص من اية جنسية يجيد اللغتين المانشوية واليابانية ويقبل بالشروط التي تقدمها دولة منشوريا . هذا ما نعينه بشاوى الفرص . "

وسألتهم ان كانت لديهم اية اسئلة اخرى ، فأجابوا جميعا : " لا حاجة لطرح اى سؤال آخر حيث اننا فهمنا تماما وضع دولة منشوريا . واننا راضون تماما . "

وعندما كنت في وداع اعضاء لجنة تحقيق عصبة الامم في محطة شينجينغ (تشانغتشون) صافحني ليتون بحرارة وقال في خفوت : " اتمنى لدولة منشوريا الجديدة تطورا سليما . "

وسرت هذه المحادثات تشنغ شياو شيوى وابنه سرورا كبيرا ، حتى ان تشنغ تشوى قدر ان عصبة الامم ربما تتخذ قرارا للعمل على ايجاد ادارة دولية لمنشوريا . بل كانا متأكدين اكثر فأكثر من ان هذا سيحدث عندما نشر تقرير لجنة التحقيق . وقد نصت هذه الوثيقة صراحة على ان الصين يجب ان تقبل باشراف دولي . ووصفت رغبة اليابان في انشاء " حكومة مستقرة " بأنها رغبة ليست " غير معقولة " ، ولكنها اضافت تقول : " انه لفي مجرد جو من الثقة الخارجية والسلم الداخلي . . . سيتحصل وشيكا رأس المال اللازم للتطور السريع في اقتصاد منشوريا . " وبدا كأن تشنغ وابنه كانا مصبيين في توقعهما ان تؤيد اللجنة الادارة الدولية مع تأمين حصص لجميع الدول .

تحققت كذلك نبوءة تشنغ شياو شيوى وابنه بمعادة السوفيات . فقد عبرت اللجنة عن تعاطفها مع اليابان في اعتبار منشوريا " شريان حياتها " . واعترفت بـ " مصالحة اليابان في منع منشوريا من ان تكون قاعدة للعمليات الموجهة ضد اراضيها وحتى برغبتها في ان تكون قادرة على اتخاذ جميع الاجراءات المناسبة اذا ما اخترقت دولة اجنبية في ظروف معينة حدود منشوريا . " ولكن اللجنة مضت تقول : " انه لمن الممكن ان يسأل ان كان الاحتلال العسكري لمنشوريا لمدة غير محددة مع ما يستلزم من عبء مادي ثقيل ، هو حقا الطريقة الأكثر فاعلية في الضمان من هذا الخطر الخارجي ؟ وان كان . . . الجنود اليابانيون لن يصابوا بارتباك شديد اذا هم احيطوا بسكان حرونين او متمردين مدعومين من صين معادية . " ان اليابان " قد تجد من الممكن ، مع تعاطف وارتياح بقية بلدان العالم وعدم تكبدها اية خسارة ، ان تحقق امنا افضل من الذى تحققه بالوسيلة المكلفة التى تسلكها في الوقت الحاضر " اذا هى اهتمت الى حل " مشابه للترتيبات التى توصلت اليها الدول العظمى الاخرى في اجزاء متعددة من العالم . "

وعارضت اللجنة العودة الى الوضع السابق او المراهنة على الوضع الراهن

واقترحت بدلا من ذلك ان " نظاما مرضيا للمستقبل يمكن ان ينشأ عن النظام الحالي ( اى نظام " دولة منشوريا " ) دون اى تغيير عنيف " ، ويمكن ان يعطى درجة كبيرة من الحكم الذاتى ويضم اجانب من جميع البلدان للعمل مستشارين . ونظرا الى ان مصالح اليابان فى الشمال الشرقى اكثر من مصالح اية دولة اخرى ، فستكون هناك حصّة كبيرة لليابانيين ، ولكن ستكون هناك ايضا حصص محددة للمواطنين من ابناء البلدان الاخرى . ولوضع هذا الشكل الجديد للحكومة موضع التنفيذ اقترحت اللجنة الخطوة الاولى وهى انشاء مؤتمر استشارى يتكون من ممثلى الحكومتين الصينيه واليابانية ومن " مراقبين حياديين " . وهذا المؤتمر سيعكس الامر الى مجلس عصبة الامم اذا هو اخفق فى ان يتوصل الى تسوية . وكانت اللجنة مؤيدة للرأى القائل ان طريقة " التعاون الدولى " مناسبة لبقية اجزاء الصين كما هى مناسبة لـ " منشوريا " . والسبب الذى قدموه لذلك هو السبب الذى قدمه تشنغ وابنه : ان الصين تملك فقط قوة عاملة ، واذا هى لم تستورد رأس المال والتكنولوجيا والمواهب فستكون عاجزة عن بناء نفسها .

بعد ايام قليلة من الاطلاع على تقرير اللجنة اخبرنى تشنغ شياو شيو بنشوة عظيمة ان الامور " تبشر بالخير " . وقال ان هو شى قد نشر مقالة اعلن فيها ان التقرير عبارة عن " حكم عالمى " .

ولكن تشنغ وابنه اصيبا باكتئاب شديد من جراء ردة الفعل اليابانية . فمع ان اللجنة قد ركزت مرارا على انها تحترم حقوق اليابان ومصالحها فى الشمال الشرقى حتى انها وصفت " حادثة ١٨ سبتمبر " بأنها اجراء دفاعى من اليابان ، الا ان ناطقا باسم وزارة الخارجية اليابانية لم يتفق مع اللجنة الا فى نقطة واحدة : " اقتراحات لجنة التحقيق بخصوص منشوريا قد يمكن تطبيقها على العلاقات بين الصين والقوى الاخرى والاستفادة من ذلك كخطة الاشراف الدولى على سبيل المثال . " ولكن اليابان لم تكن مهمة ايدا

بالخطط الخاصة بالادارة الدولية للشمال الشرقى . وكما ذكرت آنفا ان  
تحمس تشنغ شياو شيوى لـ ” الباب المفتوح ” و ” القرص المتساوية ”  
هو السبب فى خسارته فيما بعد عطف اليابانيين ونبذهم له فى النهاية .  
وقبل اعلان تقرير اللجنة تخيلت انه اذا ما وضع الشمال الشرقى تحت  
اشراف دولى كما امل تشنغ وابنه ، فسيكون هذا افضل بكثير بالنسبة لى  
من ان اكون مع اليابانيين وحدهم . ولكن ظل عندى امران مقلقان . الاول  
هو ان حكومة تشيانغ كاي شيك فى نانجينغ يمكن ان تشترك فى ” الاشراف  
الدولى ” ، وهذا سيجعلنى فى وضع صعب ؛ والثانى هو انه حتى اذا تركتني  
حكومة نانجينغ وشأنى ، فان لجنة الاشراف الدولية لا تريدنى امبراطورا  
اذا لم تكن ” الحكومة الذاتية الحكم ” ملكية . ولكن الاكثر خطورة هو  
الانطباع العميق الذى شكلته عن وحشية اليابان التى لم يكبح جماحها اى  
اجراء دولى . وعندما تذكرت الفكرة التى اومضت فى ذهنى عندما قابلت  
اللجنة رأيت ان من حسن الحظ اننى لم اتصرف تصرفا احمق ، والا فان اجلى  
كان قد انقضى . واهم شىء الآن هو عدم ازعاج اليابانيين ، ذلك لأننى لن  
اكون قادرا على ارتقاء العرش من جديد دون مساعدتهم .

### ” امبراطور ” للمرة الثالثة

وكان قد تم الاتفاق على انه اذا لم يقم جيش قواندونج بتأسيس ملكية  
بعد ان تمضى على سنة رئيسا تنفيذيا ، فيوسعى ان استقيل . ولكننى لم افعل  
ذلك حيث كنت افترق الى الشجاعة اللازمة ، وحتى اذا سمح لى جيش قواندونج  
بذلك فليس امامى مكان اذهب اليه .  
وبعد بضعة ايام من الذكرى السنوية لتسلمى المنصب دهشت لقيام

موتو قائد جيش قواندونغ بطرح هذه المسألة خلال احد اجتماعاتنا المنتظمة :  
وقال ان اليابان تبحث في شكل " دولة منشوريا " ، وان هذه المشكلة ستحل  
عندما يحين الموعد الملائم .

وبعد ذلك بوقت قصير ، في ٢٧ مارس ١٩٣٣ ، انسحبت اليابان من  
عصبة الامم لتزيد من حريتها في التحرك . وفي الوقت نفسه انطلقت في هجماتها  
العسكرية على الصين ، مقتحمة جنوب السور العظيم ومطوقة بكين وتيانجين .  
وفي نهاية مايو قدمت حكومة نانجينغ المنهمكة في الحرب الاهلية ضد  
الشيوعيين مزيدا من التنازلات لليابان في توقيعها على " اتفاقية تانغكو " .  
وبموجب هذه الاتفاقية انسحب الجنود الصينيون من منطقة واسعة جنوب  
السور العظيم حيث اشتد تحكم اليابان بشمالى الصين . وكانت هذه الاحداث  
حافزا قويا لمؤيدى اعادة الملكية الذين نشطوا ثانية في الشمال الشرقى وفي شمالى  
الصين . وفي يوليو استقال كوماى ، رئيس مكتب الشؤون العامة في " مجلس  
دولة منشوريا " ، من منصبه ليذهب ويعمل سرا من اجل " استقلال " شمالى  
الصين . واخبر تشنغ شياو شيوى بأنه ذاهب للعمل على اعادة ملكى في  
انحاء البلاد كلها . وهذه الاخبار كلها جعلتني وزملائي مسرورين غاية  
السرور .

واصبحت احلامى بالامبراطور اكثر حيوية . وتتبع الاخبار ببالف  
الاهتمام معلقا آمالى على الجنود اليابانيين الذين كانوا يذبحون ابناء وطنى :  
وبعد احتلال اليابانيين لمقاطعة رخه (٤) عام ١٩٣٣ اقامت مأدبة لتهنئة  
موتو والضباط الآخرين الذين اشتركوا في القتال ، ولأتمنى لهم دوام الانتصارات  
العظيمة . وعندما توقف الرتل اليابانى بعد احتلاله ميون ، على بعد خمسين  
كيلومترا فقط عن بكين ، اصبت بخيبة امل شديدة . واخبرني تشنغ شياو  
شيوى ان الاحتلال العسكري اليابانى لشمالى الصين وحتى لجنوبيها ليس الا  
مسألة وقت ، والمسألة الملحة حاليا هى اقرار شكل " دولة منشوريا " وقال ان

هذا لا يقره جيش قواندونغ بل طوكيو ؛ فقد سمع ان كثيرا من رجال الدولة اليابانيين الكبار مؤيدون لعودتى الى العرش . لذلك شعرت بضرورة ان يكون لى شخص فى طوكيو يعمل على كسب تأييدهم ، او ليزودنى على الاقل بآخر الاخبار .

وكان الرجل الذى اخترته لهذه المهمة هو حارسى كودوتيتسو سابورو ، اليابانى الذى رافقنى من تيانجين الى الشمال الشرقى . فقد اعطانى انطبعا عن عدم ارتياحه لموقف جيش قواندونغ ، وكان اليابانى الوحيد الذى يخاطبنى بعبارة ” جلالتكم الامبراطورية “ بعد ان اصبحت رئيسا تنفيذيا . وقد اظهر ذات مرة ولاءه لى بتدوقه كوب شاي شككت فى انه يحتوى سما ومنحته الاسم الصينى تشونغ ( ” مخلص “ ) وعاملته على انه واحد من ابناء اسرتى . وعندما عاد من اقامته القصيرة فى اليابان اخبرنى بأنه رأى مينامى جيرو وبعض الاشخاص القياديين فى جمعية التنين الاسود ، وانه سمع بأن السلطات العسكرية مؤيدة للملكية . وهذه الاخبار جعلتنى اعتقد بأن فرصتى قد اصبحت وشيكة . وتأكدت تقارير كودو فى اكتوبر ١٩٣٣ . فقد ابغنى هيشيكارى تاكاشى ، قائد جيش قواندونغ الجديد ، رسميا بأن الحكومة اليابانية على وشك الاعتراف بى ” عاهلا لامبراطورية منشوريا “ .

فطرت فرحا ، واول ما خطر لى ان احدد ملابس التنين الامبراطورية . وقد جلبت هذه الملابس من بكين . حيث كانت محفوظة عند احدى الزوجات العليات ، ولكننى لم استطع لبسها لأن جيش قواندونغ وضع لى ان اليابان اعترفت بى ” عاهلا لامبراطورية منشوريا “ وليس لأسرة تشينغ العظيمة . وتعين ان البس بدلا من ذلك ” بزة القائد العام للقوات البرية والبحرية والجوية لامبراطورية منشوريا “ . فقلت لتشونغ شياو شيوى :

— هذا لا يمكن ان يتم اطلاقا . اننى سليل آيشين — جيواو ، لذلك سأستمر فى النظام الامبراطورى . وضافة الى ذلك ماذا سيقول ابناء عشيرة

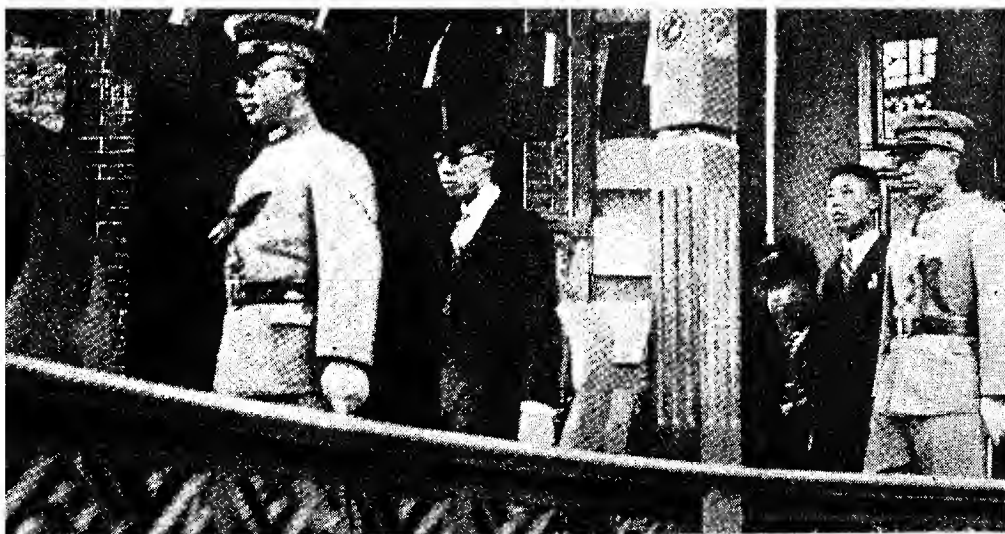
آيشين - جيولوه اذا رأوني ارتقى العرش بيزة اجنبية الطراز ؟  
فقال تشنغ شياو شيوى وهو ينظر الى ثياب التنين الموضوعة على الطاولة :  
- ان جلالتكم على صواب تام ، ولكن ماذا سيقول جيش قواندونغ ؟  
- اذهب وحديثهم نيابة عنى .

وبعد ان غادر حدثت الى ثياب التنين بعاطفة مشبوبة ، تلك الثياب التى  
حفظتها الزوجة العلية رونغ هوى اثنتين وعشرين سنة . لقد كانت ثياب تنين  
امبراطورية حقيقية لبسها قبلى الامبراطور قوانغ شيوى ، ثيابا ظلت احلم  
بها اثنتين وعشرين عاما . سوف البسها لأرتقى العرش من جديد ، وهذا سيحدد  
اعادة ملكية اسرة تشينغ .

ورجع تشنغ شياو شيوى قبل ان يعاودنى الهدوء ، وقال ان جيش قواندونغ  
يصبر على ان البس بزة عسكرية من اجل التتويج . فلم ارض بذلك ، وارسلت  
تشنغ للتفاوض معهم مرة ثانية . وفيما بعد وافقوا على السماح لى بلبس ثياب  
الثنين لأداء مراسم " اعلان الارتقاء الى السماء " ، فرضيت بذلك .

وفى ١ مارس ١٩٣٤ اديت الشعائر القديمة لاعلان ارتقائى فوق " مذبح  
سماوى " ترابى نصب فى ضاحية تشانغتشون الشرقية ، وبعد هذا عدت الى  
مقرى حيث بدلت ثياب التنين الى بزة " القائد العام " لأؤدى مراسم التتويج .  
وقد اعطى " مكتب الرئيس التنفيذى " اسما جديدا هو " مكتب القصر " ،  
 واصبح المكان الذى كنت اقيم فيه يدعى " قصر الامبراطور " . ( عبارة  
" القصر الامبراطورى " لم يكن ممكنا استخدامها لأن ذلك كان اسم  
القصر للامبراطور اليابانى . ) وباستثناء مبنى جديد آخر فان القصر كان  
بالضبط هو " مقر الرئيس التنفيذى " بعد ان اعيد تزيينه واعطى اسما  
جديدا . وفى احدى قاعاته اقيمت حفلة التتويج .

فرشت الارض بسجادة قرمزية . وعلق على جزء من الجدار الشمالى  
ستائر حرير وضع امامها كرسي على الظهر نقش عليه " الشعار الامبراطورى "

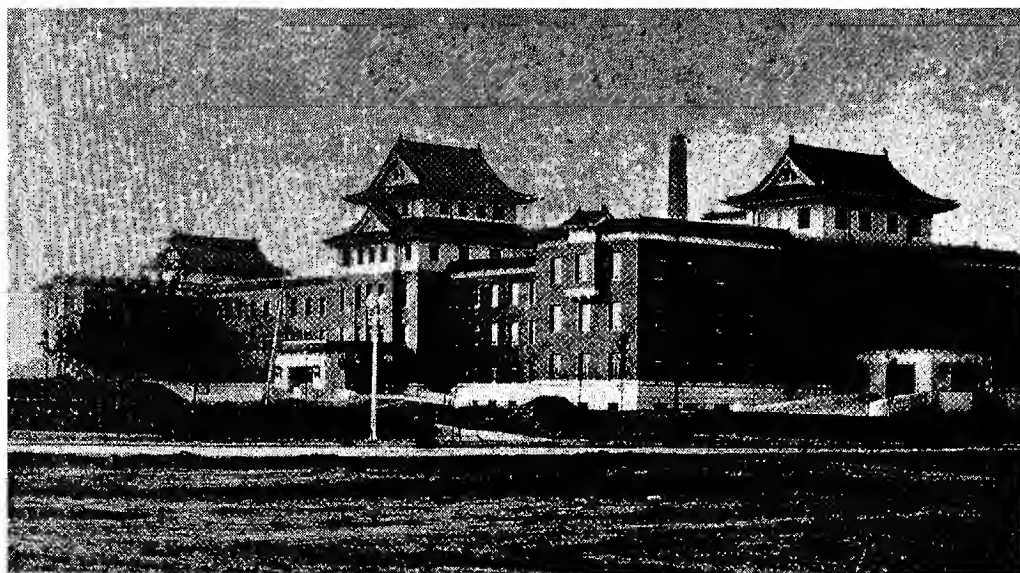


في الطريق لتسلم منصبى "رئيس تنفيذى  
لدولة منشوريا" فى ٩ مارس ١٩٣٢

التوجه لتقديم القرابين للسماء قبيل الاحتفال بـ "ارتقائى"  
عرش "امبراطورية منشوريا" فى ١ مارس ١٩٣٤

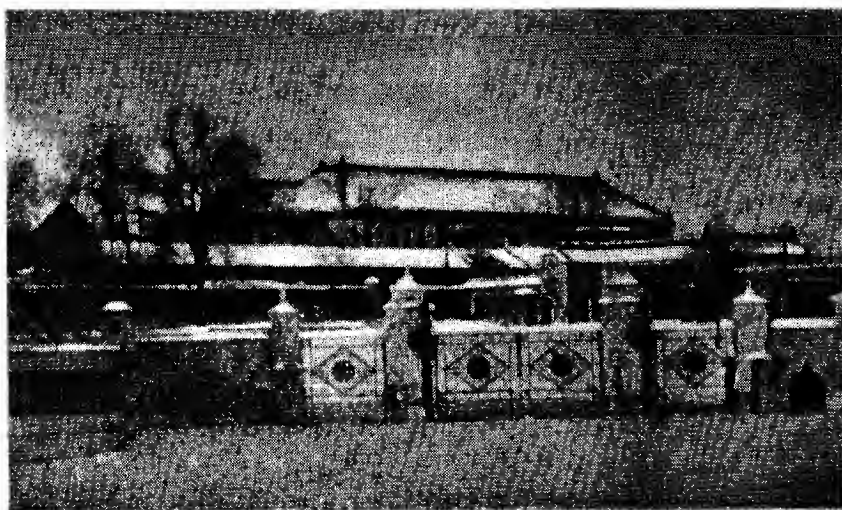


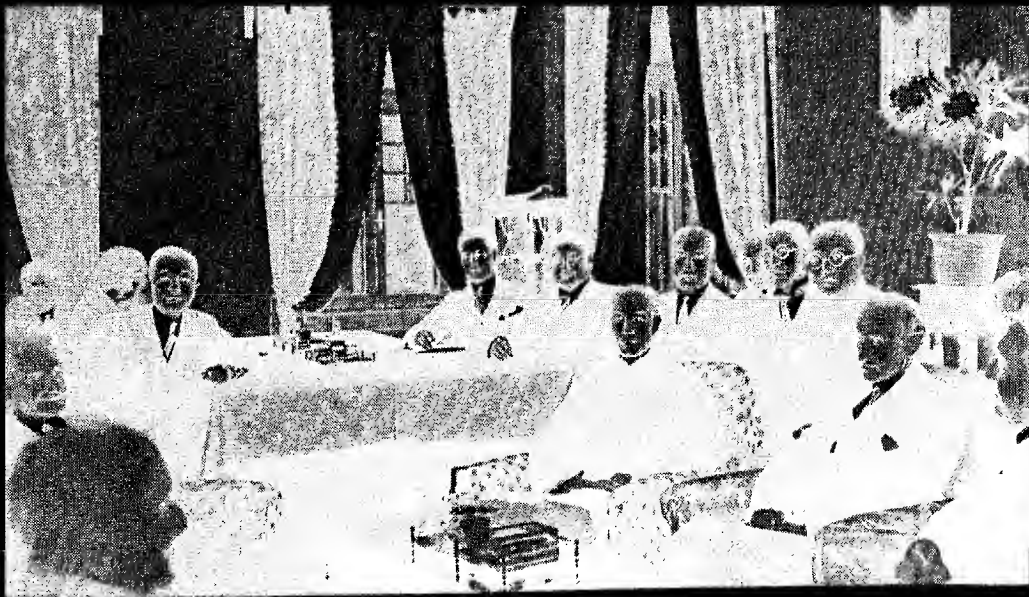




المقر العام لجيش قوانغدونغ الياباني

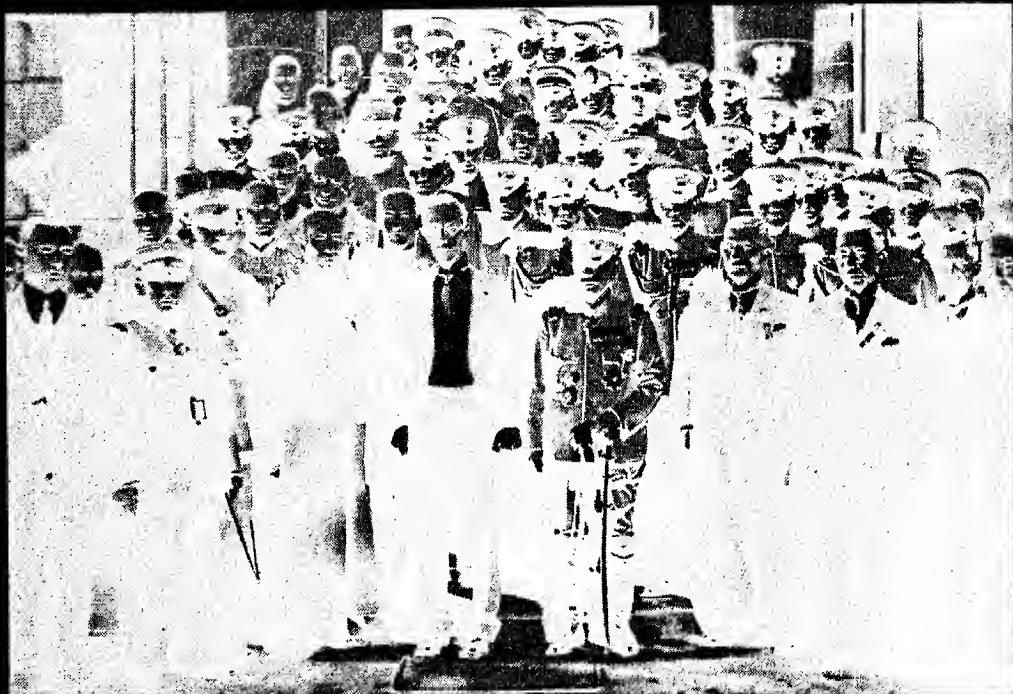
”قصرى“ فى تشانغتشون

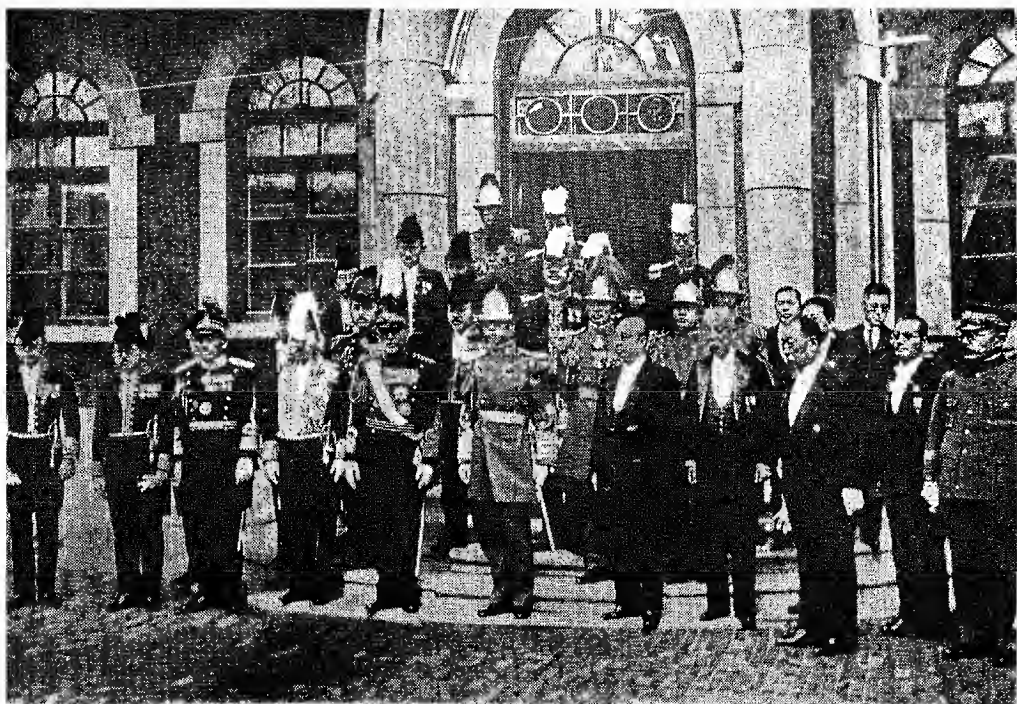




تشنغ شياو شيوى يقابل لجنة ليتون . الثانى من اليمين : اللورد ليتون ، السادس من اليمين :  
 تشنغ تشوى ، السابع من اليمين : تشنغ شياو شيوى ، العاشر من اليمين : كوماي توكيوزو

بعد توقيع " بروتوكول اليابان - امبراطورية منشوريا ". الصف الامامى ، الرابع من اليمين : موتو نوبويوشى ، قائد  
 جيش قواندونغ ، السابع من اليمين : تشانغ جينغ هوى . الصف الثانى ، السابع من اليمين : اتاجاكى سايشيرو

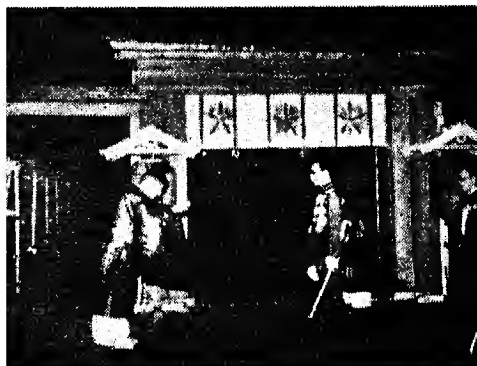
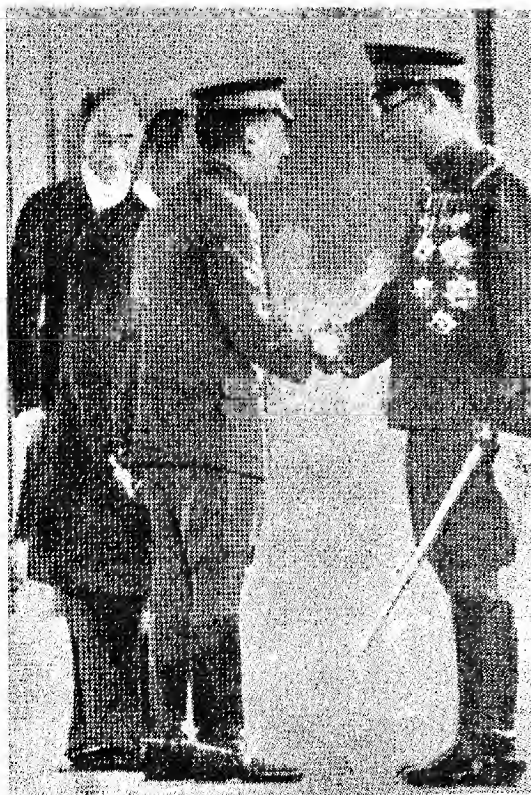


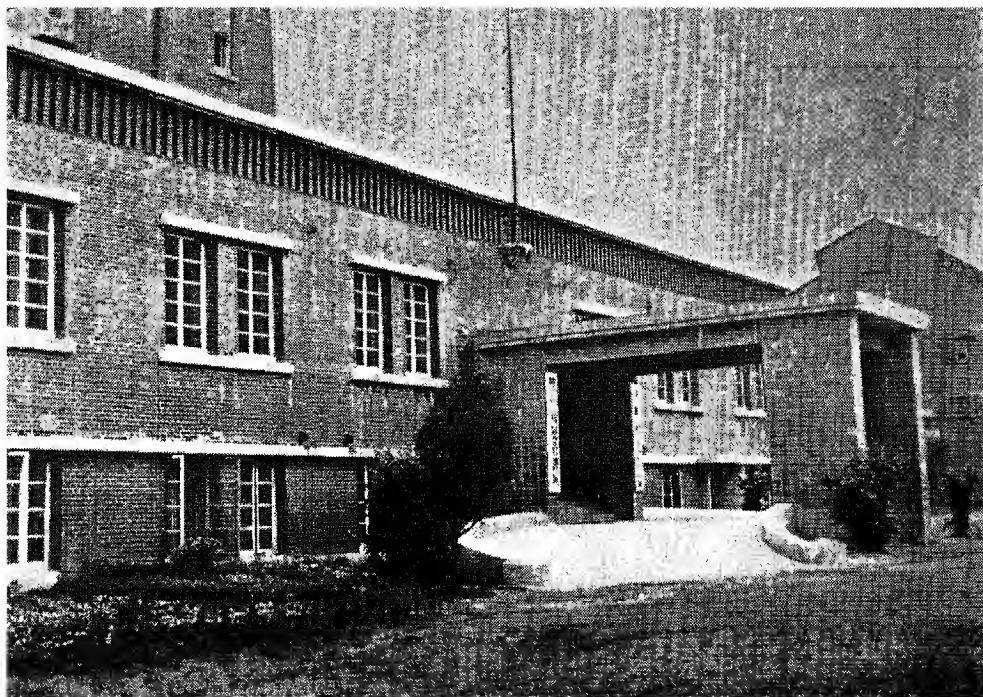


صورة جماعية تضم "امبراطوري الاعلى" ،  
قائد جيش قوانغدونغ هيشيكاري  
تاكاشي (الخامس من اليسار) ،  
التقطت بعد تتويجي امبراطورا اميلا

لقائي مع الامبراطور الياباني هيروهيتو  
خلال زيارتي الى اليابان عام ١٩٣٥

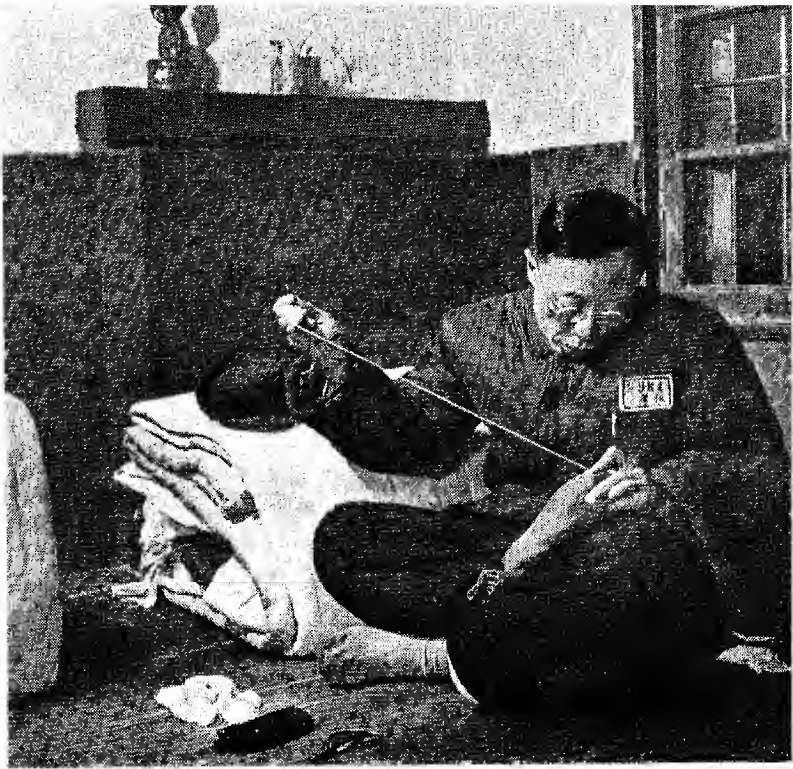
التعبد في "معبد التأسيس الوطني"





سجن مجرمى الحرب فى فوشون





التعلم من لا شيء

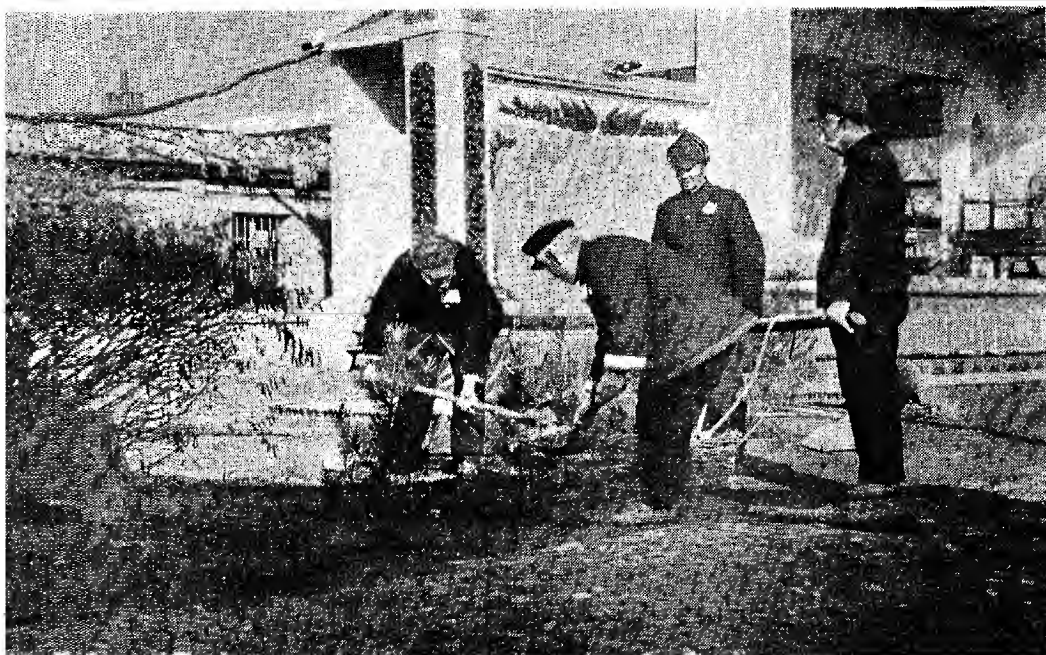


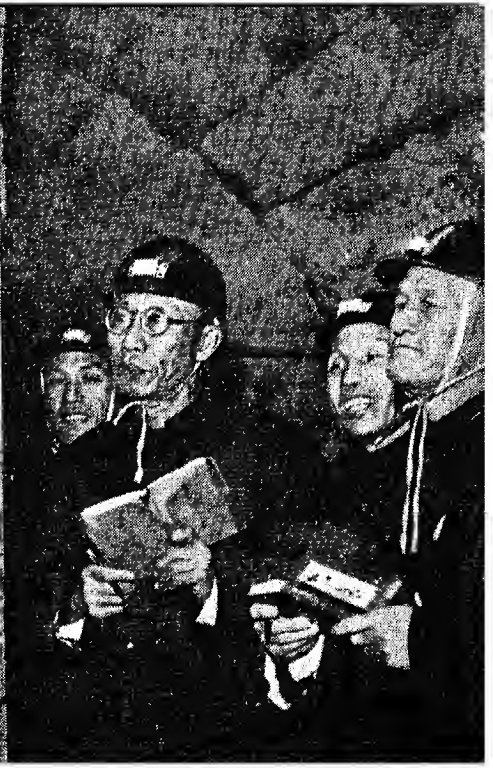


سقى النباتات  
داخل الدفيئة

العمل

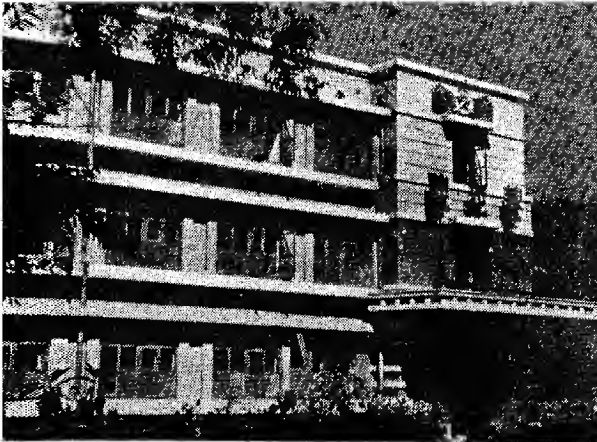
تحسين الفناء



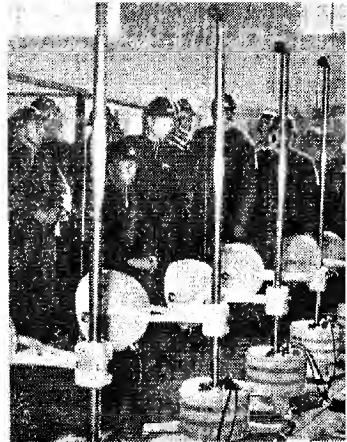


حانوت تحت الارض

زيارتنا الى مناجم فوشون



دار المال العجزة



قاعة المصباح الشمسى



## الدراسة والحياة اليومية

في الاعلى : مراجعة المصادر

في الوسط : مطالعة آخر عدد  
من صحيفة الحائط

في الاسفل : دراسة الطب التقليدي  
الصيني

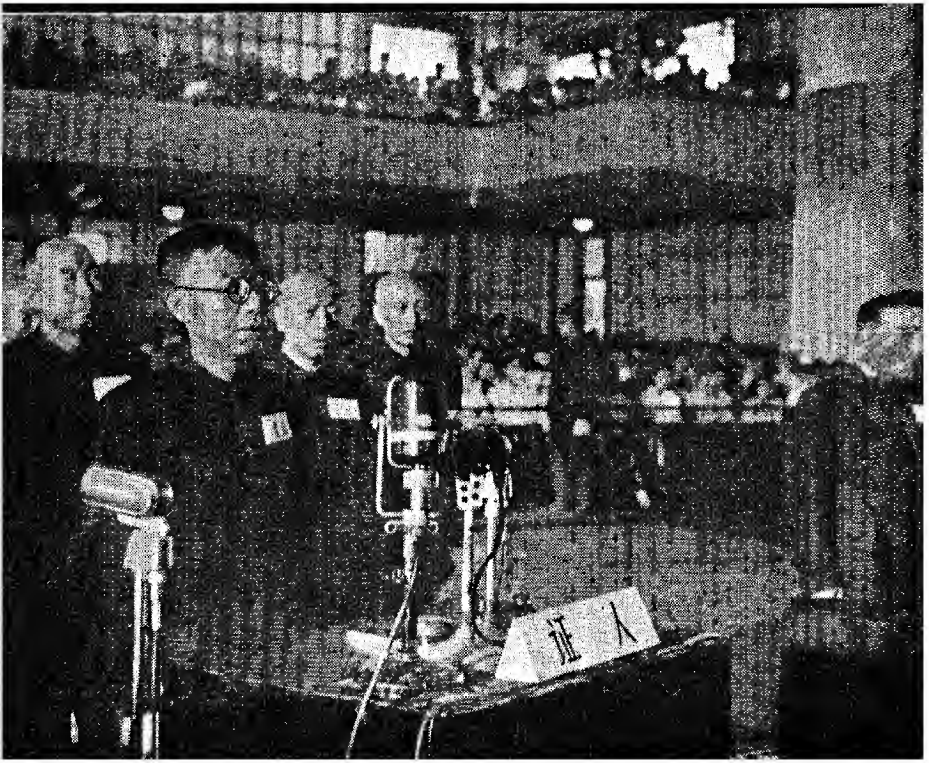




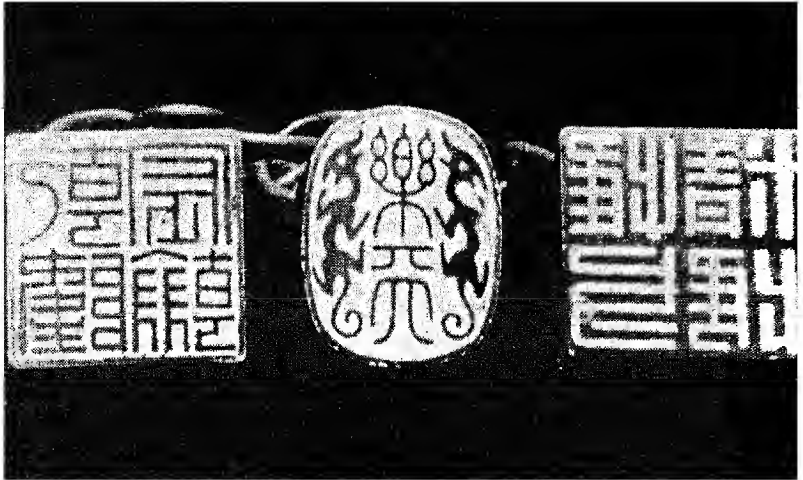
التمارين الصباحية



لعبة ويتشى مع بوجيه



الظهور شاهدا في المحكمة العسكرية للمحكمة  
الشعبية العليا . واقفا على اليمين فوروى تادايوكي



تراث الاسرة الذي سلمته للدولة :  
الأختام الامبراطورية من حجر "تيانهاونغ"



استلام العفو الخاص  
في ٤ ديسمبر ١٩٥٩

# 中華人民共和國最高人民法院 特赦通知书

1080 年度赦字第 611 号

遵照一九五九年九月十七日中华人民共和国主席特令，本院对  
在押的(张清、周、周)等七名罪犯，经依法审查，

符合特赦条件，准予特赦，此布。

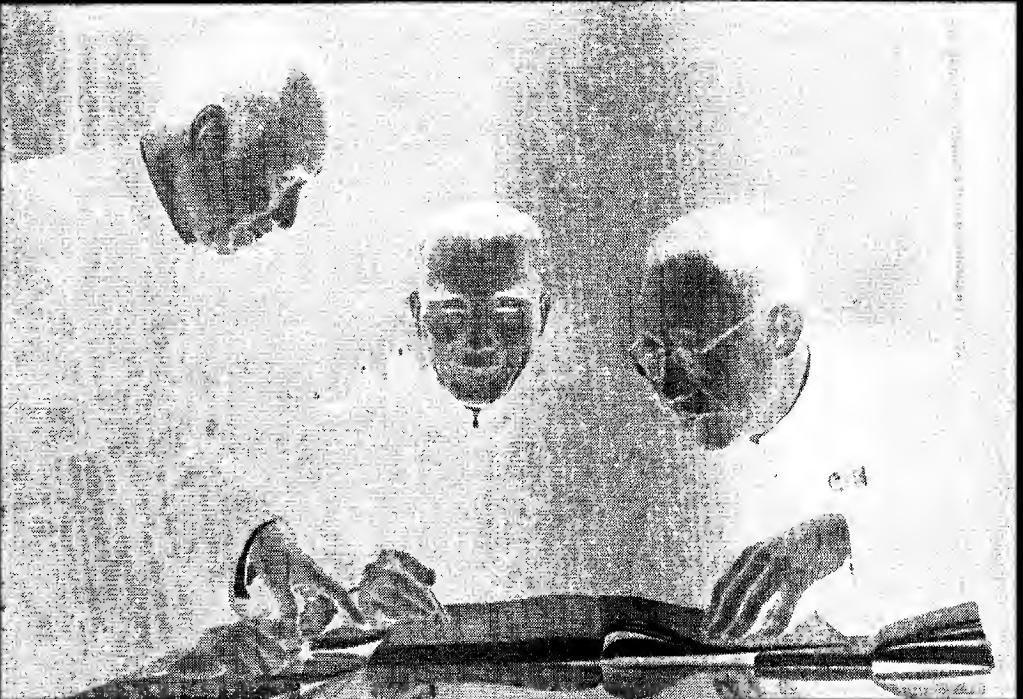
以上七名罪犯，在押期间，表现良好，认罪悔过，已具备悔改表现，准予特赦，此布。





العمل في حديقة  
بكين للنباتات

دراسة الأدب والتاريخ مع  
زميلي يانغ بوه تاو ( الأول  
من اليسار ) ووانغ ياو  
وو ( الثاني من اليسار )





ثلاثة اجيال من عشيرة آيشين - جيولوه يمزون  
عيد الربيع عام ١٩٦١ في بيت تساي تاو .  
تساي تاو يليني الى اليمين ، وبو جيه خلفي

已选

# 选民証

姓名 愛新覺羅溥儀

性別 男 年齡 54 岁

注意: 一、憑証參加选举

二、只准本人使用

北京市 區(市) 选举委员会發

1960年11月26日

بطاقتي الانتخابية





صورة اخذت بمناسبة الذكرى السنوية الخمسين لثورة ١٩١١ .  
من اليسار : لو تشونغ لين ، من اليمين : شيونغ بينغ كون

جانب من الرفاف يوم عيد العمال عام ١٩٦٢ ، عروستي لي شو شيان وانا ، الثاني والثالث من اليمين ، الصف الاوسط





التوجه الى العمل في الصباح مع زوجتي لي شو شيان

من ثبات الساحب ووقفت امام هذا الكرسي وعلى جانبي الاثنين موظفو القصر . ووقف الموظفون المدنيون والعسكريون ، وعلى رأسهم رئيس الوزراء تشنغ شياو شيوى ، فى صف امامى وانحنوا لى انحناء شديدة ثلاث مرات . وانحنيت ردا على انحناءاتهم . ومن ثم قدم لى هيشيكارى قائد جيش قواندونغ اوراق اعتماده "سفيرا" يابانيا وهنائى . وانتهت المراسم ، وجلس على كرسي العرش ، فأدى لى ابناء عشيرة آيشين - جيولوه الذين جاءوا من بكين وبعض اعضاء ادارة الاسرة السابقين السجدة التسع وانا جالس على الكرسي . وارسل لى مخضرمو اسرة تشينغ من الصين جنوبى السور العظيم مذكرات التهئة ، وكان زعيم عالم الرذيلة والاجرام فى شانغهاى تشانغ يوى تشينغ بين اولئك الذين اعلنوا عن انفسهم اتباعا لى .

وفى ٦ يونيو جاء الامير تشيشيو (تشيشيو - نو - ميا ياسوهيتو) ، ليهننى باسم شقيقه الامبراطور اليابانى . واعطانى الوشاح اليابانى الكبير الاقحوانى ، كما اعطى وان رونغ وسام التاج .

ولم احصل على جميع الحقوق التى كان هو سى يوان يذكرنى بالمطالبة بها دائما ، ولكننى كنت غافلا عن ذلك . وكانت الطريقة التى استقبلت بها والدى فى محطة تشانغتشون عندما جاء من بكين مع اشقائى وشقيقائى بعد شهر ، صورة رائعة للنشوة العظيمة التى كنت استشعرها .

فقد ارسلت مجموعة من موظفى القصر والحرس ليصطفوا على رصيف محطة القطار لاستقباله ، بينما انتظرت انا ووان رونغ خارج بوابة القصر . وليست هى ملابس البلاط بينما لبست انا البزة العسكرية ، وغطى صدرى بالنياشين اليابانية و"المانشوية" ونياشين من "امبراطورية تشينغ العظيمة" ارسلت فى طلبها من جنوب السور العظيم . ولما كنت لا اجرؤ على ليس نياشين تشينغ هذه امام جيش قواندونغ ، فقد سررت بهذه المناسبة لاطهارها . وعندما وصلت سيارة والدى الى القصر حيثه تحية عسكرية وركعت له



وان رونغ ، ومن ثم رافقته الى قاعة جاوس لم يكن فيها احد سوانا . فركعت له وحييته على الطراز القديم .

واقامت فى ذلك المساء مأدبة كبيرة ، وكان اسلوب الطبخ وقاعدة التشريفات غريبين ، وجلست انا ووان رونغ على رأس الطاولة بصفة مضيف ومضيفة . ورتبت الامور بحيث تعزف جوقة موسيقية منذ اللحظة التى ندخل فيها قاعة المأدبة ، ولا اذكر الآن ما عزفته تلك الجوقة ، وربما لم اختر اى مقطوعة خاصة لأننى كنت احب اى شىء يعزف على البوق .

وعندما حان وقت شرب الشامانيا رفع اخى بو جيه كأسه ، وفقا لما رتبت مقدما ، وهتف : ” عاش الامبراطور صاحب الجلالة ! “ فاشترك جميع افراد اسرتى فى ترديد هذا الهتاف ، مما جعلنى اتيه زهوا .

١٠ وفى اليوم التالى اخبرنى موظف القصر الكبير ، باو شى ، ان القيادة العامة لجيش قواندونغ قد ارسلت شخصا ليحتج باسم السفير اليابانى على اختراقى للاتفاقية بين سلطات الشمال الشرقى السابقة واليابان والتى على ” امبراطورية منشوريا “ الالتزام بها ، وذلك بارسالى حرسا مسلحا الى المحطة . فبموجب هذه الاتفاقية اعتبر شريط الارض الذى على جانبى خط السكة الحديدية ارضا لادارة سكة حديد جنوبى منشوريا ، ولم يكن مسموحا لأى مسلح بدخولها ما عدا افراد الجيش اليابانى . وازادت القيادة العامة لجيش قواندونغ – لا ، السفير اليابانى – ضمانا بألا يتكرر مثل هذا التجاوز ثانية . وكان هذا كافيا لأن يردنى الى صوابى ، ولكن اليابانيين ابقوا لى كثيرا من ماء الوجه . فلم يقوموا بأى احتجاج علنى ، ولم يقولوا عن تلك الحادثة اكثر من ذلك بعد ان ارسلت شخصا ليعتذر ويعد بأن لا يحدث ذلك ثانية . والأهم من هذا انهم رتبوا اشياء كثيرة من الابهة والحفاوة لارضاء غرورى وابقائى اعصى عن الحقيقة .

واكثر ما وجدته باعثا على النشوة فى نفسى هو تلك الزيارات والجولات

## ” الامبراطورية “ :

فقد رأى جيش قواندونغ وجوب قيامى برحلة او رحلتين الى خارج تشانغتشون كل سنة ، وسموا هذه ” الجولات الامبراطورية “ . وتعين ان اشترك كذلك فى اربعة احتفالات رسمية سنويا فى تشانغتشون . احدها تقديم القربان عند ” باغودا الارواح المخلصة “ لليابانيين الذين قتلوا فى الحرب العدوانية ، والثانى تقديم القربان للجنود الموتى من جيش ” امبراطورية منشوريا “ العميل فى ” معبد الارواح المخلصة التى اسست البلاد “ ، والثالث زيارة مقر القيادة لجيش قواندونغ لتقديم التهانى فى عيد ميلاد الامبراطور اليابانى ، والرابع هو حضور الاجتماع السنوى لـ ” جمعية الوثام “ . ووصف زيارتى الى اجتماع ” جمعية الوثام “ يمكن ان يوضح الضجة السخيفة التى صاحبت هذه المناسبات .

لقد انطلقت الى هناك فى موكب من السيارات جدير بامبراطور . وتحركت فى البداية سيارات الدرك ، وتلتها على مسافة سيارة حمراء مكشوفة يجلس فيها مدير الشرطة . وخلفها اتت سيارتى ، وكانت حمراء ايضا ، وعلى كل جانب من جانبيها دراجتان ناريتان . وفى مؤخر الموكب سيارات اتباعى وسيارات اخرى للدرك .

وقبل يوم من خروجى كان بوليس ودرك تشانغتشون يقبضان على جميع ” الشخصيات المريبة “ و” المتشردين “ القبيحين ، وفى اليوم نفسه انتشر رجال الدرك على طول الطريق التى سأسلكها ليمنعوا الناس من السير فيه ، ولم يكن يسمح لأحد بالدخول الى المحلات والمنازل المحاذية للطريق والخروج منها او حتى بأن يطلوا برؤوسهم من النوافذ ، وكان الرمل يذر على الطريق المؤدية الى ” جمعية الوثام “ . وقبل ان تغادر سيارتى القصر تلغى محطة الاذاعة على المدينة كلها باللغتين الصينية واليابانية ان ” عربة الامبراطور صاحب الجلالة تغادر القصر “ . ولدى سماع هذا الاعلان يخرج جميع

موظفى "جمعية الوثام" للقائى ، وعندما تصل سيارتى ينحنون لى انحناءة شديدة يرافقها عزف "النشيد الوطنى" . وبعد استراحة قصيرة اقبل "وزرائى" . وعندما ينتهى هذا الفصل اذهب الى القاعة الرئيسية واعتلى المنصة على انغام موسيقى ، وينحنى المجلس بكامله انحناءة شديدة ، وينحنى قائد جيش قواندونغ انحناءة خفيفة ، فأهز رأسى ردا على تحيته . ثم اتلو خطابا على اعضاء المجلس الذين يقفون جميعا ناكسى الرؤوس اذ لا يسمح لهم بالنظر الى الاعلى ، ويختم ذلك بانحناءة جماعية شديدة لدى مغادرتى القاعة . وعندما اتحرك عائدا الى القصر يذاع اعلان آخر من مكبرات صوت فى كافة انحاء المدينة ، وعلان ثالث لدى وصولى القصر .

وقيل ان هذا كله قد اخذ عن اليابان . وكانت الكلمات المطبوعة على صورتى الفوتوغرافية ايضا مأخوذة عن اليابان . وكان يكتب على صورتى "السيما الامبراطورى" ، ولكن عندما اخذت اشجع اللغة الصينية ذات الطراز اليابانى ، التى مال اليها اليابانيون تحت اسم "اللغة الوثامية" اعيدت تسميتها الى "صورة الامبراطور الحقيقية" . وكانت هذه الصور تعرض فى الدوائر والمدارس ووحدات الجيش وجميع المؤسسات العامة . فمثلا كان بقم نوع من المشكاة فى قاعات اجتماع الدوائر ومكاتب مدراء المدارس ، وفى خارج المشكاة تعلق ستارة ، وخلفها تعلق صورتى مع نسخة عن "مرسومى الامبراطورى" . وكل من يدخل القاعة عليه ان ينحنى اولا نحو الستارة . ومع انه لم يكن هناك قانون يأمر المواطنين العاديين باقتناء "صورة الامبراطور الحقيقية" فى بيوتهم ، الا ان "جمعية الوثام" غالبا ما كانت تجبر الناس على شراء صورتى المشتركة مع صورة وان رونف وتعليقها فى حجراتهم الرئيسية . والمراكز الرئيسية التى كانت تنتشر فيها هذه الوثنية هى المدارس والقوات المسلحة . فكان يعقد اجتماع فى المدارس ووحدات الجيش كل صباح يترتب فيه على المشتركين الانحناء الشديد ، اولا فى اتجاه القصر الامبراطورى

فى طوكيو ، ومن ثم باتجاه قصرى فى تشانغتشون : وكلما مرت الذكرى السنوية لصدور احد ” مراسيمى “ ، كان يقرأ عاليا . وسأقول المزيد عن هذه ” المراسيم “ فيما بعد .

وان اخوض فى الحديث عن ” الجولات الامبراطورية “ التى بنى بها اليابانيون سلطاني . فقد قاموا بها على اكمل وجه ، وهذا بحسب خبرتى لم يكن لمجرد جعل الصينيين يتعودون الطاعة العمياء ويؤمنون بالمعتقدات الخرافية والاقطاعية ، بل لترك نفس التأثير فى الشعب اليابانى ايضا . فما زلت اذكر ان كبير العمال اليابانى فى احد مناجم الفحم قد تأثر حتى البكاء بسماع كلمات قلتها له على انها ” وسام شرف “ . وهذا جعلنى بالطبع اشعر اننى ذو شأن حقا .

بلغت اوهامى وافكارى الخاطئة اوجها عند زيارتى لليابان فى نيسان ١٩٣٥ حيث ظننت انى قد وصلت الى قمة السطعة . قام بكل ترتيبات هذه الزيارة جيش قوائدونغ . وقالوا انها ستكون ضرورية لأعرب عن امتنانى للامبراطور اليابانى على ارساله الامير تشيتشييو لتهنئى بارتقاء العرش ، ولأنتمكن من ابداء دليل شخصى على ” الصداقة اليابانية – المانشوية “ .

وشكلت الحكومة اليابانية لجنة استقبال من اربعة عشر عضوا يرأسها البارون هاياشى غونسيوك ، عضو المجلس الاستشارى . وارسلت البارجة ” هاى مارو “ لتحملنى ، وبصحبتها سفن حربية اخرى للحماية . وعندما ابهرت من داليان استعرضت المدمرات اليابانية وكانت هناك مائة طائرة تحاق تحية لى فوق سماء يوكوهاما . واذكر اننى نظمت قصيدة تماغ وانا اعانى من دوام البحر واشعر بأننى غمرت بالتشريف الذى استقبلت به فى هذه الرحلة .

البحر منبسط كمرآة

وانا اقوم برحلة طويلة .

البلدان يرقعان ايديهما ،

من اجل عزة الشرق .

وفي اليوم الرابع من هذه الرحلة شاهدت مناورات قامت بها سبعون سفينة حربية ، فكتبت بعض الابيات الاخرى :

القوارب التى تبهر عشرة آلاف لى

تمخر عباب الامواج المحلقة ،

بينما السماء والارض

تمتزجان فى زرقة لازوردية واحدة .

لم اقطع هذه المسافات

لأتمتع برأى الجبال والمياه ،

ولكن لكى نجعل تحالفنا مشرقا

مثل الشمس والقمر .

وهكذا حتى قبل ان تطأ قدمى ارض اليابان اخذت بعظمتها ، واعتبرت جميع التشريعات التى لقيتها فى الرحلة دليلا على ان اليابان تحترمنى احتراماً وديا وتساعدنى مساعدة حقيقية . وبدأت لى جميع هواجسى الماضيه لا اساس لها الآن .

وعندما وصلت الى طوكيو جاء الامبراطور هيروهيتو نفسه ليستقبلنى فى المحطة . ثم اقام لى مأدبة . وعندما ذهبت لزيارته ، رد لى الزيارة . واستقبلت ارباب دولة يابانيين كبار قدموا لى تهانيتهم ؛ واستعرضت الجنود مع هيروهيتو ؛ وذهبت لزيارة ضريح الامبراطور مييجى ومستشفى عسكري كان فيه بعض الجنود ممن جرحوا فى غزوهم الصين . وذهبت كذلك لأقدم احتراماتى لأم هيروهيتو . ووصفت الصحافة اليابانية نزهة خرجنا فيها معا ، قائلة ان الروح التى ساعدت بها ام الامبراطور اليابانى على صعود مرتفع من الارض هى نفس الروح التى ساعدت انا فيها والدى على صعود السلالم

داخل القصر فى تشانغتشون . والواقع اننى لم اساعد والدى مطلقا على صعود درجة واحدة ، وما اسندت والدة هيروهيىو الا لأفوز بالخطوة لديها . وفى اليوم الاخير من زيارتى كان ياسوهيتو ( الامير تشيتشيىبو ) فى المحطة ليودعنى نيابة عن شقيقه الامبراطور .

وقال فى خطابه الوداعى : ” ان زيارة جلالتكم الامبراطورية هذه لليابان اسهام عظيم فى تعزيز الصداقة بين اليابان وامبراطورية منشوريا وان املى ان تعود جلالتكم الى بلادكم مقتنعين الاقتناع الصحيح بأن الصداقة بين بلدينا يمكن ان تتحقق بالتأكيد . “

وكان جوابى متزلزا كالسابق : ” لقد تأثرت تأثرا عميقا بالحفاوة الرائعة التى قدمتها لى الاسرة الامبراطورية اليابانية وبالترحيب الحار الذى قدمه لى الشعب اليابانى . اننى مصمم على ان ابذل كل ما فى وسعى لأكافح من اجل صداقة ابدية بين اليابان وامبراطورية منشوريا . “

وعندما صعدت متن سفيتى دمعت عينائى وانا اطلب من البارون هاياشى ان ينقل شكرى الى الامبراطور والدة ، واثاره ذلك ايضا فبكى . ولم يكن فى اى شىء صينى على الاطلاق .

ان المعاملة التى لقيتها من البيت الامبراطورى اليابانى قد اثرت فى نفسى حقاً ، وبدا للهواء نكهة مختلفة بعد ان اصبحت الآن امبراطورا . وحسب منطقى كنت مساويا للامبراطور اليابانى ، وشعرت انى اشغل فى ” امبراطورية منشوريا “ المنزل التى يشغلها هو فى اليابان ؛ لذلك ينبغي لليابانيين ان يعاملونى بنفس الطريقة التى يعاملون بها عاهلهم .

وامتلأ ذهنى بهذه الاوهام ، فعادت الى تشانغتشون واصدرت ” المرسوم التذكيرى بمناسبة عودة الامبراطور “ الذى دعم بتعابير التملق . ودعوت قائد جيش قواندونج الجديد ، الجنرال مينامى جيرو ، لىأتى لزيارتى حتى اعبر له عن امتنانى ؛ وفى اليوم التالى ( ٢٩ ابريل ) كنت مشاركا متحمسا

في الاحتفال بعيد ميلاد هيرو هيتو . وفي اليوم الثالث اصدرت امرا بأن يحضر الى جميع الموظفين الكبار في العاصمة ، سواء منهم الصينيون ام اليابانيون ، ليستمعوا الى حديثي عن زيارتي الى اليابان . ولم اناقش هذا الامر مع اليابانيين مقدما ، كما لم احضر اية مذكرات آخذ عنها حديثي . وعندما حان الموعد تدفقت في الحديث ارتجالا عن زيارتي ، واصفا بالتفصيل كيف قابلني الامبراطور الياباني ومتوسعا في وصف الاحترام الذي عاملني به اتباعه . وانتهى خطابي بالفقرة التالية :

ان الصداقة بين اليابان وامبراطورية منشوريا قد قادتني الى الاعتقاد الراسخ بأنه اذا ما تصرف اي ياباني ضد مصالح امبراطورية منشوريا فسيرتكب بذلك ذنب عدم الولاء لصاحب الجلالة امبراطور اليابان ، وانه اذا ما تصرف اي مانشوى ضد مصالح اليابان فسيكون بذلك غير وفي لعاهل امبراطورية منشوريا . وان عدم الوفاء لعاهل امبراطورية منشوريا هو تماما كعدم الوفاء لامبراطور اليابان ، وعدم الوفاء لامبراطور اليابان يساوى عدم الوفاء لامبراطور منشوريا .

وبعد شهر من عودتي الى تشانغتشون اخبرني مينامي قائد جيش قواندونغ في احد اجتماعاتنا المنتظمة بأن ” رئيس الوزراء تشنغ شياو شيوى يرغب في ان يتقاعد لأنه مرهق من الجهود التي يبذلها . “ ونصحني بأن اوافق على الطلب واستبدل به رئيس وزراء جديدا . وكنت قد سمعت قبلها بأن اليابان غير راضية عن تشنغ وانني انا شخصا كنت ابحث عن عذر ما للتخلص منه ، لذلك عندما عرض مينامي على هذه المسألة وافقت في الحال واقترححت ان يكون تسانغ شى يى خلفا له . وظننت ان مينامي الذى سمع آرائي في الصداقة اليابانية - المانشوية مرتين في الايام الاخيرة سيستجيب حتما لأمرى ؛ ولكنني وجدت لدهشتي انني اصطدم بجدار من الصخر . فقد اجابني هازا رأسه : — كلا ، ان جيش قواندونغ قد درس المسألة واختار رجلا مناسباً . فلا

داعى الى ان تقلق جلالتم ؛ فكل شىء سيكون على ما يرام اذا انتم اخترتم تشانغ جينغ هوى لهذه المهمة .

والذى حدث انه منذ وقت غير طويل كان تشنغ شياو شيوى هذا قد ازعج سادته اليابانيين بقوله انه ما دامت ” امبراطورية منشوريا “ قد شبت فلم تعد هناك حاجة اليهم لممارسة تحكم شديد كهذا ؛ لذلك ركلوه جانبا . وحمد حسابه المصروفى ، ومنع من الخروج من تشانغتشون . واقام فى البيت يائسا تحت مراقبة الدرك اليابانى الى ان مات فجأة بعد ثلاث سنوات . وكان ابنه قد مات قبله بثلاث سنوات نفس الميته . وقد اشيع ان موتهما كان من تدبير اليابانيين . وحتى اذا كان هذا غير صحيح فان سقوط تشنغ شياو شيوى كان كافيا بحد ذاته لتحطيم اوهامى ؛ ولكنى بقيت سادرا لمدة سنة اخرى قبل ان ابدأ رؤية ما كانت عليه حقيقة وضعى .

## نهاية الوهم

منذ انسحاب اليابان من عصبة الامم فى بداية عام ١٩٣٣ وهى تندفع فى توسيع قواتها بأقل كبحا من السابق استعدادا للحرب . وقد افردت اهتماما خاصا لتعجيل ترتيباتها من اجل غزو الصين بكاملها . وحتى قبل وقوع حادثة لوفوشياو فى ٧ يوليو ١٩٣٧ استأنفت اليابان استخدام القوة المسلحة واختلاق الحوادث فى شمالى الصين ، بينما قامت حكومة الكومينتانغ فى نانجينغ بتنازل اثر تنازل . فقد وقعت ” اتفاقية خه - اميزو “ عام ١٩٣٥ و” اتفاقية تشين - دويهارا “ ومعاهدات سرية اخرى مكنت اليابانيين من التحكم بشمالى الصين ، وتغاضت عن نشاط ” الحكومة العسكرية الذاتية المحكم فى منغوليا الداخلية “ و” الحكومة الذاتية المحكم المعادية للشويعيين فى شرقى خبسى “ وغير ذلك من الاجهزة العميلة . واكدت لليابانيين على نحو



متكرر " اننا ليس فقط لن نزرع انفسنا فى نشاطات او افكار ضد اليابانيين ، بل ليس لدينا اى سبب يدعوننا لأن نكون ضد اليابانيين " . واعلنت تعميما على الشعب بضرورة " الوثام مع الجيران " ، واصدرت كثيرا من اوامر الحظر على النشاطات المعادية لليابانيين تحت طائلة عقوبات شديدة . وهذا كله عزز كثيرا من وضع اليابان فى شمالى الصين ، وجعل من ضياع المقاطعات الخمس فى الشمال مسألة وقت ليس الا . وفى هذا الوقت كان المتعصبون لاعادة الملكية نشطين فى الشمال والشمال الشرقى ، وكنت انا نشوان بتتويجى الثالث . ولكن نظرا الى ان اليابان قد غرزت مخابيها على نحو اعمق فى شمالى الصين ، فقد شددت قبضتها على " امبراطورية منشوريا " ، الامر الذى بدأت احس به انا فى آخر المطاف .

ان عملية استعمار الشمال الشرقى كانت مربحة للخونة الصينيين . فعندما وضعت الملكية موضع التنفيذ مثلا حقق مؤيديها اشياء اكثر من الرضى النفسى . فالخونة القياديون ، من تشنغ شياو شيوى فنانزلا ، قدمت لهم " مكافآت على جهودهم فى انشاء الدولة " تراوحت من ٥٠ الف الى ٦٠٠ الف يوان لكل واحد وبلغ مجموعها ٨٦٠٠ الف يوان ؛ ومع كل عمل من اعمال النهب ، مثل " شراء الحبوب الاجبارى " او " التبرعات الوطنية " ، فان جميع الموظفين من رئيس الوزراء فنانزلا كانوا يتلقون حصصهم . وبدلا من ان اخوض فى تفاصيل جميع الاجراءات اليابانية سأصف كيف تحولت احلامى باعادة الملكية الى ذعر شديد .

لقد اخبرنى جيش قوانغدونغ رسميا فى الوقت الذى قرروا فيه اقامة ملكية بأن هذا ليس اعادة لأسرة تشينغ . ولم يسمحوا لى بلبس ثياب التنين عند تتويجى ، وتجاهلوا رأيى فى اختيار رئيس وزراء . فتعين على ان اتحقق من مدى الخواء الذى كان عليه سلطانى ، ولكننى كنت شديد النشوة بحيث تعذر على حينذاك ان اعود الى صوابى ، الى ان جاءت الصدمة الاولى فى

حادثة لينغ شنغ :

كان لينغ شنغ ابن قوى فو - حاكم عسكري سابق لأسرة تشينغ في منغوليا ، وكان مستشارا في القيادة العامة لجيش الحفاظ على الامن ، التابع لتشانغ تسوه لين . وكان واحدا من اعضاء الوفد الذى جاء الى ليويشون لدعوتى الى ان اصبح " رئيسا تنفيذيا " ، ومن جراء ذلك اصبح ضمن صفوف " مؤسسى الوطن " . وسين القى عليه القبض فجأة في ربيع ١٩٣٦ من طرف جيش قواندونغ كان حاكما لمقاطعة شينغآن في " امبراطورية منشوريا " . ارسل جيش قواندونغ الكولونيل يوشوكا ياسونورى ، " المامق بالبيت الامبراطورى " ، ليخبرنى بأن لينغ شنغ قد انهمك في نشاطات معادية لامبراطورية منشوريا واليابانيين . ووفقا للمعلومات التى بلغنى اياها تونغ جى شيوى فانه قد عبر عن تدمره في الاجتماع المشترك الاخير لحكام المقاطعات ، مما اغضب اليابانيين . وكان من الواضح ان لينغ شنغ قد اتهم اليابانيين بعدم الوفاء بوعدهم ؛ فاتاجاكى كان قد اخبره اصلا فى ليويشون ان اليابان ستعترف بـ " امبراطورية منشوريا " دولة مستقلة ، ولكن اليابانيين فيما بعد تدخلوا في كل مكان . واصبح لينغ شنغ لا سلطة له في شينغآن ، لأن اليابانيين سيطروا على كل شىء . وبعد عودته من هذا الاجتماع الى شينغآن القى القبض عليه .

ووجدت ان هذا الخبر لا يمكن السكوت عنه ، لاسيما وقد تصاهرنا قبل ستة اشهر فقط حيث خطبت شقيقتى الرابعة لابنه . وفيما كنت اتساءل هل يجب ان اذهب واخبر جيش قواندونغ بذلك ، جاء يودا كنيكيتشى ، القائد الجديد لجيش قواندونغ وسفير اليابان ، لرؤيتى وقال :

— قبل بضعة ايام امسكنا قضية كان المجرم فيها من معارف جلالتكم - لينغ شنغ ، حاكم مقاطعة شينغآن . لقد كان يدبر تمردا ومقاومة ضد اليابان بالتواطؤ مع البلدان الاجنبية . وقد ثبت للمحكمة العسكرية انه ارتكب

جرائم ضد اليابان وامبراطورية منشوريا ، وحكمت عليه بالاعدام :  
فقلت مصدوما :

— اعدام ؟  
فهز رأسه لمترجمه وهو يردد الكلمة ، قاصدا من ذلك التأكد من اننى  
فهمت :

— اعدام :  
ومضى يقول :  
— وهذا سيكون تحذيرا يا صاحب الجلالة . ان من الضرورى ان  
يقتل تحذيرا للآخرين .

وبعد مغادرة يودا اخبرنى الكولونيل يوشيوكا ان من الافضل ان افسخ  
الخطوبة بين اختى وابن لينغ شنغ فورا ، فاستجبت سريعا .  
ونفذ الحكم بلينغ شنغ بقطع رأسه ، وقتل فى الوقت نفسه بعض افراد  
اسرته . وهذه كانت الحالة الاولى التى علمت بها من حالات اعدام اليابانيين  
على قتل موظف كبير من ” امبراطورية منشوريا “ ، وهو الرجل الذى  
اراد ان يصبح فى الوقت الاخير قريبا لى . ورأيت ان لينغ شنغ لا بد انه كان  
شديد الولاء لى ، ما دام قد اراد هذه المصاهرة ؛ ولكن المقياس الوحيد الذى  
حكمه به جيش قواندونغ هو موقفه من اليابان . ومما لا شك فيه انهم استخدموا  
نفس المقياس معى ايضا . ان عبارة يودا حول قتله — تحذيرا للآخرين —  
تبدو لى الآن نذير شؤم .

ثم تذكرت ان جيش قواندونغ كان قد سألنى فى ذلك الوقت عن بعض  
نشاطات ” اعادة اسرة تشينغ “ فى نهاية سنة ١٩٣٥ ، وقررت ان اكون  
اكثر حذرا فى المستقبل . كيف اذن يريد اليابانيون من الناس ان يتصرفوا ؟  
وتذكرت رجلا كان مصيره مختلفا تماما عن مصير لينغ شنغ . انه تشانغ  
جينغ هوى ، رئيس الوزراء . ومن الواضح ان اليابانيين قد قصدوا ان يضعوا

امامى نموذجين مختلفين : تشانغ ولينغ : ويمكن للمرء ان يأخذ فكرة عن شخصية قاطع طريق تحول الى "رئيس وزراء" وعن التقدير الذى يكتنه له اليابانيون من الطريقة التى يكررون بها احد اقواله : " ان اليابان وامبراطورية منشوريا مثل يعسويين مربوطين بخيط واحد . " لقد استخدموا هذا القول لكى " يثقوا " به الموظفين من حملة الجنسية " المانشوية " .

وعندما كان اليابانيون يطبقون سياستهم فى استيطان الشمال الشرقى ارادوا الحصول على مشروع قانون مصادق عليه من قبل " مجلس الدولة " يمكنهم من مصادرة الاراضى الزراعية فى الشمال الشرقى مقابل ربع او خمس ثمنها . فاحتج بعض " الوزراء " خوفا من ان يؤدى هذا الى تمرد او ان يفقدوا الكثير من الاراضى الواسعة التى تحت ايديهم . وابدى تشانغ جينغ هوى تعليقه قائلا : " ان لدى امبراطورية منشوريا مساحات كبيرة من الاراضى ، والمانشويون بسطاء جدا وجهلة . واذا ما جاء اليابانيون لاحياء ارض بكر وتعليمهم التكنولوجيا الحديثة ، فان كلا الجانبين سيستفيد . " وافر المشروع . واصبحت عبارة " كلا الجانبين سيستفيد " ملاحظة اخرى مفضلة لدى اليابانيين .

وتلفظ تشانغ جينغ هوى بقول ثالث عندما كان اليابانيون يقومون بشراء اجبارى كبير للحبوب بحيث لم يترك لفلاحى الشمال الشرقى شيئا . وقد احتج بعض " الوزراء " ممن تأثرت مصالحه بتلك الاسعار المنخفضة فى " اجتماع مجلس الدولة " موضحا بأن الفلاحين يموتون جوعا ، واحداث ضجة بالمطالبة بأسعار اعلى . وهذا كان بالطبع شيئا ليس اليابانيون على استعداد للموافقة عليه . فقال تشانغ جينغ هوى : " ان جنود الجيش اليابانى الامبراطورى يبدلون ارواحهم فارسلنا نحن المانشويين بعض الحبوب لهم لا يعادل شيئا بالمقارنة الى عطائهم . ان الجياع سيكونون على ما يرام اذا هم شدوا الاحزمة على بطونهم . " واصبحت عبارة " شد الاحزمة " تعبيرا

مألوفاً لدى اليابانيين ، مع انهم لم يستجيبوا هم انفسهم لهذا المطالب .  
كان قائد جيش قواندونغ يشيد لى دائماً بتشانغ جينغ هوى على انه  
رئيس وزراء جيد و” رجل يضع الصداقة اليابانية المانشوية موضع التطبيق “ :  
ولم افكر فى السابق فى مغزى ذلك كله بالنسبة لى ، ولكننى الآن بعد ان  
عرفت مصير لينغ شنغ فهمت تمام الفهم .

وبعد حادثة لينغ شنغ ازعجنى جدا اجتماع لى مع الامير ده :  
كان الامير ده ، او دمتشوك دونغرب ، اميرا منغوليا استخدمه اليابانيون  
لانشاء ” الحكومة العسكرية الذاتية الحكم فى منغوليا الداخلية “ . وكان  
قد ارسل لى نقودا ابان اقامتى فى تيانجين ، واعطى اخى بو جيه خيولا  
منغولية اصيلة ، وابدى ولاءه لى بوسائل اخرى كثيرة . ثم جاء لرؤية جيش  
قواندونغ فى امر ما ، وحصل منه على اذن بالمجىء لزيارتى ، فحدثنى عن  
خبرته خلال السنوات القليلة الماضية وعن تأسيسه ” الحكومة العسكرية الذاتية  
الحكم “ . ثم اخذ يتلمذ ويتشكى من ان اليابانيين فى منغوليا الداخلية مستبدون  
للغاية وان جيش قواندونغ لم ينفذ وعدا واحدا من سلسلة الوعود التى وعده  
اياها قبل تأسيس ” حكومة “ منغوليا الداخلية . وكان ما جعله فى غاية  
الغضب هو افتقاره التام الى السلطة . وجدت نفسى استجيب لتذمراته  
واحاول التخفيف عنه . وفى اليوم التالى ارسل جيش قواندونغ يوشيوكا ، المالحق  
بالبيت الامبراطورى ، ليسألنى وعلى وجهه تعابير الامتعاض :

— ماذا ناقشتم يا صاحب الجلالة مع الامير ده البارحة ؟  
ولما ادركت ان فى الامر ما يسوء قلت اننا كنا نتحدث احاديث عابرة .  
فتابع سؤاله دون ادنى تراخ :

— هل عبر عن عدم ارتياحه لليابان ؟  
فأخذ قلبى يخفق بشدة . وادركت ان بوسعى ان اقوم بانكار ثابت  
او من الافضل ” ان اتراجع عن طريق التقدم “ . فقلت :

— لا بد ان الامير ده قد اخبركم بكثير من الكذب :  
ومع ان يوشيوكا لم يتتبع هذه المسألة معى اكثر من ذلك ، الا اننى  
بقيت فى حالة من الذعر عدة ايام . واستبدت بى الظنون ، وفكرت باحتمالين .  
الاول ان يكون اليابانيون قد وضعوا فى غرفتى جهاز تنصت ، والثانى ان يكون  
الامير ده قد اخبرهم بكل شىء . وامضيت وقتا طويلا لحل هذا اللبس ،  
مفتشا الغرفة لعلى اجد جهاز تنصت . وعندما لم اجد شككت فى ان الامير  
ده قد خاننى ، ولكن لم يكن لدى دليل على ذلك ايضا . ووقعت فى حيرة  
تامة .

علمتنى هذه الحادثة اكثر مما علمتنى حادثة لينغ شنغ . فلم اعد منذ  
ذلك الحين اتكلم صراحة مع اى شخص خارجى ، وتصرفت بكل حذر  
ازاء جميع الزوار . والناس الذين كانوا يأتون من تلقاء انفسهم لرؤيتى اصبحوا  
اقل فأقل منذ اليوم الذى القيت فيه خطابى بعد ان عدت من اليابان ،  
ولقد توقفوا عن المجيء تقريبا بعد زيارة الامير ده . ثم استنبط جيش  
قواندونغ قاعدة جديدة عام ١٩٣٧ فأصر على ان "الملحق بالبيت الامبراطورى"  
يجب ان يكون حاضرا عندما استقبل شخصا غريبا .

واخذت اشعر بالتوتر اكثر فأكثر بدءا من ذلك العام . لقد انتهى  
اليابانيون من استعداداتهم لغزو واسع النطاق للصين خلال الاشهر الستة  
الاولى من تلك السنة ، ومارسوا قمعا واسع النطاق للوطنيين المعادين لهم  
فى الشمال الشرقى . واصدروا باسمى قانون عقوبات وشكلوا نظام "باو -  
جيا" للاشراف المتبادل ، واجبروا كل فرد على الانضمام الى "جمعية  
الوئام" ، واصلحوا الطرق وبنوا الحصون ، ووحدا القرى . واستخدموا  
عشرين فرقة تقريبا ليحاولوا التصدى للجيش المتحالف المعادى لليابانيين  
الذى يعد بـ ٤٥ الف شخص والذى كان يقوم بعملياته فى الشمال الشرقى ،  
بينما القوا القبض فى الوقت نفسه على اعضاء جمعية انقاذ الوطن المعادية

اليابانيين وعلى غيرهم من الناس "المضطربين" . ولم تكن تلك العمليات ناجحة تماما فاضطروا الى تكرارها على نطاق اوسع فى السنة التالية باستخدام مليون من الجنود اليابانيين والعملاء . ولكن وفقا لما قاله تونغ جى شوى فان الناس قد اختفوا فى كل مكان من الشمال الشرقى على حين ان عمليات القبض لم تنته قط .

لم اسمع فى هذه الاثناء مطلقا اى خبر صادق لا من محادثاتى مع قائد جيش قوانغدونغ ولا من تقارير "رئيس مجلس الوزراء" . وكان تونغ جى شوى الشخص الوحيد الذى ظل يطلعنى على حقيقة ما جرى . فقد اخبرنى بأن تقارير الانتصارات فى حملات "التأديب" التى اعطانى اياها قائد جيش قوانغدونغ لم تكن موضع ثقة ، وان من الصعب القول من كان حقا "قطاع الطرق" الذين ابادهم اليابانيون . وقال ان احد اقربائه قد اخذ لأداء العمل الازامى فى بعض المشاريع السرية ، وانه بعد ان انتهى العمل ذبح جميع العمال باستثناءه هو وقلة معه كانوا منحوظين اذ تمكنوا من الهرب . وفى رأيه ان احدى عصابات "قطاع الطرق" الذين اعلن عن سحقهم بزهو عظيم فى الصحافة كانت هذه المجموعة من العمال . ولم يمض وقت طويل بعد ان سمعت بهذا حتى اختفى مترجم لغة انكليزية سابق عندى . ولم اعرف مصيره حتى اخبرنى شقيقى بو جيه ذات يوم انه قد القى القبض عليه بسبب صلاته بالامريكان عندما كان يعمل فى "سفارتنا" فى طوكيو ، وقتل على يد رجال الدرك اليابانيين . وقال لى بو جيه ايضا ان هذا المترجم قد بعث اليه برسالة عن طريق حارسه يرجوه فيها ان يطلب منى التوسط له ، ولكنه لم يعجز ان يخبرنى بهذا فى ذلك الوقت . فطلبت من بو جيه ألا يقول اية كلمة اخرى حول هذا الامر .

كثير من السياسات والقوانين التى وافقت عليها فى تلك الايام كانت متعلقة باستعدادات اليابان الحربية وبتقوية حكمها فى مستعمراتها الشمال —

شرقية : وقد تضمنت هذه الموافقات : ” الخطة الخمسية الاولى لتطوير الانتاج “ و ” قانون ضبط الممتلكات “ و ” اعادة تنظيم الحكومة “ لتقوية حكم اليابانيين ، واعتبار اللغة اليابانية ” لغة وطنية “ ؛ ولكن لم يترك اى من ذلك تأثيرا كبيرا على كالى الذى تركه زواج بو جيه .

بعد ان انتهى بو جيه دراسته فى مدرسة لصبيان النبلاء اليابانيين انتقل الى مدرسة الطلبة العسكريين التابعة للجيش اليابانى . وعاد الى تشانغتشون فى شتاء ١٩٣٥ واصبح ملازما اول فى الحرس الامبراطورى . ومنذ ذلك الحين وزملاؤه فى جيش قواندونغ يسعون فى زواجه ويشيدون بفضائل الزوجات اليابانيات . وقد اخبرنى يوشيوكا ، الضابط اليابانى الذى كان ملازما لى ، بأن جيش قواندونغ يأمل بأن يتزوج بو جيه من فتاة يابانية تعزيرا للصدقة بين البلدين .

وذعرت ذعرا شديدا لسماعى هذا الخبر وقررت ان احصل ليو جيه على زوجة من بكين لأحبط مسبقا هذه المؤامرة اليابانية . فمن الواضح انهم قصدوا وضع بو جيه تحت سيطرتهم الكاملة ، والا هم من ذلك ، قصدوا ان ينجب طفلا من اصل يابانى يمكن ان يحل محلى فى المستقبل . ووافق بو جيه على خطتى ، ولكن عندما ضغط عليه يوشيوكا باخباره ان الجنرال هونجو يعمل وسيط زواج له فى طوكيو ، اطاع . وفى ٣ ابريل ١٩٣٧ تزوج من ساجاهيرو ، ابنة الماركيز ساجا . وبعد اقل من شهر اقر ” مجلس الدولة “ مدعوما من جيش قواندونغ لائحة تنص على ان بو جيه وابنه سيكونان خائمين للعرش اذا انا لم ارزق بذرية ذكور .

وبعد عودة بو جيه من طوكيو قررت ألا اتكلم امامه بصراحة بعد ذلك او آكل طعاما ترسله لى زوجته الا اذا حين يشاركنى بو جيه فى طعامى وبشرط ان يذوق هو اولا طبخ زوجته . وعندما اوشك بو جيه ان يصبح ابا اصبحت شديدة الاهتمام بأمنى وبأمنه كذلك لأن جيش قواندونغ بدا



قادرا تماما على قتل كلينا من اجل الحصول على امبراطور من اصل يابانى ،  
وتنفس الصعداء عندما تكشف المولود عن بنت .

وكنتم قلما كذلك حول ما سيحدث اذا رزقت ولدا ، لأن جيش  
قواندونغ جعانى اوقع وثيقة تقول اننى يجب ان ارسل اى ولد لى الى اليابان  
عندما يصبح فى سن الخامسة ليربى لدى اناس معينين لديهم .

وفى ٢٨ يونيو ، قبل تسعة ايام من قتال ٧ يوليو فى لوفوتشياو ، اصبحت  
بالذعر مرة اخرى . وهذه المرة كانت بسبب حادثة ”حرس القصر“ .

كانت هذه القوة مختلفة عن ”الحرس الامبراطورى“ الذى كان  
تحت سيطرة ”وزارة الدفاع“ ، فقد انفقت عليها من جيبى الخاص ،

وكانت غايتى من تأسيسها ليست مجرد حمايتى بل لتكون تحت سيطرتى  
الشخصية ايضا قوة عسكرية اساسية . وقد تلقى رجالها البالغ عددهم ٣٠٠

جميعهم تدريبا خاصا بالضباط . وفى حينها اخبرنى تونغ جى شيوى الذى  
كان مسؤولا عن القوة ان جيش قواندونغ لم يكن مسرورا بها ، ولو انى لم

اكن قبل الآن قادرا على فهم تحذيرات تونغ .

فى ٢٨ يونيو ذهب عدد من حرس القصر ليرفخوا عن انفسهم فى احد  
المنتزهات ، وراحوا يتجادلون مع بعض اليابانيين المرتدين ثيابا مدنية حول

استئجار قوارب ، واذا بحشد من اليابانيين يطوقهم ويبدأ فى ضربهم .  
واضطر الحرس الى الدفاع عن انفسهم فضربوا اليابانيين ، ولكن الآخرين

افلتوا عليهم الكلاب . فأخذ حرسى يضربون الكلاب وقتلوا قسما منها ،  
ثم خرقوا الطوق من حولهم وعادوا الى ثكنتهم . ولم يخطر فى ذهنهم قط

ان هذا سيتسبب فى وقوع كارثة . فبعد ذلك بوقت قصير ظهر رجال الدرك  
اليابانيون خارج مكتب القصر مطالبين بأن يسلم تونغ جى شيوى جميع

افراد الحرس الذين ذهبوا الى المنتزه ، فاستجاب تونغ الى مطلبهم مذعورا .  
فأخذهم رجال الدرك اليابانيون وحاولوا اجبارهم على الاعتراف بأنهم كانوا

مشاركين في نشاطات معادية لامبراطورية منشوريا واليابانيين . وعندما رفض افراد الحرس الاعتراف انزل بهم اليابانيون مختلف ألوان التعذيب ، وادرك افراد الحرس حينذاك ان تلك الحادثة كانت عبارة عن مؤامرة متعمدة دبرها جيش قواندونغ . فاليابانيون ذوو الملابس المدنية ارسلهم جيش قواندونغ الى هناك ، واثنان من ضباط هذا الجيش قد اصيبا في ذلك العراك ، والكلاب التي ركلت حتى الموت كانت كلاب جيش قواندونغ كذلك . وعندما سمعت بالقبض عليهم ظننت انهم لا بد ان يكونوا قد احدثوا بعض المتاعب على نحو عرضي ، ولذلك طلبت من يوشيوكا ان يذهب مباشرة الى مقر القيادة لجيش قواندونغ ويحدثهم بالامر . فعاد بثلاثة شروط يمكن بموجبها ان يطلق سراحهم : ان يعتذر تونغ جى شيوى للضباطين الجريحيين ؛ ان يرسل افراد حرس القصر الذين "سببوا هذه المشكلة" ، وان اتعهد انا بألا تتكرر هذه الحادثة ابدا . وبعد ان استجبت لهذه الشروط اجبرت على طرد تونغ جى شيوى من منصبه كقائد لحرس القصر وتعيين يابانى خلفا له ، واضطرت كذلك الى خفض عدد حراس القصر وتبديل بنادقهم الى مسدسات .

كنت في السابق قد ارسلت عددا من الشبان الى الاكاديميات العسكرية في اليابان لأبنى لنفسى قوة عسكرية ، ولكن عندما عادوا نسبتهم "وزارة الدفاع" الى اعمالهم ، كما نسبت اخى بو جيه ، ولم يكن لى اى رأى في هذا الموضوع . وتبين لى من ثم ان خططى لانشاء جيش تحت سيطرتى مباشرة لم تكن الا حلما .

عندما نشب قتال ٧ يوليو وادى الى احتلال اليابانيين لبكين كان بعض الامراء والشخصيات المخضمة في بكين يتطلعون لاعادة النظام القديم ، ولكننى ادركت الآن ان هذا مستحيل . ولم يبق من اهتماماتى سوى المحافظة على سلامتى من اليابانيين واتقان التعامل مع يوشيوكا "المالحق بالبيت

الامبراطورى“ والذى كان تجسيدا تاما لجيش قواندونغ ؟

## يوشيوكا ياسونورى

اذا شبه المرء جيش قواندونغ بمصدر تيار كهربائى على التحميل وشبهنى بمحرك كهربائى . فان يوشيوكا سيكون عبارة عن سلك ذى ايصالية عالية .

كان رجلا قصيرا له شارب قصير ووجنتان ناتئتان لازمنى طيلة السنوات العشر منذ بداية قدومه الى القصر عام ١٩٣٥ الى استسلام اليابانيين عام ١٩٤٥ ، حيث اسره الجيش السوفياتى فى نفس الوقت الذى اسرنى فيه ايضا . وفى تلك السنوات ترفع من رتبة مقدم الى فريق . وكان لديه منصبان : احدهما ضابط اركان على الدرجة فى جيش قواندونغ ، والثانى ” ماحق بالبيت الامبراطورى لامبراطورية منشوريا “ . وهذا المنصب الثانى كان مصطلحا يابانيا ، ولكن لم يكن هناك فرق كبير فى كيفية ترجمته لأن الكلمات لا تصف وظيفته الحقيقية . كان هو السلك الذى ينقل لى جيش قواندونغ من خلاله نواياه . وان التجولات التى قمت بها والزوار الذين استقبلتهم ونظام التشريعات الذى تقيدت به والنصائح التى قدمتها الى اتباعى والانتخاب التى شربتها حتى هز رأسى وابتساماتى ، كل ذلك كان تحت ارشادات يوشيوكا . وكان يقرر الاجتماعات التى احضرها ويكتب لى خطاباتى فى لغته الصينية اليابانية الطراز .

وبعد ان اطلق اليابانيون العنان لأنفسهم فى غزوهم الواسع النطاق للصين فى يوليو ١٩٣٧ احتاجوا الى الحبوب والرجال والامدادات من ” امبراطورية منشوريا “ فأمرت تشانغ جينغ هوى ان يقرأ فى اجتماع حكاه المقاطعات العملاء تعليما كتبه يوشيوكا . وفى تلك الوثيقة حثتهم على ” تنفيذ واجباتهم

باجتهاد لدعم الحرب المقدسة“ . ان حرب الباسيفيك قد واجهت اليابان بنقص بالجنود ، وانهم ارادوا من جند ”امبراطورية مششوريا“ ان يحلوا محل بعض الوحدات اليابانية المشغلة في الصين . وقرأت تعليما آخر من صياغة يوشيوكا وكان هذه المرة في مأدبة تقام لقادة المناطق العسكرية المختلفة ، عبرت فيها عن تصميمي على ” ان اعيش او اموت مع اليابان ، وان اتحد معهم في القلب والفضيلة . وان احطم نفوذ بريطانيا وامريكا“ .

وفي كل مرة اخبرني فيها يوشيوكا بأن اليابانيين قد احتلوا مدينة صينية رئيسية كان يضطرنى الى ان انهض معه وانحنى انحناء شديدة في اتجاه ميدان المعركة علامة للحداد على الجنود اليابانيين الذين قتلوا في المعارك . وبعد ان جعلنى افعل ذلك عدة مرات ، لم اجد حاجة الى الحث لأقوم بانحناءتى عندما اخبرنى بالاستيلاء على ووهان .

وكان كلما حققت المزيد من التقدم يزيد في عدد الدروس التى يلقتنى اياها . فبعد سقوط ووهان مثلاً اقترح على ان اكتب رسالة تهنئة الى السفاح اوكامورا الذى استولى على المدينة وارسل برقية الى الامبراطور اليابانى . وبعد ان بنى ”معبد التأسيس الوطنى“ اصبحت اذهب اليه كل شهر لأصلى من اجل انتصار الجنود اليابانيين ، وهذا ايضا كان بعد تلقى دفعة قوية عبر السلك الكهربائى نفسه .

لم يتدخل جيش قواندونغ كثيرا في شؤونى الشخصية والخاصة قبل حادثة ٧ يوليو ، ولكن الامور تغيرت بعد ذلك . فقبل الحادثة كان بعض الأقارب يأتينى من جنوب السور العظيم كل سنة لزيارتى في عيد ميلادى وفي مناسبات اخرى ، ولكن بعد حادثة ٧ يوليو لم يسمح جيش قواندونغ الا لعدد قليل بالقدوم الى تشانغتشون في فترات محددة . واصر الجيش اليابانى ايضا ان على اقربائى هؤلاء ان يكتفوا بالركوع لى دون التكلم معى ، عدا الحميمين منهم . وبريدى كله كان يقرأه اعوان يوشيوكا اليابانيون في مكتب القصر ، وهو

الذى يقرر ما يمكن ان اطلع عليه من هذا البريد وما لا يمكن . وكان جيش قواندونغ بالطبع مدركا تماما اننى لم اكن ضد ”امبراطورية منشوريا“ او ضد اليابانيين ، ولكنه كان يخشى ان اشترك فى خطط لاعادة اسرة تشينغ جنوب السور العظيم ، وهذا كان مصدر ازعاج بالنسبة له .

لقد كان من المستحيل على تماما فى تلك الايام ان اقابل شخصا خارجيا او اتلقى رسالة دون علم يوشيوكا . وكان فى القصر مكتب للدرك غاص برجال درك يابانيين يلبسون بزات خضراء قاتمة ؛ ولا احد يمكن ان يدخل او يخرج دون ان يروه ، وكانوا يسمعون كل شىء مما يجرى داخل الفناء . يضاف الى هذا كله ان اليابانيين الذين فى مكتب القصر كانوا ادوات فى يد يوشيوكا ، يعنى اننى كنت تحت رقابة مشددة .

لقد اظهر يوشيوكا براعة هائلة فى الحصول على منصبه فى القصر ، مقيما صداقة مع بو جيه عندما كان احد معلميه فى مدرسة الطابطة العسكريين فى اليابان . وبعض الكتب تقول انه كان صديقا لى ايضا قبل ذهابى الى الشمال الشرقى ، والواقع انه قد حدثنى بضعة احاديث فقط عن الشؤون الجارية فى تيانجين . ومع ذلك فقد سعى للاستفادة من صداقته لبو جيه فى اقناع جيش قواندونغ بأنه صديق شخصى لى ، وهو بفعل ذلك حصل على هاتين الوظيفتين ”ملحق بالبيت الامبراطورى لامبراطورية منشوريا“ وضابط اركان على الدرجة لجيش قواندونغ .

واثناء وجوده معى قام بزيارات متعددة لليابان ، وكان ينقل غالبا هدايا صغيرة يبنى وبين الامبراطورة اليابانية الام . وقد افنعنى ذات مرة بأن اسجل بعض التحيات باللغة اليابانية الى الامبراطور اليابانى .

وكان اذا تكلم يقبع بـ ”اه“ ”ها“ ويرتعش حاجباه ، وازدادت هذه العادة سوءا مع مضى الوقت ، وكنت اجدها تزيد فى اغضبائى ، اذ ان ازدياد التقلص فى عضلات وجهه يعنى تغير موقفه من علاقتنا .

وبعد زيارتي الى اليابان عام ١٩٣٤ كتبت لى الامبراطورة الام بعض قصائد ” واكا “ ، وما قاله يوشيوكا حينذاك كان بمثابة موسيقا فى اذنى :  
” ان صاحبة المجلالة الامبراطورة الام مساوية لأم جلالتك ، وما دمت انا واحدا من اقربائكم تقريبا فاننى اشعر بأن هذا شرف كبير لى . “  
وفى ذلك الوقت قال لىو جيه : ” انت وانا قريبين الى بعضنا بعضا كاليد والقدم ، ومع اننى لا استطيع ان ادعى قرابة كهذه مع جلالة الامبراطور ، الا اننى استطيع ان اشعر اننى بالنسبة اليه مثل اصبع القدم لأصبع اليد .  
اننا انسابا تقريبا . “

وفى عام ١٩٣٦ تقريبا قال لى :  
” ان اليابان مساوية لوالد جلالتك ، اه ، وجيش قوائدونغ يمثل اليابان ، اه ، لذلك فان قائد جيش قوائدونغ مساو لوالد جلالتك ، ها . “  
ولما كان جيش قوائدونغ يواجه المزيد المزيد من المتاعب على الجبهة ، فان مركزى كان ينخفض فى اعين جيش قوائدونغ . ومضى يوشيوكا فى النهاية بعيدا فقال : ” ان جيش قوائدونغ والدك ، وانا ممثل جيش قوائدونغ ، اه . “

وكان من عادة يوشيوكا ان يقوم بزيارات متكررة الى القصر اثناء النهار . واحيانا كان يمكث عشر دقائق ثم يغادر ليعود بعد خمس دقائق فقط . وكان يقدم اسبابا سخيفة لهذا المجرى والدهاب المتكررين ، كأن يدعى مثلا بأنه نسى ان يقول شيئا ما ، او لم يتذكر ان يسألنى ان كنت بحاجة الى اى شىء منه ليفعله لى فى اليوم التالى . وبالطبع خفت من انه كان يستخدم هذه الاقتحامات المفاجئة وسية للتجسس على ؛ ورأيت ان الطريقة الوحيدة التى استطيع بها تجنب الريبة هى ان اوافق حالا على كل ما يقترحه ولا ادعه ينتظر مطلقا . وكنت اراه دائما فى منتصف وقت الاكل .

## ”مراسيم امبراطورية“

جميع الذين درسوا في مدارس ”امبراطورية منشوريا“ اجبروا على حفظ ”مراسيمى الامبراطورية“ عن ظهر قلوبهم . وفى الذكرى السنوية لصدور كل مرسوم تحتشد جميع المدارس والمكاتب الحكومية ووحدات القوات المسلحة لتستمع الى المرسوم يقرأ بصوت جهورى . وفى المدارس مثلاً يقف جميع العاملين والطلبة بيزات ”الوثام“ الشديدة الاخضرار وقفة اجلال امام المنصة . ويدخل موظف المدرسة المسؤول عن الايدولوجية والانضباط لابسا قفازات بيضاء رافعا يديه فوق رأسه علبة خشب صفراء ملفوفة بقماش اصفر . وينحن الحشد كله حين يصعد بالعلبة الى المنصة ، ويضعها على طاولة ويفتحها . ثم يخرج منها المرسوم ويناولها بيديه الاثنتين الى مدير المدرسة الذى يستلمه بيدين فيهما قفاز ، ويبسط هذا المرسوم ثم يقرأه بصوت جهورى . واذا صادف ان كان التاريخ ٢ مايو فانه يقرأ ”المرسوم التذكيرى بمناسبة عودة الامبراطور“ :

منذ ان ارتقيت العرش واذا اتشوق الى القيام بزيارة شخصية للبيت الامبراطورى اليابانى لكى ابدى من خلال تعزيز صداقتنا والتمتع بصحبته اعجابى العظيم بهم . وبقيامى بهذه الرحلة الى الشرق تمكنت من تحقيق طموحى الذى يعمر نفسى منذ امد طويل .

وكان البيت الامبراطورى اليابانى فى اقصى درجات الكرم لدى استضافته لى حيث قام بالاستعدادات الرائعة ، على حين استقبلنى رعيته ودعوتى بحماسة صادقة ، وهم جميعا دون استثناء على اقصى درجات اللطف والاحترام . ولقد انطبع هذا فى قلبى ، فلن انساه ابدا .

اننا مدركون ادراكا عميقا منذ تأسيس دولتنا الى اليوم الحاضر اننا معتمدون خلال ذلك كله على الانصراف التام للاستقامة ، وعلى الجهود العظيمة لهذا البلد الصديق فى تعزيز الاساس العظيم ؛ وفى هذه المناسبة كنا محظوظين

بما فيه الكفاية حيث تمكننا من التعبير عن تشكرنا القلبي . وفوق ذلك تأكدنا من خلال الملاحظة الدقيقة ان الحكومة في ذلك البلد قائمة على الخير والحب ، بينما تشديد التربية قائم على الولاء والطاعة البنوية ؛ فالتناس يحترمون امبراطورهم ويحبون رؤسائهم كما يحبون السماء والارض ؛ وكل واحد منهم مخلص وشجاع ومحب للخدمة العامة ومتفان في سبيل وطنه الام . وهذا هو السبب في انهم قادرون على التمتع بالسلم الداخلى وعلى مقاومة الدول الاجنبية والتعاطف مع جيرانهم لكي يحافظوا على الخط الامبراطورى الذى سيستمر دون تعطل عشرة آلاف جيل . ولقد احتككت شخصا بالعالين والوطنين في ذلك البلد ، فوجدتهم متحدين اخلاص الاتحاد في مزاج عام واخلاق مشتركة ؛ وثقتهم المتبادلة راسخة لا يمكن ان تهتز .

اننى وصاحب الجلالة امبراطور اليابان بروح واحدة . فعلى رعاياها ان تعي ذلك تمام الوعى وتكون قلبا واحدا وفضيلة واحدة مع حليفنا ، لكي نرسى اساسا راسخا وثابتا الى الابد لبلدنا ونظهر المعنى الحقيقى للاخلاق الشرقية . وعندها سيكون من الممكن للعالم ان يعيش في سلام ولبشرية ان تكون سعيدة . وليكافح جميع رعاياى من اجل التمسك بهذا المرسوم الى الابد .  
بأمر من الامبراطور .

وكان مجموع تلك "المراسيم الامبراطورية" ستة :  
"مرسوم ارتقاء العرش" الصادر في ١ مارس ١٩٣٤ ؛  
"المرسوم التذكيرى بمناسبة عودة الامبراطور" الصادر في ٢ مايو ١٩٣٥ ؛  
"مرسوم ترسيخ قاعدة الوطن" الصادر في ١٥ يوليو ١٩٤٠ ؛  
"المرسوم حول الوضع الراهن" الصادر في ٨ ديسمبر ١٩٤١ ؛  
"المرسوم حول الذكرى السنوية العاشرة لتأسيس الوطن" الصادر في ١ مارس ١٩٤٢ ؛

"مرسوم التنازل" الصادر في ١٥ اغسطس ١٩٤٥ .  
واستبدل به "مرسوم ارتقاء العرش" "المرسوم حول الذكرى السنوية



العاشرة لتأسيس الوطن“ . و ”مرسوم التنازل“ الصادر في ١٥ آب ١٩٤٥ لم يقرأه احد على الاطلاق . وهكذا فان اربعة مراسيم هي التي كانت هامة . وكان على تلاميذ وطلبة المدارس والجنود ان يكونوا قادرين على استظهارها ، وكل من ينسى هذه المراسيم او يكررها على نحو غير ملائم كان يعاقب . وبالإضافة الى كون هذه المراسيم جزءا من الدعاية الاستعبادية التي طبقها اليابانيون في الشمال الشرقي فقد استخدمت ايضا تسويغا قانونيا بعيد المدى لقمع جميع اشكال المقاومة . كان ممكنا لأدنى استياء يصدر عن اى مواطن من ابناء الشمال الشرقي من هذه النظم الاستعمارية ان يعرضه للعقوبة . ولو تتبعنا اصل كل مرسوم من هذه المراسيم اتبين لنا الى اى مدى يمكن ان ينحدر الانسان . ونظرا الى اننى قد ذكرت الطريقة التي صدر بها المرسومان الاوليان ، سأحدث الآن كيف تم نشر المرسوم الثالث المعنون ”مرسوم ترسيخ قاعدة الوطن“ .

كنت ذات يوم جالسا في غرفتي مع يوشيوكا . وكنا نحن الاثنين صامتين لأنه قال الشيء الذى جاء ليقوله ، ولكن نظرا الى انه لم يغادر حزرت ان في ذهنه امرا آخر هاما . فنهض وخطا الى ناحية من الغرفة فيها تمثال بوذا : ووقف هناك واخذ يقبع كالخنزير . ثم التفت الى وقال : ”البوذية جاءت من الخارج ، اه ، دين اجنبى . ما دامت اليابان ومنشوريا تشتركان في نفس الروح ، فمن الواجب ان تكون لهما نفس المعتقدات ، ها ؟“

ثم وضع لى ان الامبراطور اليابانى هو سليل الالهة الاشراق المشع السماوى (٥) ، وان كل امبراطور هو تجسيد جديد للاله العظيم ، وان جميع اليابانيين الذين ماتوا من اجل الامبراطور سيصبحون هم انفسهم آلهة . ومن خبرتى عرفت ان جيش قواندونغ قد ارسل بذلك تيارا عبر هذا السلك ذى التوتر العالى ، ولكن بعد عبارة يوشيوكا هذه انقطع التيار . وامضيت اياما طويلة

افكر فى هذه الخرافات ، ولكننى لم اتوصل الى معرفة ما ترمى اليه .  
كان جيش قواندونغ قد فكر حقا فى شىء ارادنى ان افعله ، ولكن  
قائده يودا كان منشغل البال فى الهزائم التى لحقت بهجده فى قتال الحدود  
الذى خاضه مع الاتحاد السوفياتى والجمهورية الشعبية المنغولية . وقبل عودته  
الى اليابان معزولا عن منصبه لهذا الاخفاق ، اشار الى انه من اجل ” الصداقة  
اليابانية – المانشوية “ ووحدتهما فى الروح يجب ان يكون هناك تطابق دينى  
بين البلدين ؛ وامل ان افكر فى هذه المسألة .

وكنت دائما اتبع مدعنا تعاليم ” امبراطورى الاعلى “ ، ولكن فى هذه  
المرة لم ادر ماذا افعل . فجميع مستشارى القدامى اما انهم غادروا واما  
انهم نبذوا من اليابانيين ، وازواج شقيقتائى وابناء اشقائى كانوا من ضلّة  
الخبرة بحيث لا يرجى منهم اية فائدة . فاضطرت الى التفكير فى هذه المشكلة  
وحدى ، ولكن قبل ان اصل الى نتيجة وصل قائد جيش قواندونغ الجديد ،  
” السفير “ الخامس لى ” امبراطورية منشوريا “ ، اوميزو يوشيجيرو ،  
فأخبرنى من خلال يوشيوكا ان دين اليابان هو دين ” امبراطورية منشوريا “ ،  
واننى يجب ان ارحب بـ ” الهة الاشرار المشع السماوى “ ، السلف السماوى  
للأسرة الامبراطورية اليابانية وان ادخل هذه المعتقدات فى دين ” امبراطورية  
منشوريا “ . واضاف انه نظرا الى ان هذه السنة هى الذكرى السنوية الالفين  
والستمائة للامبراطور جيمو فانها مناسبة رائعة لتقديم الالهة العظيمة الى هذه  
البلاد . واقترح وجوب ذهابى الى اليابان لأقدم التهانى وارتب الامر .

وسمعت فيما بعد انه كان هناك اختلاف حول ذلك داخل جيش  
قواندونغ ، اذ ان بعض الضباط ممن خبروا الصين جيدا رأوا ان ذلك سيثير  
معارضة عنيفة بين اهالى الشمال الشرقى ويزيد من عزلة اليابان . وتقرر  
فيما بعد انه مع مرور الوقت يمكن لديانة شييتو ان تتغلغل بين الشباب بينما  
الكبار سيعتادونها شيئا فشيئا . ولكن تنفيذ القرار الخاص بهذه السياسة كان

غير مستحب لدى معظم الخونة الصينيين ، ناهيك عن ابناء الشعب العاديين ،  
اما انا فقد كان اصعب على كثيرا من سرقة المدفن الشرقى . وكنت قبل  
ذلك قد منعتى يوشيوكا من تقديم القرابين علانية عند قبور اسلافى الامبراطوريين ،  
كما دعيت اليوم الى ان اعترف بنفسى سليلا لجد اجنبى . وهذا كان من  
الصعب جدا احتماله .

وعلى الرغم من ان كل تصرف من تصرفاتى منذ ان استسلمت لضغط  
اتاجاكى فى ليويشون كان عبارة عن خيانة صريحة لوطنى واسلافى ، الا  
اننى كنت ابرر لنفسى هذه التصرفات . فقد اعتبرتها اعمال اطاعة بنوية  
تهدف لاعادة احياء قضية الساف ، واعتبرت ان التنازلات التى قدمتها  
ليست الا من اجل مكاسب المستقبل . واملت ان تتفهم ارواح اسلافى فى  
السماء هذا الامر وتحمينى . ولكن اليابانيين يجبرونى الآن على تبديل اسلافى  
والانتساب لغيرهم . ومن المؤكد ان اجدادى لن يسامحونى على ذلك ابدا .  
غير انى تذكرت انه يجب ان اوافق على هذا الاقتراح اذا كنت اريد  
المحافظة على حياتى وامنى . وحتى فى الوصول الى هذه النتيجة كنت قادرا  
على تبرئة نفسى : سوف استمر فى تقديم التضحية لأسلافى سرا بينما اعترف  
علنا بالأسلاف الجدد . فاتخذت قرارى ، وقدمت القرابين لأرواح اجدادى  
ثم توجهت الى اليابان .

قمت بهذه الرحلة الثانية الى اليابان فى مايو ١٩٤٠ ، ومكثت هناك  
ثمانية ايام .

وعندما قابلت هيروهيتو القيت خطابا كان قد كتبه لى يوشيوكا . وجوهره  
اننى رجوت ان يسمح لى بعبادة الهة الاشرار المشع السماوى فى " امبراطورية  
مشوريا " من اجل " الوحدة التى لا تتجزأ فى القلب والفضيلة " بين البلدين .  
فكان جواب الامبراطور اليابانى وجيزا جدا : " اذا كانت هذه هى  
رغبة جلالتك ، فعلى ان استجيب لها . "

ثم نهض واقفا وأشار الى ثلاثة اشياء موضوعة على طاولة : سيف ورملة  
برونزية وقطعة من اليشب منقوشة ، وهى اشياء مقدسة كان الاعتقاد السائد  
انها تمثل الهة الاشرار المشع السماوى . ولما شرح لى سر هذه الاشياء  
تذكرت ان مخازن ليوليتشانغ للتحف فى بكين مملأى بأمثالها . فهل هى الاخرى  
الهة عظيمة ؟ وهل يمكن ان تكون تحفيات مخازن ليوليتشانغ من ضمن اسلافى ؟  
وترقرقت عيناى بالدموع وانا فى طريق العودة .

وبوصولى الى تشانغتشون بنيت ” معبد التأسيس الوطنى “ بجانب قصرى ،  
واسست ” مكتب عبادة “ تحت اشراف رئيس اركان جيش قواندونغ السابق  
هاشيموتو تورانسويوك . وفى اليوم الاول والخامس عشر من كل شهر كنت  
اقود قائد جيش قواندونغ والموظفين العملاء للذهاب وتقديم القرابين عند المعبد .  
وفيما بعد بنيت معابد كهذا المعبد فى كافة انحاء الشمال الشرقى ، وقدمت  
القرابين هناك فى المواقيت المحددة . وكان كل من يمر بأحد هذه المعابد  
عليه ان ينحنى انحناءة بتسعين درجة ، والا عوقب على ” عدم الاحترام “ .  
ونتيجة ذلك اصبحت الاماكن التى بنيت فيها تلك المعابد مهجورة .  
وحاول جيش قواندونغ اغوائى بارتداء اغرب الملابس لتأدية هذه الشعائر ،  
ولكننى عارضت هذا الاقتراح بقولى ان الوقت الآن وقت حرب ، وان من  
الافضل ان ألبس البزة العسكرية وعليها النياشين اليابانية لأظهر تصميمى  
على دعم حليفتى اليابان .

وكنت دائما اسجد لأسلافى فى البيت قبل الذهاب الى المعبد ، وعندما  
كنت اركع للمذبح الهة الاشرار المشع السماوى عند المعبد كنت اقول فى  
نفسى : ” اننى لست راكعا لذلك المذبح بل لقصر السلام الارضى ( كون  
نينغ قونغ ) فى بكين . “

واصدرت وسط احتقار شعب الشمال الشرقى لى وشتهم اياى ” مرسوم  
ترسيخ قاعدة الوطن “ . وهذا المرسوم لم يكتبه تشنغ شياو شيوى ( الذى

مات منذ سنتين) بل ياباني مختص باللغة الصينية يدعى ساتو توموياسو ،  
فوضه بذلك ” مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة “ . وكان نص المرسوم  
كما يلي :

حيث اننى اعمل باحترام على انشاء معبد التأسيس الوطنى لكى نرسخ  
بذلك قاعدة الوطن الى الابد وننشر مبادئ الوطن الى ما لا نهاية فاننى اصدر  
لكم هذا المرسوم ايها الرعية .

منذ بدء دولتنا اصبح اساس وطننا اقوى ومكانته اعظم . اذہ يتمتع  
بحكومة مرموقة تتحسن يوما بعد يوم . وعندما تأملنا فى هذا الانجاز العظيم  
ونظرنا الى مصدره ، وجدنا ان فضل ذلك كله يرجع الى البركة الالهية لالهة  
الاشراق المشع السماوى وحماية صاحب الجلالة امپراطور اليابان . لذلك  
قمت شخصيا بزيارة البيت الامپراطورى اليابانى ، ولكى نعبر عن-تشكراتنا  
القلبية وامتناننا العظيم اصدرت مرسوما اليكم ايها الرعية لآمركم ان نكون على  
فضيلة واحدة وتفكير واحد مع اليابان . ومعنى هذا عميق جدا .

لقد كان الهدف من رحلتى الاخيرة الى الشرق هو الاحتفال بالذكرى  
السوية الألفين والستمائة للامپراطور جيمو والقيام بعبادة الالهة الجليلة  
شخصيا . وبمناسبة عودتى الميمونة الى بلادنا فقد اسست على نحو مهيب معبد  
التأسيس الوطنى لنقدم فيه القرابين الى الهة الاشراق المشع السماوى . وسأصلى  
انا شخصيا ، وبأسمى آيات التبجيل ، من اجل ازدهار الوطن ؛ وسنجعل هذا  
مثالا ابديا يتبعه ابناؤنا واحفادنا الى الابد . وهكذا يمكن لأساس الوطن ان  
يترسخ من خلال تبجيل سبيل الآلهة (٦) ، كما يمكن لمبادئ الوطن ان  
تؤسس على تعليم الولاء والطاعة البنوية . وهذه الارض الآمنة بما فيها من خير  
وحب والمهذبة بالوثام ستكون نقية ومشرفة وستكون ضامنة للبركة السماوية .  
وليفهم رعايانا جميعا مقصدى من ذلك . قوا القاعدة وانشروا المبادئ ؛  
كافحوا لتنفيذ ذلك الى ما لا نهاية ، ولا توقفوا جهودكم الرامية الى جعل  
البلاد قوية .

بأمر من الامپراطور .

واصبحت منذ ذلك الوقت فصاعدا عبارتا التماق ” البركة الالهية لالهة  
الاشراق المشع السماوى “ و ” حماية صاحب الجلالة امبراطور اليابان “  
جزءا اساسيا فى جميع المراسيم .

بذل جيش قواندونغ جهودا كبيرة لتهيئى انا والوزراء العملاء لاستقبال  
” سبيل الآلهة “ ( شينتو ) ، وزودونى بخير شهير فى ديانة شينتو ليعلمنى .  
وكانت المواد التعليمية التى استخدمها غريبة للغاية ، احدها كان لفيفة عليها  
صورة شجرة . وقال لى ان اصل هذه الشجرة هو شينتو ، بينما الفروع هى  
جميع الديانات الاخرى فى العالم ، وبكلمة اخرى فانها تفرعت عن شينتو .  
وكان من الصعب على انا والوزراء العملاء ألا نضحك او ننام خلال تلك  
المحاضرات .

٥٥ وعندما اعلنت اليابان الحرب على امريكا وبريطانيا فى ٨ ديسمبر ١٩٤١  
جعل جيش قواندونغ ” امبراطورية منشوريا “ تصدر ” مرسوما حول الوضع  
الراهن “ ، اعلنت فيه دعمى لاعلان اليابان الحرب وطلبت من ” رعيتى “  
ان يبذلوا أقصى ما يستطيعون للمساعدة فى المجهود الحربى اليابانى . وكانت  
المراسيم السابقة تصدر عن ” مجلس الدولة “ ، ولكن فى هذه المرة عقد  
اجتماع خاص لـ ” المجلس الامبراطورى “ مساء ٨ ديسمبر ١٩٤١ ،  
جعلنى يوشيوكا اقرأ المرسوم فيه بنفسى .

وكلما جاء قائد جيش قواندونغ لزيارتى كنت افتح فمى واطلق مثل  
هذه العبارة : ” ان اليابان و ” امبراطورية منشوريا “ واحد لا يتجزأ ، وانهما  
يعيشان او يموتان معا ؛ اننى مصمم على ان اخصص قوة هذا الوطن بكاملها  
للفصل من اجل انتصار الحرب المقدسة فى شرقى آسيا العظمى ومن اجل  
منطقة الازدهار المشترك فى شرقى آسيا العظمى بقيادة اليابان . “

وقام توجو هيدميتشى ، رئيس وزراء اليابان ورئيس اركان جيش قواندونغ  
السابق ، بزيارة خاطفة الى ” امبراطورية منشوريا “ عام ١٩٤٢ . وعندما

قابله اندفعت مباشرة اقول "يمكن لسعادتكم ان تكون على يقين بأننى سأخصص موارد امبراطورية منشوريا بكاملها لدعم الحرب المقدسة التى تخوضها دولتنا الابوية اليابان ."

وفى وقت زيارة توجو كانت اليابان قد تحولت من "حايف" الى "دولة ابوية" . وهذا الاذلال الجديد قد قدم فى "المرسوم حول الذكرى السنوية العاشرة لتأسيس الوطن" . قد قال لى يوشيوكا عشية هذه الذكرى التى وقعت فى مارس ١٩٤٢ : "لا يمكن ان تكون هناك امبراطورية منشوريا من دون اليابان ، اه ، لذلك يجب ان تعتبر اليابان ابا لامبراطورية منشوريا . لذلك ، اه ، على امبراطورية منشوريا ألا تدعو اليابان حايفا او صديقا كما تفعل بقية الدول ؛ يجب ان تشير الى اليابان على انها دولة ابوية . " وفى الوقت نفسه كان الرئيس اليابانى لـ "مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة" يتحدث حديثا مشابها مع الوزراء العملاء . وبعد هذا صدر "المرسوم حول الذكرى السنوية العاشرة لتأسيس الوطن" . ومنذ اعلان هذا "المرسوم" واليابان يشار اليها على انها "دولة ابوية" .

وفى عام ١٩٤٤ عندما اصبح واضحا بما فيه الميزد ان اليابان فى طريقها الى ان تخسر الحرب ، بل استطعت انا ان لاحظ ان جنودها سيادون قريبا ، جاء يوشيوكا ليرجئنى ان اتبرع بالمواد ، لاسيما المعدنية ، للمجهود الحربى ليكون ذلك مثالا للآخرين . فقدمت تلقائيا اضافة الى قيامى بذلك مقدارا من الذهب والفضة والمجوهرات الى جيش قواندونغ . وفيما بعد قدمت لهم السجاجيد المفروشة داخل القصر ومئات القطع من الثياب . وقد اعلنت تبرعاتى هذه على نطاق واسع مما سهل مهمة السلب على الموظفين اليابانيين الذين ارسلاوا مقادير ضخمة من البضائع ، تشمل ٣٠٠ الف طن من الرز الى اليابان فى الاشهر الاخيرة من الحرب .

## حياة البيت

لما لم يكن مسموحا لى بأن ألعب اى دور فى السياسة ، او اخرج من القصر كما اشاء ، او ارسل فى طلب ” وزرائى “ لأستشيرهم ، لم يبق امامى ما افعله عندما لم يكن جيش قواندونغ يرسل الى تيارا ما . فتعددت اليقظة فى الحادية عشرة قبل الظهر والنوم بعد نصف الليل ، واحيانا اتأخر حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل . وكنت اتناول وجبتين يوميا : الفطور ما بين الظهيرة والساعة الواحدة ، والعشاء ما بين التاسعة والحادية عشرة ليلا ، او حتى بعد ذلك . وكنت آخذ قيلولة من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى الخامسة او السادسة . وفيما عدا الاكل والنوم فان حياتى يمكن ان تلخص الى مزيج من الضرب والشتم والعراقة والتداوى والخوف .

وكانت جميع هذه العناصر متداخلة . ونظرا الى ان علامات انهيار اليابانيين اصبحت اكثر وضوحا ، فقد اصبحت اكثر فأكثر خوفا من ان يقتلنى اليابانيون ليوقفونى عن التكلم فيما بعد . لذلك اخذت اتملقهم وازداد اقتربا منهم ، بينما رحت اضرب واشتم من فى البيت حيث ازداد طبعى عنفا . واصبحت اكثر فأكثر تعلقا بالخرافة ؛ آكل الطعام النباتى ، واردت النصوص البوذية المقدسة ، وألجأ الى الاستخارة والشد الحماية من بوذا والآلهة . واصبحت صحتى التى كانت قد تدهورت اكثر بؤسا بسبب هذه الحياة المتوترة المضطربة التى كنت اعيشها ، لذلك كنت اتناول الدواء والحقن فى يأس .

وعاودتنى نزعة القسوة والريبة التى كنت اعانى منها خلال سنواتى فى المدينة المحرمة ، والتى اشتدت فى تيانجين ، حيث وضعت هذه المجموعة من الانظمة الداخلية للخدم :

- ١- تمنع المحادثات غير المسؤولة تجنبيا للمكاييد .
- ٢- غير مسموح لكم بالدفاع او التغطية على بعضكم .



٣- يمنع الاختلاس والاستغلال .

٤- عندما يتصرف زملائكم تصرفا خاطئا عليكم ان تبلغوا عن ذلك فوراً .

٥- الخدم الكبار يجب ان يضربوا من هم دونهم مرتبة فور اكتشافهم انهم ارتكبوا خطأ .

تزداد شدة العقوبة درجة اخرى اذا كان هناك ادنى توان في الالتزام بهذه الانظمة .

بعد انتقالى الى الشمال الشرقى جعلت خدمى يأخذون على انفسهم العهد التالى : " لتعاقبنا السماء ويصعقنا الرعد اذا نحن خالفنا هذه الانظمة . " ثم ازدادت شراسة فصرت اضرب الخدم دائما ، بل واستخدمت معهم ادوات التعذيب . وكانت هناك صنوف مختلفة للضرب ، وكنت اجلب جلادين لهم خبرة بالتعذيب . كما كنت اكلف بهذه المهمة اى فرد من افراد البيت الحاضرين وأمرهم ان يجلدوهم بشدة ، والا شككت فى انهم متآمرون معهم . واذا حدث هذا فانهم يجدون انفسهم تحت الهراوات . وكان ضحاياى فى هذه الحالة هم كل فرد فى البيت تقريبا باستثناء زوجتى واشقائى وزواج شقيقائى . وكان فى تلك الايام عدد من ابناء اشقائى يدرسون فى القصر . وقد تعودوا ملازمتى والتحدث معى والقيام بخدمتى . وكنت اريهم ليصبحوا اقربائى الموثوقين ، ولكن هذا لم ينقذهم من التوبيخ والضرب . واكثر الكلمات التى كانوا يخافون سماعها منى هى " خذ الى الطابق الاسفل " ، لأن ذلك يعنى انه سيؤخذ الى الجلد . وتصرفاتى هذه كانت تظهر مدى القسوة والجنون والعنف والاضطراب الذى كنت متصفا به .

اصببت بالبواسير وانا فى تشانغتشون . وعندما لاحظ احد ابناء اشقائى الصغار الدواء الذى كنت استخدمه قال من دون تفكير ان ذلك الدواء

يشبه الرصاص . فكان هذا خرقاً لأحد محظوراتي : هل قصد انه يريدني ان اضرب بالرصاص ؟ وبناء على امرى ضربه ابن عمه بالعصا . واكثر الضحايا تعاسة كانوا من الخدم الغلمان . وكان عندي مجموعة منهم ، وقد جرى بهم من ملجأ ايتام في تشانغتشون . ومعظمهم ممن قتل اباؤهم على يد اليابانيين .

وخوفا من ان يكبروا وتنشأ عندهم الرغبة في الانتقام قد اجبر اليابانيون الحكومة العميلة على وضعهم في ملجأ للأيتام ، بعد تبديل اسمائهم وتعليمهم ان يكونوا عبيدا وارهاقهم بالأعمال الثقيلة . وكان بعضهم مفعما بالأمل عندما علم انه سيجلب الى القصر ، ظانا ان الحياة ستكون افضل مما هي عليه في ملجأ الايتام . ولكن تبين انها اسوأ بكثير . لقد كانوا يأكلون الذرة الرفيعة من ادنى الدرجات ويلبسون ثيابا بالية ، ويعملون خمس عشرة او ست عشرة ساعة في اليوم ، وحيانا يلزمون بالسهر في الخدمة طوال الليل ايضا . وفي الشتاء كانوا يعانون من شدة التعب والبرد والجوع بحيث يأخذهم النعاس فينامون احيانا متكئين على اجهزة التدفئة المركزية فيما هم يعملون ثم يستيقظون وقد ملئت اجسامهم بالحروق . وكانوا يضربون على الدوام لنومهم في العمل ، او لعدم التكنيس جيدا ، او لتكلمهم بصوت عال او عندما يكون المساعدون الشخصيون في حالة نفسية سيئة يصوبون جام غضبهم على الغلمان الذين هم تحت مسؤوليتهم ، وكانوا احيانا يحجزونهم في قبو معزول . وقد عرقلت هذه الحياة التعيسة نموهم فكانوا يبذلون وهم في سن السابعة عشرة او الثامنة عشرة قماء كأنتهم ابناء عشر سنين .

وحدث لأحدهم ويدعى سون يوه يوان ، ان حاول الهرب عندما وجد الحياة داخل القصر لا تطاق ، فقبض عليه وضرب بوحشية . ثم حاول مرة اخرى الخروج من نفق التدفئة المركزية ، وبعد ان زحف في داخله مدة يومين لم يجد مخرجا . واضطر بعد ان انهكه الجوع والعطش الى

الخروج ليحصل على شربة ماء فألقى القبض عليه . وعندما أخبرني بذلك المساعدون امرتهم : ” اعطوه شيئا يأكله ومن ثم لقنوه درسا جيدا . “ ولكن قبل ان يعطى ” درسا جيدا “ ظل يضرب حتى اوشك على الموت . وبلغنى ذلك فأفزعنى بشدة ، حيث خشيت ان يتحول الى شبح وينتزع حياتى انتقاما ، لذلك اصدرت اوامرى باستدعاء طبيب لانقاذه . ولكن فات الأوان .

وامضيت عدة ايام بعد ذلك اركع واتلو مقاطع من النصوص المقدسة امام مذهب بوذا ، واصلى لروحه كى تعبر الى العالم الآخر بأمان ، على امل ان اتجنب بذلك العقاب . وامرت ان يقوم المساعدون الذين ضربوه بضرب راحات ايديهم بمساطر من الخيزران يوميا لمدة ستة اشهر تكفيرا عن ذلك ، وكأن هذه الاجراءات سترفع عني مسؤولية قتله كاملة . وازدادت قسوتى على الخدم بعد ذلك الى حد الافراط بسبب حالتى المتوترة .

واخذت الاحتياطات الشديدة لأتأكد من اننى لم اخدع بفن (فلس) واحد عندما يقوم الخدم فى المطبخ بشراء الخضار فكنت ابعث جواسيس عليهم عند التسوق ، واسأل شقيقتائى عن اسعار لحم الخنزير والدجاج . وكان الطهاة يغرمون اذا لم يلائم الطبخ ذوقى او اذا وجدت فيه وسخا . وبالطبع كانوا يكافأون احيانا اذا سرنى الطعام . هكذا بينما انا عاجز فى الخارج كنت اتمتع بالسلطة المطلقة داخل بيتى .

فى اواخر ايام ” امبراطورية منشوريا “ اصبحت هزيمة اليابان المنتظرة اكثر فأكثر وضوحا . وعززت اخبار الاذاعات المتحالفة وهبوط معنويات يوشيوكا شعورى بأن هذه هى نهاية فترتنا . واصبح طبعى اسوأ من ذى قبل ، واخذت اتصرف بمزيد من الشراسة فى البيت . حتى وقع احد افراد عشيرتى الكبار الذى جاء ليهنئنى بعيد ميلادى فى اوائل عام ١٩٤٤ موضوعا لولعى فى فرض سيطرتى على من حولى .

كان ذلك حينما نظم عرض للترحاق داخل القصر للاحتفال بعيد ميلادى ، وكان قريبى هذا حاضرا فحيا بعض الضباط اليابانيين فى حضرتى بكل ادب . وهذا التصرف الذى يبدو واضحا انه خال من اى اساءة ، قد باغنى به احد ابناء اشقائى عند المأدبة التى اقيمت بعد العرض ، لأن تقديم الاحترامات لأى شخص آخر فى حضور ” ابن السماء “ كان ممنوعا داخل القصر ، وقد تعلم ان مهمته هى التبليغ عن مثل هذه التصرفات . ونظرا الى اننى كنت منشرح الاسارير فى ذلك الوقت ولأن المذنب من جيل يكبرنى ، فقد تجاوزت هذه المسألة . ولكن الرجل كان من الفضول بحيث سأل ابن شقيقى عما همسه فى اذنى . وكان هذا التصرف الثانى دليلا اكبر على ” عدم الاحترام “ لا يمكن احتماله ، فانفجرت غاضبا وصحت به ضاربا على الطاولة . فشحب وجهه رعبا ، وجثا على الارض وسجد لى . ولكننى لم اهدأ ، فغادرت مقعدى متهما اياه بعدم الوفاء ليس لى فحسب بل لأسلافنا الامبراطوريين ايضا . وخيم الصمت على المجلس بكامله . ورأيت لغرورى ان هذا العجوز اسوأ من اليابانيين الذين كانوا على الاقل غير متسمين بالفظاظة مطلقا فى تعاملهم معى امام الناس .

اثناء وجودى فى تشانغتشون قرأت كمية ضخمة من الكتب الخرافية ، واصبحت شغوبا بها . ومما قرأته ان جوهر بوذا يحل فى جميع الكائنات الحية وجعلنى ذلك اخشى ان يكون اللحم الذى آكله تقمصا لبعض اقربائى . لذلك كنت الى جانب ما اتلوه من النصوص البوذية صباحا ومساء اقرأ كذلك صلواتى قبل كل وجبة من اجل التقمص الافضل لروح الحيوان الذى سأكل لحمه . وكنت فى البداية اتلو ذلك فى نفسى بصمت امام اى شخص آخر ، ولكننى فيما بعد اصبحت اطلب من الآخرين جميعا ان يغادروا الغرفة الى ان انتهى من تلاوة الصلاة ، وعندها فقط اسمح لهم بالعودة الى الغرفة . واذكر مرة اننى سجدت لبيضة ثلاث مرات فى ملجأ الغارة الجوية

التابع للقصر قبل ان آكلها . وفي ذلك الوقت كنت آكل الطعام النباتي فقط .

ولم اكن اسمح بقتل الذباب ، مصرا على الاكتفاء بطرده . ولما عرفت ان الذباب يحمل الجراثيم التي تسبب الامراض ، صرت لا آكل قط اى طعام تلمسه ذبابة . واذا ما حطت ذبابة على شفتي كنت امسح الموقع الذى وقفت فيه بقطعة من القطن مبللة بالكحول من علبة كنت احملها دائما ، واذا ما وجدت ساق ذبابة فى طعامي كنت اغرم الطباخ . ولكن على الرغم من هذا كله لم اسمح لأحد بقتل ولو ذبابة واحدة . وذات مرة عندما رأيت قطعة تمسك فأرا امرت جميع الخدم بمطاردة القطعة لانقاذ حياة الفأر .

وكلما اكثرت من قراءة الكتب البوذية ازدادت اعتقادا بها ، وكانت احلامي بزيارة العالم الاسفل تقوى هذا الاعتقاد . لقد قرأت مرة انك اذا تلوت النصوص المقدسة طوال عدة ايام ، فان بوذا سيظهر وسيطلب شيئا يأكله . لذلك اعددت غرفة ، وبعد ان قرأت النصوص اعلنت لكل واحد ان ”بوذا قد جاء“ وزحفت الى الغرفة على ركبتى . وكانت الغرفة بالطبع فارغة ، ولكننى كنت ارتجف خوفا وانا ساجد الى لا شيء .

وبتأثير منى بدأ اهل البيت بكامله ترتيل النصوص البوذية ، على حين يضج الفناء بدوى الطبل الخشبي والصنج النحاسى . وبدأ القصر كأنما اصبح معبدا .

وواصلت نشاطي القديم فى اللجوء الى الاستخارة ، وكنت اكرر القيام بالعرافة الى ان احصل على بشارة خير . وعندما كنت خائفا من ان يقدم جيش قواندونغ على قتلى ، تعودت ان استخير كلما زارنى يوشيوكا . واصبح تجنب الكارثة وجلب الحظ السعيد الفكرة الموجهة لكل تصرفاتى . وانتهيت الى ان اسأل نفسى اى مكان واى ثوب واى طعام هو الملائم والمبشر بالخير ، وايها الباعث على التشاؤم . ولم يكن هناك مقياس ثابت للاجابة من خلاله

عن هذه الاسئلة . فاذا كنت ماشيا فى طريق ورأيت امامى آجرة اتخذت بشأن ذلك حكما : ” اذا انا مررت من الجانب الايسر فهذا فأل خير ، واذا انا مررت بها من الجانب الايمن فذلك نذير شؤم . “ وعندئذ امر بها من الجانب الايسر . ويمكن ان اضرب امثالا اخرى كثيرة ، مثل : أ يعبر المرء العتبة بقدمه اليمنى او اليسرى أولا ، وأ يأكل شيئا ابيض قبل شىء اخضر ام العكس . وكانت وان رونع منهمكة بذلك مثلى ، وقد اتخذت لنفسها قاعدة بأنها كلما واجهت شيئا مشؤوما فعليها ان ترمش او تبصق . واصبحت هذه عادة بالنسبة لها بحيث اخذت ترمش وتبصق فى غيرما سبب يدعو الى ذلك ، كأنما كانت تعاني من مرض عقلى . وتحول ابناء اشقائى جميعا وهم فيما يقارب العشرين من العمر الى شبه مترهبين تحت ارشادى . كان بعضهم يستغرق فى التأمل كل يوم ، وبعضهم لا يعود الى البيت مساء على الرغم من انه حديث عهد بالزواج ، وبعضهم كان يعلق صور هياكل عظمية فوق سريره ، وبعضهم يرتل الصلوات طوال اليوم يتمم بالتعاون كآئنا يرى اشباحا .

واعدت ان استغرق فى ” التأمل “ كل يوم وامنع خلال ذلك جميع الاصوات بما فيها اللهاث . وكنت محتفظا بكركى فى الفناء ، وقد تجاهل الكركى هذه القاعدة فكان يصبح متى استهواه ذلك . فجعلت الغلمان مسؤولين عن ذلك ، وفرضت عليهم غرامة قدرها خمسون فنا كلما احدث الكركى ضجة . وبعد ان فقد الغلمان كثيرا من الحيوانات بهذه الطريقة وجدوا طريقة لاسكات هذا الطير : كلما مد عنقه ضربه ، فاحتفظ الكركى بعدها بالصمت :

وبسبب رعبى من الموت كنت شديد الخوف من المرض . واصبحت مدمنا على الدواء ، مسببا لنفسى وكذلك لأهل بيتى كثيرا من المتاعب . فقد تعودت جمع الادوية : فكان عندى مخزن للدواء الصينى التقليدى وصيدلية

للعقاقير الحديثة ، وانفقت آلاف بل عشرات الآلاف من الحيوانات على استيراد العقاقير من الخارج ولو انى لم استخدمها قط . وكان عدد من ابناء اشقائى يضطرون الى تمضية الوقت عندما لا تكون لديهم دراسة فى الاعتناء بجميع هذه الادوية ، وكانوا هم وطبيبى الشخصى مشغولين فى اعطائى حقنا لعدة ساعات كل يوم .

عندما كنت مقيما فى المدينة المحرمة كنت كثيرا ما اعانى من امراض تخيلية ، ولكننى الآن مريض حقا . لقد قمت ذات مرة بـ ”جولة امبراطورية“ الى آندونغ لزيارة محطة كهربائية بناها اليابانيون حديثا . وعندما وصلت الى هناك تعاملت على نفسى حتى ابقى ثابتا منتصبا امام اليابانيين حيث اننى ارتدى بزة عسكرية . وقبل ان امشى مسافة طويلة اخذت ألهث ، ولدى عودتى كدت افقد الوعي . وجعلنى ضعفى الجسمانى واضطرابى العقلى اخاف من ان اكون قد اصبحت على حافة القبر .

ذات يوم رأيت العبارة التالية مكتوبة بالطباشير على سور القصر :  
”أ لم تحصل على التحقير الكافى من اليابانيين ؟“ فنسيت كل شىء بخصوص لعبة التنس التى كنت خارجا من اجلها ، واصدرت اوامر بمسحها على الفور . وعدت الى غرفة نومى ، وقلبى يخفق شاعرا بمنتهى الضعف الذى لا امل معه بالبقاء . وذعرت من ان يكتشف اليابانيون ذلك ويقوموا بحملة استقصاء فى بيتى واسعة النطاق ، ولم ادر الى ماذا يمكن ان يؤدى هذا الامر . وذعرت اكثر فأكثر من اكتشاف ان هناك ”عناصر معادية لامبراطورية منشوريا ومعادية لليابانيين“ داخل بلاطى . اذا هو تجرأ على كتابة ذلك على السور ، فما الذى يوقفه عن قتلى ؟

ونظرا الى شدة اضطرابى وذعرى طوال النهار اصبحت اقل اهتماما بحياتى العائلية . لقد تزوجت اربع زوجات ، او ، لكى استخدم المصطلحات التى كانت متداولة حينذاك ، كانت لى امبراطورة وزوجة وزوجتان ادنى

مرتبة . ولكنهن فى الواقع لم يكن زوجات حقيقيات ، بل لمجرد العرض . ومع اننى عاماتهن على نحو مختلف الا انهن جميعا كن من ضحاياى . ان خبرات وان رونج التى اهملت فترة طويلة سيكون من المتعذر ادراكها بالنسبة لفتاة صينية حديثة . ومع ان مصيرها لم يكن محددا منذ ولادتها ، فان نهايتها المحتومة تحددت منذ لحظة زواجها بى . كثيرا ما فكرت لو انها طلقتنى فى تيانجين كما فعلت ون شيو فاربما كان بوسعها ان تنجو . ولكنها حينذاك كانت مختلفة تماما عن ون شيو . فبالنسبة لـون شيو كانت الحياة العائلية العادية اهم من المنزل العالية والاخلاق الاقطاعية . ولكن وان رونج علقت اهمية عظيمة على مركزها كـ ” امبراطورة “ ، وكانت على استعداد لأن تصبح زوجة اسميا من اجل المركز فقط .

بعد ان طردت ون شيو من قبل وان رونج شعرت نحوها باشمزاز ، ولم اعد احداثها كثيرا او اوليها ادنى اهتمام . لذلك لم تطاعنى على مشاعرها او آمالها واحزانها مطلقا ؛ وكل ما عرفته انها اصبحت مدمنة افيون وتتصرف بطريقة لا تليق بنا . وعندما افترق بنا السبيل بعد استسلام اليابانيين ، كان ادمانها الافيون قد تفاقم وكانت فى منتهى الضعف ؛ وقد ماتت فى السنة التالية فى جيلين .

عام ١٩٣٧ اخترت ضحية جديدة تدعى تان يوى لينغ معاقبة لوان رونج ولأن زوجة ثانية كانت قطعة ضرورية من اثاث القصر . وقد رشحها قريب لى فى بكين ، فأصبحت زوجة من المرتبة الادنى وكانت من عشيرة تاتالا المانشوية القديمة ، وكانت طالبة مدرسة عندما تزوجتها وهى فى سن السابعة عشرة . وهى كذلك كانت زوجة بالاسم ، وقد احتفظت بها فى القصر كما احتفظ بطير الى ان ماتت عام ١٩٤٢ . وسبب موتها ما يزال غامضا بالنسبة لى . لقد كانت تعاني من نوبة تيفوئيد لم تكن مميتة وفقا لرأى الطبيب الصينى الذى رآها . وحينذاك قال يوشيوكا انه يريد ” الاعتناء “



بها فنقلت الى مكتب القصر . وتحت اشراف يوشيوكا ومعالجة طبيب يابانى ماتت فجأة فى اليوم التالى .

وما بدا لى غريبا هو ان الطبيب اليابانى كان شديد العناية بها فى البداية ولكن بعد ان ذهب الى غرفة اخرى ليجرى حديثا مطولا مع يوشيوكا فقد حماسه وتوقف عن اعطائها الحقن وعن نقل الدم اليها . وجعل يوشيوكا رجال الدرك اليابانيين يواصلون الاتصال هاتفيا بالمرضات فى غرفة المريضة طوال الليل للحصول على المعلومات ، وفى الصباح التالى ماتت تان يوى لينغ . وحالما ابغث بموتها جاء يوشيوكا ليعبر عن تعازى قائد جيش قواندونغ ، وقدم على الفور اكليل . فقوت هذه السرعة المذهلة شكوكى طبعا . وتذكرت ان تان يوى لينغ كثيرا ما كانت تحدثنى عن اليابانيين ، وقد عرفت الكثير عن تصرفاتهم جنوب السور العظيم عندما كانت تدرس فى بكين . وكنت قد شككت فى ان يكون اليابانيون قد استرقوا السمع الى محادثتى مع الامير ده ، وموت تان يوى لينغ ذكرنى طبعا بمخاوفى السابقة .

وبعد ذلك مباشرة قويت شكوكى فى ان جيش قواندونغ لا بد ان تكون له علاقة بموتها ، وذلك عندما جلب لى يوشيوكا مجموعة صور لفتيات يابانيات لأختار واحدة منهن .

ورفضت النظر فى مسألة كهذه بينما كانت جثة تان يوى لينغ ما تزال ساخنة . ولكنه اصر على انه يريد ان يرتب هذا الامر لى ليخفف عنى الحزن . فقلت له عند ذلك بأن هذا الامر يجب ألا يكون متعجلا ، ووضحت له ان هناك ، بالاضافة الى ذلك ، حاجز اللغة .

”ستكونان قادرين على فهم بعضكما بعضا ، اه . وهى ستكون قادرة على التكلم باللغة المانشوية .“

فأسرعت اوضح له ان المسألة ليست مسألة عرق ، بل اننى مضطر لأن اجد فتاة ملائمة لى فى ذوقها وعاداتها فى المعيشة . ولم اتجرأ على اية

حال ان اتكلم كثيرا حول رفض الاقتران بزوجة يابانية .  
وبدا ” المالحق بالبيت الامبراطورى “ متمسكا بى حقا ، وظل يلاحقنى  
بهذا الموضوع يوما بعد يوم . وفى النهاية ادرك اننى عنيد — او ربما غير  
جيش قواندونغ رأيه ، فأخرج لى صورا لفتيات صينيات من مدرسة يابانية  
فى ليويشون . ومع ان اختى الثانية حذرتنى من ان هؤلاء الفتيات جميعا قد  
اشربن الروح اليابانية الى درجة ان اصبحن مثل يابانيات فى الواقع ، الا  
اننى شعرت بعدم القدرة على قطع الصلة بجيش قواندونغ الى الاخير . فاخترت  
فتاة صغيرة لم تتعلم الشئ الكثير ، ظانا اننى سأكون قادرا على معالجتها  
حتى وان كانت قد دربت على يد اليابانيين .  
وهكذا اصبحت طالبة مدرسة فى الخامسة عشرة من عمرها ضحية  
رابعة لى بصفة زوجة من المرتبة الادنى . ولكن بعد سنتين من وصولها انهارت  
” امبراطورية منشوريا “ ، فأعيدت الى بيتها .

## الانهيار

بينما كنت فى سجن مجرمى الحرب اخبرنى قائد لواء سابق فى ” امبراطورية  
منشوريا “ انه قاد فى الشتاء الذى اندلعت فيه حرب الباسيفيك فصيلا من  
الجنود العملاء لمهاجمة بعض القوات المعادية لليابانيين بموجب امر من  
جيش قواندونغ . وقام رجاله بتفتيش فى الغابات ، فلم يجدوا الا مقاتلا مريضا  
من المعادين لليابانيين منزويا فى مخبأ . وكانت ملابس هذا الرجل رثة  
بالية وشعره اشعث بحيث بدا كأنه فى السجن منذ سنين . ولدى رؤيته قال  
له قائد اللواء :

— من الحالة التى انت فيها يتضح ان جماعتك لا يمكن ان تحقق  
شيئا . ألا تدري ان الجيش اليابانى الامبراطورى قد احتل هونغ كونغ

وسينغافورة ؟

فانفجر الاسير بالضحك . فضرب اللواء المانشوى العميل الطاولة بيده

وقال :

- علام تضحك ؟ ألا ترى انك قيد المحاكمة ؟

- من هو قيد المحاكمة ؟ ان نهايتكم قريبة وان يمضى وقت طويل

حتى يحاسبكم الشعب .

وكان جميع الضباط والموظفين المدنيين العملاء يعرفون ان الشعب في الشمال الشرقى يكرههم ويكره اليابانيين اشد الكراهية ، ولكنهم لم يستطيعوا فهم السبب الذى جعل الشعب يتحلى بهذه الشجاعة وهذه الثقة العظيمة بالنفس او السبب الذى جعله متأكدا تمام التأكيد من ان حكاهم الاقوياء محكوم عليهم بالهلاك . وكنت دائما اعتبر قوة الامبريالية اليابانية راسخة ومنقطعة النظير . ولم افكر حتى في ان امبراطورية تشينغ العظيمة او جمهورية الصين ، سواء حكمها امراء الحرب من زمرة بيبانغ او الكومينتانغ ، يمكن ان تكون ندا لليابان ؛ والشعب العادى لم يدخل في حسابى مطلقا .

ومع ان حقائق لا يحصى عددها كان يجب ان تعلمنى من القوى حقا ومن الضعيف ، الا اننى بقيت غافلا عن ذلك تماما الى ان كشفه يوشيوكا لى . وحتى حينذاك لم افهم الا على نحو غامض .

ذات سنة كانت " الجولة الامبراطورية " السنوية التى يرتبها لى جيش قواندونغ الى منطقة يانجى التى يسكنها ، رئيسيا ، ابناء القومية الكورية . وعندما وصل قطارى الى هناك وجدت اننى محاط بأعداد ضخمة من رجال الدرك اليابانيين وبست كتائب من الجنود العملاء . وعندما سألت يوشيوكا عن سبب وجودهم هناك اجاب :

- للاحتراس من قطاع الطرق .

- لماذا كل هذه الاعداد الكبيرة من الجند للاحتراس من قطاع

الطرق ؟

— قطاع الطرق هؤلاء ليسوا من الطراز القديم ؛ انهم الجيش الشيوعي .  
— كيف يكون لدى امبراطورية منشوريا قوات شيوعية ايضا ؟ أليست  
الجيش الشيوعية لدى جمهورية الصين ؟

— اجل ، يوجد هنا بعض الشيوعيين . . . ولكنهم قليلون جدا ؛  
وغير يوشيوكا الموضوع حينذاك .

وفي مناسبة اخرى ، عندما كان احد ضباط اركان جيش قواندونغ  
يعد تقاريره المنتظمة عن الوضع العسكرى قام بنشر اعلان خاص عن  
الانتصار . وفي هذه الحملة ضحى القائد المعادى لليابانيين الجنرال يانغ  
جينغ يوى بحياته . وقد اخبرنى ضابط الاركان بنشوة كبيرة ان موت الجنرال  
يانغ قد ازال ” تهديدا كبيرا لامبراطورية منشوريا “ . وكلمتا ” تهديد كبير “  
دفعتاى الى السؤال عن عدد قطاع الطرق الذين هم داخل ” امبراطورية  
منشوريا “ . فأجابنى نفس الجواب الذى قدمه يوشيوكا : ” قليلين جدا ،  
قليلين جدا . “

وفي عام ١٩٤٢ شنت القوات اليابانية حملة الاكتساح الكبيرة فى شمالى  
وسط الصين . وطبقوا فى بعض الاماكن سياسة ” التدمير بالثلاثة “ القائمة  
على حرق كل شىء وقتل كل واحد وسلب كل شىء مدمرين بذلك بعض  
النواحي تدميرا تاما . واخبرنى يوشيوكا ذات مرة كيف استخدم الجيش اليابانى  
مختلف صنوف التكتيكات ضد ” الجيش الشيوعية “ فى شمالى الصين ،  
مثل ” التطويق الحديدي “ و ” استخدام المشط الدقيق “ . ” ان التاريخ  
القتالى للجيش اليابانى الامبراطورى قد اثرى على نحو هائل . “ وبسماعى  
هذا الوصف المتبجح سألته :

— ان الجيش الشيوعية ضئيلة العدد ، فلماذا يحتاج صاحب الجلالة  
امبراطور اليابان الى استخدام كل هذه التكتيكات الجديدة ؟

فدهشت حين سخر منى قائلا :  
- لو كان لجلالتكم الامبراطور خبرة قتالية لما سألت هذا السؤال .  
- هل يمكن ان اسأل لماذا ؟  
- ان الجيش الشيوعي مختلف عن جيش الكوميتانغ . لا فرق عنده  
بين الجنود والشعب ، اه . انه مثل ، اه ، الباقلاء اليابسة المختلطة بحصى  
احمر .

ولما رأى عدم فهمى استخدم المثل الصينى ” عيون السمك مختلطة  
باللآلى ” ليجعلنى افهم حديثه . وقال انه عندما كان الجيش اليابانى  
يقا تل الجيش الثامن او الجيش الرابع الجديد (٧) كان غالبا ما يجد نفسه  
مطوقا تماما . وفيما بعد اوضح لى ان الشعب لا يخاف من ” الجيوش الشيوعية ”  
ايضا اتجهت . واكثر من ذلك ان المقاتل الذى ينضم اليها سنة واحدة لا  
يخرج منها ابدا ، وهذا ما جعل هذه الجيوش عديمة النظر فى تاريخ الصين .  
هذه الجيوش آخذة فى الازدياد وسيكون من المتعذر تماما التغلب عليها فى  
المستقبل . وتنهى وهز رأسه قائلا : ” شىء مربع ، مربع تماما . ”  
وجعلنى مرأى هذا الضابط من ” الجيش اليابانى الامبراطورى ” الذى يصف  
العدو ” الضئيل ” بهذه العبارات ، جعلنى فى غاية القلق وعدم الارتياح  
بحيث لم اعرف ماذا اقول . ثم استجمعت قوتى وقلت هذه الملاحظة :  
- انهم مخيفين حقا ، ولاسيما الطريقة التى يحرقون بها ويقتلون ويبيحون  
الممتلكات والزوجات .

فقاطعنى قائلا بفظاظة :  
- لا يصدق ذلك الا كل بائد .  
وبعد لحظة نظر الى بتعايير ساخرة وقال :  
- هذه لم تكن ملاحظة رسمية ؛ يجب ان اطلب من جلالتكم الآن  
ان تصغوا الى تقرير رئيس اركان جيش قواندونغ .

وادركت تدريجيا ان ملاحظات يوشيوكا غير الرسمية اقرب الى الحقيقة من الاخبار الموجزة الرسمية التي يصرح بها قائد جيش قواندونغ ورئيس اركانها . وعندما بدأ جيش قواندونغ حملة نوماهان عام ١٩٣٩ دعانى قائده يودا مع بعض الموظفين العملاء لمشاهدة عرض لظهور مدى زيادة سرعة الطائرات اليابانية عن الطائرات السوفياتية . ولكن اليابانيين هزموا فى تلك الحملة هزيمة مدمرة ، فقدوا فيها اكثر من ٥٠ الف جندى ، واقصى يودا عن منصبه . وكانت ملاحظة يوشيوكا غير الرسمية هى ان ” المدفعية الثقيلة السوفياتية ابعد مدى من مدفيعتنا بكثير . “

وبينما كنت اصفى الى المدياع فهمت تدريجيا الكثير عن قلق يوشيوكا المخبى . كانت هناك مزيد من الاخبار عن الهزائم العسكرية اليابانية على جميع الجبهات ، وهذه الاخبار اكدتها اخبار ” اليشب المحطم “ ( ” التضحيات البطولية “ ) فى صحافة ” امبراطورية منشوريا “ . وحتى فى عزلي استطعت ان ارى ان هناك عجزا فى امدادات المواد . فالنحاس القديم والحديد ، مثل مدقات الابواب والمباصق ، اختفت من القصر ، بينما اصبح موظفو البلاط يعانون عجزا فى الغذاء وطلبوا منى ان امدهم بالعون . وخوفا من ان اعرف مدى بؤس الطعام الذى كان يتناوله الجنود ، دعانى جيش قواندونغ لمشاهدة عرض خاص للمؤن العسكرية ؛ وللتصدى لتأثير الاذاعات الاجنبية ارسلوا الى افلاما للدعاية للانتصارات اليابانية . ولكن لم يصدق هذه الافلام لا انا ولا اصغر واحد من ابناء اشقائى .

والذى ترك فى نفسى اعمق الانطباعات هو الخوف الذى اظهره اليابانيون . فالضابط ياماشيتا تومويوكى الذى اعتر وانفخ عندما نقل الى جيش قواندونغ بعد الاستيلاء على سنغافورة اصبح رجلا آخر عندما جاء ليستأذنى مودعا لدى ارساله الى جنوب شرقى آسيا عام ١٩٤٥ . فقد قال وهو يبكى مغطيا انفه : ” هذا هو فراقنا الاخير . لن اعود ثانية ابدا . “

ورأيت كذلك المزيد من الدموع في حفل الوداع الذي اقيم له ” الرصاصات البشرية “. كانت الرصاصات البشرية عبارة عن جنود اختيروا من الجيش الياباني وكانوا مسممين بالاعتقاد بـ ” بوشيدو “ والوفاء للامبراطور الياباني كما انتخبوا لمهمة إيقاف الطائرات والدبابات بأجسامهم . وكان يوشيوكا يتكلم دائما عن افعال كهذه باحترام عظيم . وكان هذا الاحتفال قد خصصه جيش قوانغدونغ لأشجع الرجال الذين اختيروا ” رصاصات بشرية “ ولأتمنى لهم النجاح . وكان يوما غائما ، اجتاحتها عاصفة هوجاء محملة بالأتربة . وكان فناء القصر اكثر مدعاة للغم بسبب اكياس الرمل التي كانت مركومة فوق بعضها حماية من الغارات الجوية . وقد وقف امامي حوالى بضعة عشرة ضحية في صف واحد ؛ والقيت عليهم الخطاب المنعم بالاماني الطيبة الذي كتبه يوشيوكا ، ثم شربت نخبهم . وعندها فقط رأيت الشحوب الرمادي في وجوههم والدموع تنحدر على وجناتهم ، وسمعت بعضهم يهتدج . وانتهى الاحتفال نهاية فوضوية وسط الغبار المحوم ، وفيما هرعت عائدا الى غرفتي لأغسل كان ذهني في اضطراب شديد وتبعني يوشيوكا فعرفت ان لديه شيئا يود ان يقوله لي ، فتمهلتي في سيرى كى يدركنى . فجرد صوته وهمهم وقال :

— لقد تكلمتم يا صاحب الجلالة على نحو جيد واثرتم في اولئك الجنود تأثيرا عميقا جعلهم يذرفون الدموع اليابانية الرجولية .  
فقلت في نفسي : ” انك خائف حقا ، خائف من ان اكون قد اكتشفت حقيقة الرصاصات البشرية . حسنا ، اذا كنت خائفا ، فأنا اكثر منك خوفا . “

ان استسلام المانيا في مايو ١٩٤٥ جعل اليابانيين في يأس اشد من السابق ، ولم تعد المسألة الآن الا مسألة وقت حتى يدخل الاتحاد السوفياتي الحرب . بل وايقنت ان مأزق اليابان لا مخرج منه .

واخيرا جاء الانهيار النهائي . ففي صباح ٩ اغسطس ١٩٤٥ اتانى قائد جيش قواندونغ الاخير ياماتا اوتوزو ورئيس اركانه ليبلغانى ان الاتحاد السوفياتى قد اعلن الحرب على اليابان .

كان ياماتا رجلا عجوزا نحيفا قصيرا وكان جادا فى تصرفه بطيئا فى كلامه . ولكنه اليوم بدا مختلفا تماما ؛ فقد قدم لى وصفا سريعا كيف كان الجنود اليابانيون على اهبة الاستعداد ، واخبرنى انهم واثقون بالنصر ثقة تامة . وقبل ان ينهى كلامه سمعنا صفارة الانذار فاختبأنا جميعا فى ملاجئ . ولم يمض وقت طويل حتى سمعنا قنابل تنفجر قريبا منا ، وفيما رحلت اتضرع الى بوذا فى سكون ظل هو صامتا . ولم يشر بعد ذلك ثانية الى ثقته بالنصر حتى افترقنا بعد انتهاء الغارة الجوية .

ومنذ تلك الليلة اخذت انام بثيابى التى ألبسها فى النهار ، واحتفظ بمسدس فى جيبى ، وحددت بنفسى كلمة السر داخل القصر .

وفى اليوم التالى جاء ياماتا ورئيس الاركان ليخبرانى بأن الجيش اليابانى سينسحب ويبقى محتفظا بجنوبى منشوريا ، لذلك فان ” العاصمة “ ستنتقل الى تونغهوا ، وان على ان استعد للانتقال فى نفس اليوم . ولما ادركت ان من المستحيل ان انقل بيتى الكبير وجميع ممتلكاتى بهذه السرعة الشديدة ، رجوت ان يؤجل الانتقال ، فظفرت بمهلة يومين .

بدأت الآن اعانى تعذيبا نفسيا جديدا يرجع من جهة الى التغير الكبير فى موقف يوشيوكا ، ومن جهة الى شكوكى المرضية . لقد لاحظت التغير فى موقف يوشيوكا من ملاحظة ابدائها بعد انصراف ياماتا : ” اذا لم تذهبوا يا صاحب الجلالة فستكونون اول من يقتل على ايدى الجنود السوفيات . “ قال ذلك بطريقة ماؤها الشراسة والفظاظة . وما جعلنى اكثر خوفا هو تشككهم فى اننى لا اريد ان اذهب واننى اخطط لخيانتهم .

” اذا هم يظنون بأننى يمكن ان تأسرنى الجيوش المتحالفة ، أفلا يفكرون



فى قتلى ليحفظوا بصمتى ؟“ جعلت هذه الفكرة شعرى يقف عن آخره ،  
ثم تذكرت حيلة كنت قد قمت بها قبل عشر سنوات لأظهر ” وفائى  
واخلاصى“ امام يوشيوكا فأرسلت فى طلب ” رئيس الوزراء“ تشانغ جينغ  
هوى وتاكيب روكوزو ، رئيس مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة ،  
وامرتهما قائلا : ” يجب ان ندعم الحرب المقدسة التى تخوضها دولتنا  
الابوية بكل قوتنا ، ويجب ان نقاوم الاتحاد السوفياتى الى النهاية ، الى  
النهاية تماما .“

والثفت لأنظر الى تعابير وجه يوشيوكا ، فرأيت ان ”المالحق“ الذى  
لازمى فى الاحوال العادية كظلى قد ذهب . فأخذت اذرع الغرفة جيئة  
وذهابا ، وقد استبدت بى نذر الخوف . ونظرت الى خارج النافذة فرأيت  
بضعة جنود يابانيين يتقدمون نحو المبنى وبنادقهم مشرعة . فكاد قلبى يطفر  
الى خارج فمى ، وظننت ان ساعتى قد حانت . ولما لم اجد مكانا اختبئ  
فيه ذهبت الى اعلى السلم لألقاهم . ولكنهم انصرفوا بعد ان رأونى .  
وقددرت انهم لا بد قد جاؤوا لاختبار ما اذا كنت سأهرب ام لا .  
وكلما فكرت فى ذلك ازدددت ذعرا فتناولت سماعة الهاتف كى اتصل بيوشيوكا ،  
فلم اجد له وبدا الامر لى كأن اليابانيين غادروا من دونى ، وذلك اربعين  
ايضا .

وفيما بعد تمكنت من الاتصال بيوشيوكا . كان صوته ضعيفا جدا ،  
وقال انه مريض . فعبرت له عن اهتمامى ، وقلت بعض الكلمات الرقيقة ،  
فسمعته يقول : ” شكرا لكم يا صاحب الجلالة “ ، واغلقت الهاتف .  
وتنفست الصعداء . وتذكرت اننى لم آكل طوال النهار واننى جائع جدا .  
فطلبت من مرافقى الاخير ، وهو ” لى“ الكبير ان يحضر لى شيئا من الطعام ،  
ولكنه اخبرنى بأن الطباخين قد غادروا كلهم . فاضطرت الى تسكيت  
جوعى بالسكويت .

وبعد التاسعة مساء بقليل من اليوم الحادى عشر وصل يوشيوكا . كان شقيقى وشقيقتى وازواجهن وابناء اشقائى فى محطة القطار حينذاك ، ومن اسرى بقى فقط انا وزوجتى . فقال لى يوشيوكا وللخدم الذين كانوا ما يزالون معى بنبرة آمرة :

— سواء سنمشى او نركب فى السيارات ، فان الاشياء المقدسة التى يحملها هاشيموتو تورانوسيك ستكون فى المقدمة . واذا مر اى شخص بها فعليه ان ينحنى انحناءة مقدارها تسعون درجة .

وادركت اننا يجب ان نتحرك الآن . فوقفت باحترام ونظرت الى هاشيموتو رئيس مكتب العبادة بحمل صرة تحتوى على مواد سينتو المقدسة ويدخل السيارة الاولى . وصعدت انا الى السيارة الثانية ، وعندما غادرنا القصر نظرت حولى فرأيت ألسنة اللهب ترتفع فوق ”معبد التأسيس الوطنى“ .

استغرق القطار ثلاثة ايام وليلتين حتى وصل داليتسيكو . وكانت الخطة الاصلية ان نذهب اليها عبر شنيانغ ، ولكن القطار سلك طريقا آخر على طول خط جيلين — ميخكو لتجنب الغارات الجوية . وخلال الرحلة كلها لم نتناول الا وجبتين وبعض البسكويت . ورأينا على امتداد الطريق عربات عسكرية يابانية تزدحم بخليط من الناس : جنود ولاجئين كما بدا لى . وتوقف القطار فى ميخكو ليصعد اليه قائد جيش قواندونغ ، ياماتا ، الذى اخبرنى بأن الجيش اليابانى حقق الانتصارات وانه قد دمر عددا من الطائرات والدبابات السوفياتية . ولكن روايته هذه كذبها ما رأيته فى محطة جيلين . فقد كانت هناك حشود من النساء والاطفال اليابانيين يصرخون ويصفحون ويندفعون نحو القطار باكين ويرجون رجال الدرك ان يسمحوا لهم بالمرور . وعند نهاية رصيف المحطة كان رجال الدرك والجنود اليابانيون يتصارفون . وفى ١٣ اغسطس وصلت الى داليتسيكو التى تضم مجموعة مناجم للفحم وسط الجبال . وكانت جميلة ، ولكننى لم استطع تأملها لشدة رعبى . وبعد

يومين اعلن استسلام اليابانيين ،

عندما قال يوشيوكا : ” لقد اعان صاحب الجلالة الامبراطور انسحابنا ،  
والحكومة الامريكية قد تمهدت بضمنان مركزه وامنه “ جنوت على ركبتى  
وسجدت للسماء ، مرتلا : ” اشكر السماء على حمايتها صاحب الجلالة  
الامبراطور “ وركع يوشيوكا كذلك وسجد .

وقال يوشيوكا حينذاك بتعبير كتيب ان جيش قواندونغ على صلة بطوكيو ،  
وانه تقرر ارسالى الى اليابان . واضاف ” ولكن صاحب الجلالة الامبراطور  
لا يمكن ان يتحمل مسؤولية غير مشروطة عن امن جلالتك . وهذا سيكون  
فى ايدى الحلفاء . “

فشعرت ان الموت يشير الى :

وجاء تشانغ جينغ هوى وتاكيب روكوزو مع مجموعة من ” الوزراء “  
و ” اعضاء المجلس الاستشارى “ . وكانت هناك مهزلة اخرى تتطلب  
تأديتها ، فجلبوا معهم كتابة جديدة من وضع خبير اللغة الصينية اليابانى  
ساتو ، تتضمن ” مرسوم التنازل “ . وبدوا كأنهم حشد من الكلاب الضالة  
وانا اقف امامهم واتلو عليهم المرسوم . لقد نسيت صياغة هذا المرسوم  
السادس ، ولكننى ما زلت اتذكر ان الاشارات التى لا غنى عنها الى ” البركة  
الالهية لالهة الاشرار المشع السماوى وحماية صاحب الجلالة امبراطور  
اليابان “ قد حذفها هاشيموتو بضحكة صفراوية . كان هاشيموتو فى السابق  
قائدا لفوج الحراسة الامبراطورية اليابانية ، واصبح فيما بعد رئيسا لـ ” مكتب  
العبادة “ فى ” امبراطورية منشوريا “ ومسؤوليته حراسة الهة الاشرار المشع  
السماوى وبهذا اصبح من اعرف العارفين بشؤون الامبراطور والآلهة .

لو كنت فى ذلك الوقت اعرف ان المنزل التى اتمتع بها اقل من منزلة  
تشانغ جينغ هوى ومجموعته لكنى اكثر اكتئابا . عندما قرر اليابانيون  
ان اذهب الى طوكيو ، هياؤا امر العودة السرية لتشانغ جينغ هوى وتاكيب

الى تشانغتشون للقيام بترتيبات للمستقبل . وعندما عاد تشانغ جينغ هوى الى تشانغتشون قام باتصال لاسلكى مع تشيانغ كاي شيك فى تشونغتشينغ واعان تأسيس ” لجنة الحفاظ على النظام العام “ التى كانت تستعد لاستقبال قوات الكومينتانغ ، وامل هو ومجموعته ان يتمكنوا من القيام بتحول سريع الى مندوبين عن جمهورية الصين قبل وصول القوات السوفياتية ، ولكن التقدم السوفياتى كان اسرع بكثير مما توقعوا ، والجيش المتحالفة ضد اليابانيين التى يقودها الشيوعيون كانت تكتسح مقاومة الجنود اليابانيين فيما كانوا يقتربون من المدينة . وفى اليوم التالى بعد وصول الجيش السوفياتى الى تشانغتشون ، تبددت احلام تشانغ جينغ هوى ، عندما اخذ هو وزملاؤه أوزراء اسرى فى طائرة الى الاتحاد السوفياتى .

وفى ١٦ اغسطس عام اليابانيون ان هناك صدامات بين حرس القصر والجيش اليابانى فى تشانغتشون ، لذلك جردوا جماعة الحرس التى جاءت معى من اسلحتها . وفى الوقت نفسه اخبرنى يوشيوكا اننى سأذهب الى اليابان فى اليوم التالى . فبرزت رأسى بسرعة موافقا ، وتظاهرت بأننى مسرور جدا . وطلب منى يوشيوكا ان اقرر من سأخذ معى . ونظرا الى اننا سنذهب فى طائرة صغيرة ، لم اختر الا شقيقى بو جيه واثنين من ازواج شقيقاتى وثلاثة من ابناء اشقائى وطيبيا ومرافقى الشخصى لى الكبير . وسألتنى زوجتى الادنى مرتبة وهى تنتحب عما تفعله فأجبتها :

— الطائرة صغيرة جدا ، لذلك عليك ان تذهبى بالقطار :

— هل سيذهب القطر الى اليابان ؟

فأجبتها دون ان افكر لحظة واحدة :

— بالطبع سيذهب الى اليابان . بعد ثلاثة ايام على ابعد تقدير ستريتنى

انت والامبراطورة مرة ثانية .

— ماذا يحدث اذا لم يأت القطر ؟ ليس لى اى قريب هنا اطلاقا .

— ستتقابل ثانية بعد يومين . ستكونين على ما يرام .  
كنت شديد الانشغال بانقاذ حياتي فلم التفك الى انه سيكون هناك  
قطار لها ام لا .  
ونزلنا في شنيانغ في الساعة الحادية عشرة صباحا متظرين نقلنا الى  
طائرة كبيرة حيث جلسنا في استراحة المطار .  
وقبل ان يمضى على انتظارنا وقت طويل رددت ارض المطار ضجيج  
طائرات لكنها لم تكن طائرات يابانية بل سوفياتية . واندفع خارجا من الطائرات  
جنود سوفيات يحملون بأيديهم رشاشات ، وعلى الفور جردوا جميع الجنود  
اليابانيين في المطار من اسلحتهم ، وسرعان ما غطى الجنود السوفيات ساحة  
المطار .  
وفي اليوم التالي حملت على متن طائرة سوفياتية انطلقت بى الى الاتحاد  
السوفياتى .

## الفصل السابع

# فى الاتحاد السوفياتى

## خوف ووهم

عندما هبطنا فى تشيتا كان الظلام يخيم على كل شىء . وكان جماعتى ، وهم الحشد الاول من مجرمى الحرب التابعين لـ ” امبراطورية منشوريا ” فى الاتحاد السوفياتى ، قد اخذوا من المطار فى سيارة من سيارات الجيش السوفياتى . وعندما نظرت من النافذة بدا لى كأننا ننطلق عبر سهل امتد امامنا اسود واسعا على كلا الجانبين . وبعد فترة دخلنا فى غابات وبدأنا نتسلق . اصبح الطريق ضيقا ومنحدرا ، واخذت السيارة تمخف سرعتها . وفجأة توقفت وسمعنا نداء وسط الظلمة باللغة الصينية : ” اخرجوا اذا اردتم قضاء الحاجة . ”

وذعرت ظانا ان الصينيين قد جاءوا ليعيدونى ؛ ولكن المتكلم تبين انه ضابط سوفياتى من اصل صينى . وكما كان يحدث لى غالبا فى الجزء الاول من حياتى ، عانيت كثيرا من الاضطرابات الذهنية التى لم يكن لها اى لزوم ، وذلك بسبب شكوكى المرضية . لقد ذعرت من الوقوع فى ايدى الصينيين ، فقد اعتقدت اننى سأحظى بفرصة البقاء على قيد الحياة اذا كنت فى يد سلطة اجنبية ، اما الصينيون فسيقتلونى لا محالة . وكان من المضحك طبعا ان اتخيل بأننى سأعاد الى الصين فور وصولى الاتحاد السوفياتى .

وبعد ان استرحنا قليلا عدنا الى السيارة ، وبعد ساعتين توقفنا عند مبنى مضاع كبير فى واد جبلى . فزلنا من سيارتنا ونظرنا الى هذا المبنى الجميل ؛ وتمتم احدنا قائلا : ” هذا فندق . ” فاسترد كل واحد معنوياته .

وعندما دخلنا الفندق استقبلنا رجل فى الاربعين من عمره يرتدى ملابس

مدينة ، وخلفه كانت مجموعة من الضباط السوفييات . واعلن بوقار ان الحكومة السوفياتية قد امرت بأن نحتجز هنا . وتبين فيما بعد ان هذا الرجل لواء في قيادة حامية تشيتا . وبعد اعلانه هذا اخبرنا برقة اننا سنتنظر هنا بهدوء الى ان يتخذ قرار حول كيفية معاملتنا . ثم اشار الى زجاجة ماء على طاولة واخبرنا بأن المكان مشهور بينابيعه ذات المياه المعدنية الصحية .

ولم استسغ المياه المعدنية في البداية ، ولكن فيما بعد اصبحت مولعا بها . وامضينا فترة احتجاز رائعة في هذا المصح ، كانت تقدم لنا فيه ثلاث وجبات روسية كبيرة ، كما يقدم لنا الشاي بعد الظهر . وكان هناك خدم للقيام بخدمتنا ، واطباء وممرضات للاعتناء بصحتنا ، واجهزة راديو وكتب وصحف وتسهيلات لأنواع اخرى من الاستجمام . وكان هناك ايضا اناس لأخذنا في التمشي بين حين وآخر . لقد كانت حياة مرضية من البداية . ولم يمض على وقت طويل هناك حتى برز عندي امل غريب هو ان من الممكن ان يسمح لي بأن اذهب واعيش في بريطانيا او امريكا لاجئا ، ما دام البلدان حليفين للاتحاد السوفياتي ؛ وكنت قد جلبت معي ما يكفي من المجوهرات لبقية حياتي . ولكي احقق هذا الطموح كان على ان اتأكد أولا من انه سيسمح لي بالاقامة في الاتحاد السوفياتي ، وباستثناء الطلبات الشفوية قدمت ثلاثة طلبات خطية الى السلطات السوفياتية خلال تلك السنوات الخمس طالبا ان يسمح لي بالاقامة الدائمة في الاتحاد السوفياتي . ولكن هذه الطلبات الثلاثة لم احصل على اى جواب عنها .

اما محتجزو (٨) "امبراطورية منشوريا" الآخرون فقد وقفوا موقفًا مختلفًا تماما . لقد وصل تشانغ جينغ هوى وتسانغ شى يى وشى تشيا وآخرون غيرهم الى المصح بعد بضعة ايام من وصولي . وفي اليوم التالى جاؤوا لرؤيتي . وظننت ان هذه زيارة مجاملة الى ان قال تشانغ جينغ هوى :  
— لقد سمعنا انكم تريدون الاقامة في الاتحاد السوفياتي ، ولكن اسرنا



فى الشمال الشرقى وتحتاج الى عنايتنا بهم . وبالإضافة الى ذلك فان لدينا بعض الاعمال الرسمية ستؤديها هناك . فتريد منكم ان تطلبوا من السلطات السوفياتية ان تسمح لنا بالعودة قريبا . فهل تظنون ان هذا ممكن ؟  
رأى اعرف ولم اهتم بما يمكن ان يكون هذا " العمل الرسمى " ولم اعر كذلك ادنى اهتمام بطلبهم . ولكن عندما توسلوا الى اخبرت المضابط السوفياتى المسؤول عنا بذلك ، فأعطانى نفس الجواب الذى كان يجيبنى به عن طلباتى - " حسن جدا سأنقل هذا الطلب الى المسؤولين " . ولم ينتج من ذلك شىء .

والسبب الذى ارادوا من اجله العودة هو انهم فهموا الكومينتانغ تمام الفهم . لقد عرفوا ان الكومينتانغ بحاجة اليهم ، واعتقدوا انهم سيكونون قادرين على تحقيق مكاسب لأنفسهم . وبعضهم كاد ان يجن شوقا الى العودة . وعند وجودنا فى الاتحاد السوفياتى كان ينقل الينا الاخبار مترجمون سوفيات ، وغالبا ما كنا نرى صحيفة " شى هوا باو " الناطقة باللغة الصينية التى كان يصدرها الجيش السوفياتى فى ليويشون . وتابع الوزراء العملاء السابقون تطور الحرب الاهلية الصينية بدقة ، وكانت عواطفهم بالطبع مع الكومينتانغ المدعوم من امريكا والذى توقعوا له ان يفوز . ولكن عندما انتهت الحرب بهزيمة الكومينتانغ ، ارادوا ان يرسلوا برقية تهنئة بتأسيس جمهورية الصين الشعبية . ولكننى لم اهتم بالحرب ، لأننى شعرت انه لا فرق عندى ان يفوز الشيوعيون ام الكومينتانغ ، فكلاهما يريد حياتى . وكان املى الوحيد ألا اعود ابدا الى بلادى .

## ما زلت ابدى كبرياء مصطنعة

لم اكف قط عن تصنع الكبرياء خلال السنوات الخمس التى امضيتها

فى الاتحاد السوفياتى . وعلى الرغم من انه لم يبق هناك خدام عندما انتقلنا الى مركز الاستلام فى خاباروفسك ، الا انه ظل معى اناس يخدمونى . فأفراد اسرتى كانوا يطوون لى فراشى ويرتبون غرفتى ، ثم يجلبون لى الطعام ويغسلون لى ثيابى . ونظرا الى انهم لم يجرؤوا على مخاطبتى بعبارة ” جلالتك ” ، كانوا يخاطبونى بكلمة ” شانغ بيان ” ( الاعلى ) ويأتون الى غرفتى كل صباح ليقدموا لى احتراماتهم تماما كما فى الايام الماضية .

وذات يوم ، بعد وصولى الى خاباروفسك ، قررت ان اخرج للتمشى : وفيما انا اهمم بهبوط السلم لاحظت ” وزيرا ” سابقا يجلس فى كرسى عند اسفل السلم ، وعندما رآنى تجاهل وجودى تماما . فغضبت غضبا شديدا فكرت معه فى ألا اهبط السلم ثانية قط . وامضيت جل وقتى اتلو النصوص المقدسة . ولكن معظم ” الوزراء ” السابقين ظلوا يعاملونى باحترام . فعندما نأكل ” جياو تسى ” (٩) فى عيد رأس السنة الصينية مثلا ، كانوا يقدمون لى الطاس الاول .

ولم اكن اسر ، وانا شخصا لا اقوم بأى عمل اطلاقا ، ان يقوم افراد اسرتى بالعمل لأى شخص آخر . فعندما فرش شقيقى وزوجا شقيقتى المائدة للذين اكلوا عليها جميعا عند تناول وجبة من الوجبات كنت اوقفهم عن القيام بذلك ، فلم اكن اقبل بأن يخدم اقربائى احدا غيرى .

وفى المدة ما بين عام ١٩٤٧ وعام ١٩٤٨ نقل افراد اسرتى الى مركز استلام آخر فى نفس المدينة ، فوجدت هذا لا يناسبنى البتة ، حيث اننى لم افصل عن اسرتى قبل ذلك ابدا . وكانت السلطات السوفياتية لطيفة جدا معى ، فسمحت لى بأن آكل وحدى ، ولكن من الذى يجلب لى طعامى ؟ ومن حسن الحظ ان نسيبى تطوع للقيام بذلك مع غسل ثيابى .

ولكى يجعلونا ، نحن العالة ( الطفيلين ) ، نقوم بعمل خفيف ضئيل اعطينا زاوية من فناء مركز الاستلام حيث استطعنا ان نزرع فيها الخضراوات .

واعطيت انا وافراد اسرتى حاكورة زرعتنا فيها الفلفل الاخضر والطماطم والباذنجان والبقلاء واشياء اخرى . ورحت اراقب الشتلات الخضراء مفتونا بها وهى تنمو يوما بعد يوم ، وشعرت بمتعة عظيمة وانا املأ الوعاء بالماء واستقى هذه الخضار . لقد كانت هذه تجربة جديدة بالنسبة لى . ولكن السبب الرئيسى الذى جعلنى مسرورا هو اننى احب اكل الفلفل والطماطم . وكثيرا ما كنت افكر فى ان ذلك لم يكن سهلا مطلقا بالمقارنة مع شراء هذه الاشياء من دكان البقال .

واعطتنا سلطات مركز الاستلام بعض الكتب باللغة الصينية لندرسها ، وكانت هناك اوقات محددة يقرأ فيها شقيقى وزوجا شقيقتى «قضايا اللينية» (١٠) و «تاريخ الحزب الشيوعى السوفياتى (البشفيك)» لكل واحد منا . ولكن الكتب لم تكن شيئا بالنسبة للقراء والمستمعين . وقد وجدت بها باعثة على الكتابة ولا علاقة لها بنا . فاذا لم يسمحوا لى بالمشاهدة فى الاتحاد السوفياتى واعادونى الى الصين ، فما الفائدة التى اجنيها حتى ولو حفظت الكتابين عن ظهر قلب ؟

لقد بدت لى كلمة "دراسة" اقل واقعية فى تلك الايام من الفلفل والطماطم . ولدى جالوسى فى مكاني الخاص كنت اصغى الى "المعلم" يتمتم بكلمات مثل "منشفيك" و "دوما الدولة" لم افهمها ولم ارغب فى فهمها ؛ وفى تلك الاثناء كنت اتساءل الى متى ستكفينى المجوهرات التى جلبتها معى للبقاء فى موسكو او لندن ، او كنت اسأل نفسى : "اذا لم يأكل الروس الباذنجان فكيف سأكمل ما جئنا به ؟"

وبعد العشاء اتى موعد النشاطات الحرة . كانت توضع عند طرف الممشى بعض طاولات لعبة المايجانغ وعند الطرف الآخر يقف البعض ينظرون الى السماء وايديهم مضمومة الى بعضها كأنما يتوسلون الى بوذا . ومن الطابق العلوى حيث اودع مجرمو الحرب اليابانيون ، كانت تنبعث

اصوات الاوبرا اليابانية . وكان اغرب مشهد هو احتشاد المحجوزين حول منصبة قراءة البخت عن طريق تحليل تركيب مقطع من مقاطع الصينية لاكتشاف متى سيسمح لهم بالعودة الى موطنهم وماذا حدث لعوائلهم . وبعضهم كان يستخير اللوح المقدس سرا في غرفة نومه ، ليخبره عن موعد عودته الى موطنه . وخلال الايام القليلة الاولى كان الحراس يجفلون لدى سماعهم الصياح ، فيهرعون ويحدقون الى اولئك الرجال الغريباء ثم يهزون رؤوسهم ؛ وفيما بعد تعودوا ذلك .

وامضيت جل وقتي خلال هذه الفترة داخل غرفتي ، اخض نقودي الذهبية للاستخارة (١١) واتلو السوترا الماسية (١٢) .

## ارفض الاعتراف بذنبي

نظرا الى انني لم اكف عن التصرف بوصفي كائنا اسمي ورفضت ان ادرس ، فلم يحدث اى تغير اساسي في تفكيرى ، وطبعاً لم اعترف بذنبي . وعرفت انني من الناحية القانونية كنت مذنباً بالخيانة العظمى ، ولكنني رأيت ان هذه كانت بالقضاء والقدر . ” القوة حق ” و ” المنتصر يصبح ملكاً والخاسر يصبح قاطع طريق ” ، هكذا كان موقفى في تلك الايام . لم افكر في اية مسؤولية يجب ان اتحملها ، ولم اتساءل اية ايديولوجية كانت سبباً في جرائمى ، ولم اسمع مطلقاً بضرورة اصلاح التفكير .

ولكى اتجنب العقوبة لجأت الى حيل القديمة وحاولت ان اكسب رضى السلطات السوفياتية التى كانت حينذاك متحكمة بمصرى . لذلك قدمت مجوهراتى اسهاماً في اعادة البناء بعد الحرب في الاتحاد السوفياتى . ولم اقدم جميع مجوهراتى ، بل احتفظت بأفضلها لنفسى . وقدمت المجوهرات التى احتفظت بها لابن شقيقى ليخبئها تحت قعر مزيف لحقيبة

ملابسى . ومن سوء الحظ لم يستطع اخفائها كلها فى ذلك الفراغ ، لذلك حاولت وضع بقية هذه المجوهرات فى كل مخبأ استطعت الاهتداء اليه . ولكن عندما لم يعد صابونى يستوعب المزيد ، فقد اضطررت الى نبذ مابقى .

وذات يوم جاء الى القاعة الرئيسية ضابط سوفياتى يصحبه مترجم . وامسك بيده شيئا براقا وسأل كل واحد منا : ” لمن هذه ؟ من وضع هذه فى الشبكة المتروكة من انايبب التدفئة المركزية فى الفناء ؟ “ فاحتشد المحتجزون جميعا فى القاعة ورأوا الضابط يمسك قطعة من المجوهرات . فقال احدهم : ” ان عليها دمنغة صانغ الفضة فى بكين . اننى اتعجب من وضعها هناك . “ فعرفتها فى الحال انها احدى القطع التى اخبرت ابناء اشقائى ان يتخلصوا منها ، ولكن بما انهم الآن مفصولين عنى لم استطع سؤالهم عنها . واسرعت هازا رأسى وقلت : ” عجيب جدا ، عجيب جدا . اننى اتساءل من وضعها هناك ؟ “

ودهشت حين رأيت المترجم يتقدم منى ويده مشط خشبى وقال :  
- لقد عثر على هذا المشط معها ، واذكر انه لك .

فأجبت فى خيبة امل :

- لا ، لا ، لا ، انه ليس لى .

وتردد الرجال بعض الوقت ، وذهلا لسذاجة انكارى ثم انصرفا . والى جانب نبذ المجوهرات احرقت بعض اللآئى فى موقد ، وطلبت من لى الكبير ان يرمى ببعض اللآئى المتبقية فى المدخنة قبل ان تغادر الاتحاد السوفياتى بقليل .

وبسبب كراهيتى لليابانيين قدمت الى السلطات السوفياتية بكل حماسة مقدارا كبيرا من المعلومات عندما سألتنى عن جرائم اليابانيين فى الشمال الشرقى . وعندما استدعيت للحضور شاهدا فى ” المحكمة العسكرية الدولية

للشرق الاقصى“ فى اغسطس ١٩٤٦ شجبت مجرمى الحرب اليابانيين بمتهمى  
الشدة . ولكننى لم اتكلم عن جرائمى خوفا من ان ادان . واستمرت شهادتى  
ثمانية ايام ، وكانت اطول شهادة فى المحكمة . وزودت الصحف الميالة  
الى معالجة الموضوعات المشيرة فى مختلف انحاء العالم بأخبار من الدرجة  
الاولى .

وكان السبب فى الطلب منى تقديم شهادة هو ان اكشف الحقيقة  
المتعلقة بالغزو اليابانى للصين ، ولأظهر كيف استخدمتى اليابان عميلا  
لمساعدتها فى ان تحكم الشمال الشرقى . واننى الآن اشعر بالخجل الشديد  
من شهادتى لأننى احتفظت ببعض ما كنت اعرفه كى احمى نفسى من ان  
تعاقبنى بلادى . فلم اقل شيئا عن تعاونى السرى مع الامبرياليين اليابانيين  
خلال مدة طويلة من الصحبة التى لم يكن استسلامى الصريح لهم بعد ١٨  
سبتمبر ١٩٣١ الا نتيجة لها . وتكلمت بدلا من ذلك عن الطريقة التى مارس  
اليابانيون الضغط على لييجرونى ان اعمل وفقا لمشيئتهم .

واظهرت عروضا متعددة للانفعال فى المحكمة العسكرية . فعندما  
تكلمت عن ادخال عبادة الهة الاشرار المشع السماوى الى الشمال الشرقى ،  
سألنى محام يابانى ان كان هجومى على سلف امبراطور اليابان يتفق والاخلاق  
الشرقية . فصحت مجيبا : ” انا لم اجبره على اتخاذ سلفى سلفا له . “  
فانفجرت القاعة كلها بالضحك ، ولكننى كنت فى غاية السخط . وعندما  
ورد ذكر وفاة زوجتى تان يوى لينغ تكلمت كأنما شكوكى بخصوص موتها  
كانت حقائق ثابتة ، فقلت على نحو مأساوى : ” حتى هى قتلت على يد  
اليابانيين . “ وكنت بالطبع ملتهبا بالعاطفة ، ولكننى كنت ايضا اصور  
نفسى متعمدا اننى ضحية لليابانيين .

وحاول محامى الدفاع جميع انواع الحيل ضدى املا فى تجريد شهادتى  
من الثقة ، بل اقترح اننى لست مؤهلا لأكون شاهدا ولكن هذه المحاولات

انخفقت طبعاً ، وحتى اذا كانت ناجحة فانها لن تعنى شيئاً جديداً بالنسبة لمصير المتهم . ولكن عندما تعمدوا ان يستغلوا خوفاً من العقوبة ليجعلوني اصمت ، نجحوا الى حد ما . اذكرك اننى بعد ان اعددت قائمة بجرائم مجرمى الحرب اليابانيين صاح محام امريكى : ” انك تضع اللوم كله على اليابانيين ، ولكن عاجلاً او آجلاً ستدينك الحكومة الصينية على جرائمك . “ فأصاب بذلك هدفه ، فاننى بسبب خوفاً من هذا الامر بالضبط اصررت على اننى لم اخن وطنى واننى اختطفتم خطفاً ، وانكرت كل تعاونى مع اليابانيين ؛ بل ادعيت ان الرسالة التى كتبته الى مينامى جيرو كانت مزيفة . وغطيت جرائمى كى احمى نفسى . وهذا يعنى اننى لم اقم بكشف كامل لجرائم الامبرياليين اليابانيين . وبذلك قدمت لهم خدمة طيبة .

## الفصل الثامن

# من الخوف الى الاعتراف



## اتوقع ان اموت

في ٣١ يوليو (تموز) ١٩٥٠ وصل القطار السوفياتي الذي يحمل مجرمي الحرب التابعين لـ "امبراطورية منشوريا" الى محطة سوينسخه على منطقة الحدود الصينية السوفياتية . واخبرنا الكابتن آستر الذي كان مسؤولا عن حراستنا اننا سنسلم الى السلطات الصينية في الصباح التالي ، ونصحنا بأن ننام باطمئنان .

بعد ركوبى القطار في خاباروفسك فضلت عن افراد اسرتى ووضعت في نفس العربة مثل الضباط السوفيات . وقد هموا الى البيرة والحلوى ، ورووا لي قصصا مسلية خلال الرحلة ؛ ورغم هذا كله شعرت بأنهم يقودوننى الى حتفى . وظننت اننى سأهلك لحظة تطفأ فيها قدمى تراب الصين .

كان تنفس الكابتن آستر ينبعث منتظما وهو في مضجعه المقابل . لقد استلقيت وعيناي مفتوحتان على اتساعهما ، وظللت مستيقظا خوفا من الموت . ثم استويت جالسا ، واخذت اتلو النصوص البوذية ، واوشكت ان استلقى ثانية ، فاذا بى اسمع وقع خطوات جنود على رصيف المحطة . فنظرت من النافذة ، ولكننى لم استطع رؤية احد . وكان وقع اقدامهم يخفت شيئا فشيئا ، وكل ما استطعت ان اتبينه هو بعض المصابيح المتلائة من بعيد . فتنهدت وكورت نفسى في زاوية مضجعى ، وحدقت الى الكؤوس الفارغة على الطاولة . وتذكرت شيئا قاله لي آستر عندما كنا نشرب البيرة التى كانت معهم : "عند العجر سترى وطنك الام . والعودة الى الوطن الام مناسبة تستحق التهئة . لا تقلق ، فالسلطة السياسية الشيوعية من اكثر السلطات

تحضروا على الارض ، والحزب الشيوعي الصيني والشعب الصيني على درجة عظيمة من الكرم .“

فقلت في نفسى : ”كذاب“ . وانا انظر الى آستر الذى كان حينذاك يشخر . ” ان كلماتك وبيروتك وحلواك – كلها خداع . ان حياتي لن تستمر اكثر من هذا الندى العالق بزجاج النافذة من الخارج . ولكنك نائم هناك كمجدع شجرة .“

لم اصدق ان الشيوعيين يمكن ان يكونوا ”متحضرين“ . كانوا ما يزالون فى نظرى ”فيضانات مدمرة ووحرشا مفترسة“ كما اخبرونى بذلك عندما كنت اعيش فى بكين وتيانجين وتشانغتشون . وعزوت المعاملة الانسانية التى لقيتها من الاتحاد السوفياتى ، الدولة الشيوعية ، الى حقيقة انه بلد من البلدان المتحالفة التزم بالاتفاقيات الدولية . ورأيت ان الصين ستكون مختلفة تماما . فالشيوعيون هناك قد اطاحوا بتشيانغ كاي شيك ، وانهم ليكرهونى كراهية شديدة تزيد عن كراهيته لى مائة مرة . وظننت اننى بمجرد وقوعى فى قبضة هؤلاء الرجال القساة فلن يبقئى لدى امل حتى بميتة مريحة .

وامضيت الليل افكر بمثل هذه الافكار المزعجة . وعندما طلب منى الكاتب آستر فى الصباح التالى ان اذهب معه لرؤية ممثل الحكومة الصينية ، لم اكن افكر الا فيما ان كانت لدى الشجاعة التى تمكننى من ان اهتف ”عاش الامبراطور تاى تسو“ قبل ان اموت .

وتبع آستر بذهن مضطرب الى مقصورة اخرى كان يجلس فيها صينيان ، احدهما يرتدى ثيابا مدنية زرقاء والثانى بزة عسكرية خالية من اية رتبة ، سوى رقعة على صدره كتب عليها ”جيش التحرير الشعبى الصينى“ . فنهضما وتبادلا بضع كلمات مع آستر ، ثم نظر الى صاحب الملابس المدنية من الاعلى الى الاسفل وقال : ”لقد جئت لاستلامك بأمر من رئيس مجلس الدولة شو ان لاي . لقد عدت الآن الى وطنك الام .“

فخفضت رأسى منتظرا من العسكرى ان يقيدنى . ولكنه جلس ساكنا ، مكتفيا بالنظر الى .

وقلت فى نفسى وانا اخرج من القطار واخطو على رصيف المحطة بعد ساعة تقريبا : ” انه يعرف اننى لا استطيع ان اهرب . “ وكان هناك صفان من الجنود المساحين احدهما من القوات السوفياتية والثانى من القوات الصينية وعلى صدورهم نفس الرقعة التى رأيتها على صدر الضابط فى القطار . ومشيت بين هذين الصنفين وصعدت القطار المقابل . وتذكرت ان قوات تشيانغ كاي شيك المسلحة البالغ عددها ثمانية ملايين جندى قد ابادها رجال يضعون على صدورهم هذه الرقعة ، وقدرت اننى لا بد ان اكون فى اعينهم اقل شأنًا من دودة .

وفى القطار رأيت مجموعة من موظفى ” امبراطورية منشوريا “ السابقين وافراد اسرتى . كانوا جميعا مستقيمين فى جلستهم ، لا احد منهم مكبل . واخذت الى مقعد فى نهاية العربّة تقريبا ، ووضع جندى حقيبتى فى موضع الامتعة . وحاولت النظر من النافذة ، ولكننى وجدت انها مغطاة بالورق . ورأيت عند طرف كل عربّة جنديا يحمل رشاشة . فهبط قلبى . هذا يعنى بالتأكيد اننا مرسلون الى ساحة الاعداء . وكانت وجوه جميع المجرمين من حولى شاحبة شحوب الموت .

وبعد فترة قصيرة مشى رجل غير مسلح الى منتصف العربّة ، بدا كأنه ضابط ، وقال وهو يجيل بصره فيما بيننا : ” حسنا ، لقد عدتم الآن الى وطنكم الام . ان الحكومة الشعبية المركزية قد اعدت لكم الترتيبات اللازمة ، فليس هناك ما تقلقون عليه . وهناك طقم طبى فى القطار ، فاذا كان اى منكم مريضا ، يمكنه ان يطلب رؤية الطبيب . “

ماذا يمكن ان يكون قد عنى بكلامه هذا ؟ من المحتمل انه يحاول ان يطمئنتنا ثانية ويمنع حدوث اى شىء غير ملائم خلال الرحلة . وبعدها

دخل بضعة جنود واعطوا كلا منا عودى اكل وطاسا ، وطلبوا منا ان نعتنى بهما جيدا لأن من غير الممكن ان نعطي بديلا منهما فى الرحلة . فظننت ان هذا يعنى ان الرحلة الى ساحة الاعداء لا بد ان تكون طويلة .

تألف الفطور من خضار مخلل ويبيض مملح وعصيدة الارز . واثارت رائحة هذا الطعام ، طعام بلادنا ، بعد سنوات طويلة من الغياب فى الخارج ، شهيتنا جميعا ، وسرعان ما انهينا وعاء كبيرا من عصيدة الارز . وعندما رأى الجنود ذلك اعطونا وعاء العصيدة الذى كانوا سيأكلونه هم . فلم استطع فهم هذا التصرف وعرفت انه لعدم وجود تسهيلات طبخ فى القطار لا بد ان ينتظروا حتى نصل المحطة التالية فسيطبخوا مزيدا من العصيدة . وتوصلت الى نفس النتيجة : لا بد ان لديهم بعض النوايا السيئة تجاهنا .

وبعد انتهاء الفطور لم يبد كثير من القلق تقريبا على بعض الوجوه : وعندما تناقش اصحابى حول ذلك فيما بعد قالوا ان كرم الجنود اظهر انهم مدربون ومنضبطون على نحو جيد وانهم لن يسيئوا معاملتنا خلال الرحلة . ولكن وجهات نظرى كانت مختلفة تماما . لقد ظننت ان الحزب الشيوعى يكرهنى كراهية مرة ، وانه ربما يقتلنى خلال الرحلة بدافع الانتقام . حقا انهم سيفعلون ذلك حتما ، ومن المؤكد تقريبا ان ذلك سيتم هذا النهار او هذه الليلة . وغلب النعاس بعضنا بعد الفطور ، ولكننى كنت فى غاية القلق وبهاجة الى شخص اتحدث اليه . لقد اردت ان اجعل حرسى يعرفون اننى يجب ألا اقتل .

كان يجلس مقابلى جندى امن شاب ، وبدا لى انه من اكثر الاشخاص ملاءمة للمحادثة . فنظرت اليه بعناية ، ثم وجدت موضوعا للحديث فى تلك الرقعة المثبتة على صدره وقلت : ” انكم جندى فى جيش التحرير الشعبى الصينى (كانت هذه المرة الاولى التى استخدمت فيها صيغة الاحترام ’ انكم ‘ ) ، ومعنى كلمة ’ تحرير ’ جيدا جدا . اننى بوذى ، والنصوص البوذية مشتملة

على فكرة التحرير . ان معبودنا بوذا رحيم ، وقد اخذ على نفسه تحرير جميع الكائنات الحية . . .

حاق الجندى الشاب الى بعينين مفتوحتين ، مصغيا دون ان يتفوه بكلمة وانا اثرثر . وعندما قلت اننى لم اقتل ابدا اى كائن حى ولم اقتل حتى الذباب ، بدت تعابير وجهه غير مفهومة بالنسبة لى . ثم هبطت معنوياتى وتوقفت عن الكلام . ومن اين لى ان اعرف حينذاك ان هذا الجندى الشاب قد وجدنى صعبا على الفهم كما وجدته ؟

واصبح بأسى الآن اشد من السابق . وجعلنى هدير العجلات وهى تجرى على السكة اشعر بأن الموت يقترب . ونهضت من مقعدى وتجاوزت على طول الممر بين المقاعد الى الطرف الآخر من العربة . وبعد ان وقفت خارج باب المرحاض رجعت ادراجى . وعند منتصف الطريق فى الممر سمعت ابن شقيقى شيو الصغير يتحدث مع شخص ما بصوت خافت . ولدى سماعى كلمة ”ديمقراطية“ و”ملكية“ وقفت وصحت بهما قائلا : — ما زلتما تتحدثان عن الملكية فى هذه الايام ؟ كل من يعتقد بأن الديمقراطية سيئة سأقاتله .

فذهل كل فرد لهذا الاندفاع المفاجئ ، ولكنى واصلت الصياح على نحو هستيرى :

— لماذا تنظرون الى جميعا هكذا ؟ لا تقلقوا ، انهم لن يفعلوا اكثر من اطلاق النار على .

فجاء جندى وسجنى الى مقعدى ، ونصحنى بأن لا اثور . فتعلقت به كأنما كنت مسحورا وهمست فى اذنه : ”ذلك الشخص ابن شقيقى . ان افكاره سيئة جدا ، فهو ضد الديمقراطية . والشخص الآخر يدعى تشاو وكان ضابطا وقد قال كثيرا من الاشياء السيئة فى الاتحاد السوفياتى .“ وتابعت على هذا النحو بعد عودتى الى مقعدى . وعندما طلب منى

الجندي ان اضطلع لم اجد امامي خيارا آخر ، ولكنني واصلت الحديث وانا مضطجع على المقعد وعيناي مغمضتان . واخيرا اخذني النعاس ، ربما لأنني لم انم منذ عدة ليالى .

وعندما استيقظت كان ذلك فى الصباح التالى . وارتد ان اعرف مصير الشخصين اللذين بلغت عنهما . فنهضت لأنظر ، فرأيتهما كليهما يجاسان فى مكانيهما السابقين . كانت تعابير وجه شيو الصغير طبيعية ، اما تشاو فقد بدا غريبا بعض الشيء . وعندما دققت النظر اليه وجدت انه قد بدا مكتئبا ، وكان يحلق الى يديه بدقة . فاستنتجت انه عرف بأنه على وشك ان يموت فكان يرثى لحواله . وحينذاك تذكرت القصص عن الاشباح المنتقمة ، وذعرت من ان يأتى شبحه ليصفى الحسابات معى بعد موته . فتقدمت منه وسجدت امامه . وبتجنبى الكارثة على هذا النحو. عدت الى مقعدى اتمتم بتعويذة تخلص لأرواح الموتى .

ابطأ القطار فى اندفاعه الى ان توقف . وتمتم احدهم قائلا : ” تشانغتشون“ . فقفزت كالنابض وبحث عثا عن شق فى النوافذ المغطاة بالورق لأنظر منه واستطعت ان اسمع جمعا من الناس يغنون فى الجوار . فظننت ان هذا يجب ان يكون المكان الذى سأموت فيه حيث كنت امبراطورا هنا . كل شخص هنا كان ينتظر محكمةى العلنية . بينما كنت فى الاتحاد السوفياتى قرأت عن الصراع ضد الطغاة المحليين وعرفت ما يتعلق باجراءات المحاكم : قبل كل شيء يأخذ رجال الميليشيا المتهم الى المنصة . وعندها تماما دخل جنديان باب العربى ، فأفزعنى ذلك فزعا شديدا . ولكنهما فى الواقع قد جلبا عصيدة الارز من اجل الفطور ، وبعد وصولهما بدأ القطار فى تحركه ثانية . وعندما وصل القطار الى شينانغ اقتنعت بأننى سأموت هنا فى المكان الذى ظهر فيه اسلافى . وبعد توقف القطار مباشرة دخل العربى شخص غريب وبيده قطعة ورق ، واعلن قائلا : ” نظرا الى ان هذا اليوم شديد

الحر فليتبعني الكبار منكم للاستراحة . ” وبدأ يقرأ اسماء من القائمة التى فى يده . وبدأ غربيا بالنسبة لى ان القائمة لم تشملنى فقط ، انا الذى يمكن ان اعتبر كبيرا حيث اننى فى الرابعة والاربعين من عمري ، بل ابن شقيقى شيو الصغير ايضا الذى كان فى الثلاثين من عمره . من الواضح ان هذه خدعة . لقد كنت امبراطورا ، وكان الآخرون وزراء ، وشيو الصغير قد بلغت انا عنه . وصعدنا جميعا سيارة كبيرة بمرافقة جنود يحملون رشاشات . فقلت لشيو الصغير : ” هذه هى النهاية . سأخذك لمقابلة اسلافنا . ” وشعب وجهه فجأة . فضحك صاحب القائمة وقال : ” مم انت خائف ؟ أ لم اقل لك انك قادم للاستراحة ؟ ” فلم اهتم بكلامه ، وظللت اقول لنفسى ان هذه خدعة .

توقفت السيارة امام مبنى كبير على بابه المزيد من الجنود المسلحين . وتقدم منا جندى لا يحمل اى سلاح وحيانا ، ثم قادنا الى الداخل قائلا : ” الى الاعلى . ” واصبحت لدى الآن شجاعة اليأس فقررت انه من الافضل ، اذا كنت سأموت ، ان اموت بسرعة . وطويت معطفى على شكل صرة ، ووضعته تحت ذراعى ، وصعدت . وانطلقت بسرعة كبيرة بحيث تجاوزت الجندى الذى يقودنا فى الطريق فجعلته يسرع ليصبح امامى مرة ثانية . ثم ادخلنى الى قاعة كبيرة مفروشة بالكراسى والطاولات التى مدت عليها الفاكهة والسجائر والكعك . فألقيت معطفى على طاولة ، وتناولت تفاحة وبدأت أكلها ، مقتنعا ان هذه هى المأدبة التى تقام دائما للمحكومين بالاعدام ، واننى كلما اسرعت فى اكلها سينتهى كل شىء بسرعة . ولكن القاعة امتلأت بالقادمين قبل ان اتم نصف التفاحة .

وبدأ رجل بملابس مدنية يتكلم بقربى ، ولكننى كنت منشغلا بتفاحتى فلم التف الى ما كان يقول . وعندما انتهيت من التفاحة نهضت وقاطعته قائلا :

— كفى كلاما . هيا بنا .

فضحك بعضهم من ذوى الملابس المدنية ، وقال المتحدث بابتسامة :  
— انك مستعجل جدا . لا تقلق ، عندما تصل الى فوشون ستحصل

على استراحة جيدة ، وعندها تقوم بدراسة جيدة .

فأصبت بذهول . ألن يقوم بقتلى ؟ ماذا يعنى هذا ؟ اندفعت الى الرجل الذى جلبنا الى هنا وانتزعت من يده قائمة الاسماء . ومع ان هذا اضحك الناس ، الا اننى تأكدت الآن ان القائمة لم تكن امرا بالاعدام او اى شىء من هذا القبيل . ودخل تشانغ الصغير ابن تشانغ جينغ هوى . كان قد عاد الى الصين مبكرا مع مجموعة اخرى من مجرمى الحرب ، واخبرنا عن احوالهم هناك ؛ كما اورد بعض الاخبار العائلية . وعندما سمعنا ان افراد تلك المجموعة كلهم احياء وان عوائلنا جميعها على ما يرام وان الأولاد يدرسون او يعملون ، اشرقت وجوهنا جميعا . ونفرت الدموع الى عيني .

واستمرت طمأينتى طوال ساعة او نحو ذلك فقط ، انتقلنا خلالها من شنيانغ الى فوشون ، ولكن ذلك انقضى من الجنون ، حيث لم اكن افكر الا فى الموت طوال الايام الخمسة التى مضت على مغادرتنا لخباروفسك .

## الوصول الى فوشون

قبل وصول قطارنا الى فوشون كانت مختلف التقديرات المتفائلة تسمع على طوال الطريق . فالجو اختلف اختلافا تاما ، والمحادثة نشطت فيما كنا ندخن السجائر التى جلبناها معنا من شنيانغ . وقال بعضنا اننا قد نوضع فى ناد مزود بوسائل الترفيه يعرفه هناك ؛ والبعض الآخر قال انه سيسمح لنا بالعودة الى بيوتنا بعد الاستراحة هناك وقراءة الكتب الشيوعية لبضعة ايام ؛ ومنا من قال انهم سيبرقون الى عوائلهم لترتيب الامور استعدادا لعودتهم ؛ وآخرين



ظنوا ان من الممكن لنا ان نسيح في يتابع فوشون الساخنة قبل ان نغادر :  
وتكلمنا عن الخوف الذى انتابنا فى السابق واشتركنا فيه جميعا ثم انفجرنا  
بالضحك . ولكن عندما خرجنا من القطار ورأينا انفسنا محاطين بحرس  
مسلحين ، لم تعد تظهر اية ابتسامة على وجوهنا .

واخذنا تحت حراسة الجنود الى شاحنات كبيرة . واصبت بما يشبه  
الذهول . وكان الشئ التالى الذى تذكرته هو اننى وجدت نفسى فى مكان ما  
محاطا بسور من الآجر قائم شاهق يمتد عليه من الاعلى سلك شائك وعليه  
ابراج مراقبة عند الزوايا . فتبعنا الآخرين الى ان توقفنا امام صف من المباني  
ذات الطابق الواحد . وكانت جميع النوافذ مغطاة بقضبان حديدية . فأدركت  
ان هذا سجن .

وقادنا الجنود فى ممر ضيق الى قاعة كبيرة تم فيها تفتيشنا . ومن ثم  
قادنا جنود غير مسلحين . وتبعنا انا وبضعة آخرون احد الجنود فى طريق  
على طول الممر الى ان وصلنا زنزانة . وقبل ان القى نظرة على الغرفة صلك اذنى  
صوت مزلاج حديدى ثقيل ارتج فى الخارج . كانت الزنزانة تشتمل على سرير  
خشبى طويل ومنضدة طويلة ومقعدين . ولم اكن اعرف ضباط ” امبراطورية  
منشوريا “ السابقين الذين شاركونى هذه الزنزانة معرفة جيدة . ولم اتحدث  
اليهم ، لذلك لم اعرف ان كانوا هم ايضا خائفين او مكبوتين بوجودى .  
فقد وقفوا فى جانب من الزنزانة ناكسى الرؤوس ، ولم يتحدثوا اذنى صوت .  
ثم سمعت المزلاج يسحب . وفتح الباب ، فدخل حارس ليأخذنى الى زنزانة  
اخرى ، حيث دهشت حين لقيت هناك ابناء اشقائى الثلاثة وشقيقى بو جيه  
ونسيبى رونج يوان . وهكذا سمح لنا بالاقامة معا . وكان قد وزع عليهم  
قبل قليل الحفة وحشايا ومجموعات ادوات غسيل جديدة ، وكانوا قد جلبوا  
معهم طقما لى .

وطمأننى رونج يوان بما قاله لى :

— هذا سجن عسكرى وكل واحد هنا يلبس بزة عسكرية . ولا يبدو  
اننا . . . فى خطر حاليا ، والا لما اعطونا مناشف وفرش اسنان . وعندما  
فتشنا قبل لحظة احتفظوا بأشياءنا القيمة ، ولكنهم اعطونا وصلا بها ، هذا  
لا يشبه المعاملة تجاه . . . بل التى يعامل بها المجرمون العاديون . والطعام  
ليس رديئا .

وقال ابن شقيقى قو الصغير دون تردد :

— ربما الطعام الجيد هو مأدبة الاعداء .

— لا . تلك الوجبة تشتمل على خمر ، ولم يكن هنا اى خمر . فلننتظر  
ان كانت الوجبة التالية جيدة ايضا . واذا كانت كذلك ، فنعرف حينذاك  
ان الامر ليس كما تظن : اننى لم اسمع بانسان محكوم بالاعداء تقدم  
له عدة مآدب .

وبدأت اصدق نسيبى فى اليوم التالى ، لا لأن الطعام ما يزال جيدا ،  
بل لأن بعض الاطباء العسكريين اجروا لى فحصا . لقد كانوا فى غاية الدقة ،  
وسألونى عن كل مرض اصبت به من قبل ، وعما آكله عادة ، وعما لا  
استطيع اكله . واعطونى بنطالونين اسودين جديدين ومعطفا وألبسة داخلية  
بيضاء ، والاعجب من هذا انهم اعطونى سجائر ، فهذه بالتأكيد ليست  
الطريقة التى يعامل بها المحكومون بالاعداء .

وبعد بضعة ايام جاء الى ززانتنا رجل ممتلئ الجسم قصير فى الاربعين  
من عمره تقريبا . وسأل كلا منا عن اسمه ، وعن الكتب التى قرأناها فى  
الاتحاد السوفياتى ، وعن راحتنا خلال الليالى القليلة الماضية . وعندما سمع  
اجابتنا هز رأسه وقال : ” جيد ، ستقدم لكم حالا كتب وصحف لتقوؤوا  
ببعض الدراسات الجادة . “ واستلمنا بعد بضع ساعات كتبنا وصحفنا وكذلك  
شطرنجات مختلف الاشكال واوراق لعب . ومنذ ذلك اليوم بدأنا نستمع الى  
المذياع مرتين فى اليوم ، مرة الى الاخبار واخرى الى الموسيقى . وسمح لنا

بالمشى فى الفناء لمدة ساعة ونصف ساعة كل يوم بعد الظهر : وفى المرة الاولى التى خرجنا فيها للتمشى اخبرنا قو الصغير بأنه سمع ان الرجل الذى طلب منا ان " نقوم ببعض الدراسات العجادة " هو مدير هذا السجن الخاص بمجرى الحرب . وعلمنا فيما بعد ان الرجل الذى جلب لنا الكتب هو رئيس قسم يدعى لى .

فى تلك الايام كنا ندعو جميع موظفى السجن بكلمة " سيد " حيث لم نكن نعرف طريقة اخرى لمخاطبتهم . لقد جلب لنا السيد لى ثلاثة كتب هى « حول الديمقراطية الجديدة » و « تاريخ الصين الحديث » و « تاريخ الثورة الديمقراطية الجديدة » . وقال انه نظرا لعدم وجود كتب كافية حاليا فاننا سنضطر اما الى قراءتها بالتناوب واما ان تقرأ علينا بصوت عال لئلا نسمعها كل واحد منا . وكانت كثير من المصطلحات المستخدمة فى هذه الكتب غريبة بالنسبة لى ، ولكن الأغرب من هذا كله هو مطالبتهم ايانا ، نحن السجناء ، قراءة الكتب .

وكان اول من اهتم بهذه الكتب منا قو الصغير . فقد قرأها اسرع من اى شخص آخر ، وطلب منا على الفور مساعدته فى حل مشكلاته . وعندما لم نستطع مساعدته ، طلبها من موظفى السجن . فسخر رونج يوان منه قائلا :  
— لا تظن ان هذه مدرسة — انه سجن .

فقال قو الصغير :

— أ لم يطلب منا مدير السجن ان ندرس ؟

فأجاب رونج يوان :

— انه سجن سواء درست ام لم تدرس . لقد كان دائما سجنا ، وما

يزال سجنا ، توفرت فيه كتب ام لم تتوفر .

فقال بوجيه انه سمع عن سجناء يعطون كتباً للقراءة فى السجون اليابانية ، ولكنه لم يسمع بعد ان فى الصين " سجناء متحضرا " مثل هذا . فهز رونج

يوان رأسه قائلا :

— السجن سجن سواء كان متحضرا ام غير متحضر ، ان من الخير لك ان تناو النصير البوذية بدلا من تعلم هذه المواد .  
فهم قو الصغير بمناقشته ولكن رونغ يوان اغمض عينيه وبدأ يرتل النصوص البوذية بصوت خافت .

عندما عدنا من رياضتنا بعد ظهر ذلك اليوم نقل الينا قو الصغير قطعة من الاخبار كان قد سمعها . هناك شخص ما قد حاول اعطاء سجان ساعه يد ، فوبخ على ذلك . فجعل هذا بعض الشباب يتحدث . وقال شيو الصغير :  
أ لم يجلب السجانون الماء الساخن لاستحمامنا في المرة السابقة ؟ اننى لم اسمع مطلقا بسجانين يحملون الماء للمساجين .

وقال روى الصغير ان السجانين هنا مختلفون تمام الاختلاف عن السجانين التقليديين : انهم لا يشتموننا او يضربوننا . فتمتم رونغ يوان الذى كان قد انتهى من صلاته استعدادا للعشاء قائلا :

— انكم ايها الشباب ما تزالون اغرارا تماما ؛ تثيرون ضجة كبيرة حول لا شيء . ان الشخص الذى حاول اعطاء الساعه ربما فعل ذلك حينما كان شخص آخر ينظر . فكيف يمكن للسجان ان يقبلها ؟ أ لمجرد انهم لا يشتمونكم ولا يضربونكم تتخيلون انهم لا يكرهوننا ؟ انتظروا سنأكل جزءا اخر .

فرد عليه قو الصغير قائلا :

— هل حمل الماء لاستحمامنا يعتبر عقوبة ؟

فتمتم رونغ يوان قائلا :

— قل ما تشاء . ان الشيوعيين لا يمكن ان يحبونا ،

وتحسب جيبه ، وقال مترعجا :

— لقد تركت سجايرى على حافة النافذة فى الخارج . يا للأسف !

انها العلبة الاخيرة التى جلبتها من شنيانغ :  
وفتح علبة سجائر من الصنف الزهيد وقال :  
- ان السجانين هنا يدخون جميعهم تقريبا . لقد جعلت لهم تلك  
العابة هدية مقابل لا شىء .  
وعندما انتهى من كلامه فتح باب الزنازة ودخل سجان يدعى وانغ ويده  
شىء ما ، وقال :

- هل فقد احد سجائره فى هذه الغرفة ؟  
ورأينا جميعا ان ما يحمله هو علبة سجائر رونغ يوان التى جلبها من  
شنيانغ .

فأخذ رونغ يوان العلبة وشكره شكرا جزيلا . وعندما غادر السجان اشعل  
سيجارة منها . وبعد فترة من تدخينه السجارة فى صمت صفع فخذه  
بشدة كأنما اكتشف الحقيقة فجأة ، وقال : ” هؤلاء السجانون لا بد انهم  
قد انتخبوا انتخابا . بوسعهم طبعاً ان يختاروا بعض السجانين المتحضرين  
نسبياً ليبارينا حيلة ودهاء . “

وكنا جميعا صامتين رهبة من حكم رونغ يوان القائم على الخبرة .  
وبعد بضعة ايام اخذ شرح رونغ يوان يبدو بعيدا كل البعد عن الاقناع .  
كان بوجيه متعجلاً لرؤية الصحيفة اليومية بعد ان عدنا من الرياضة بعد  
ظهور احد الايام . واخبرنا فى احتياج بأنه سمع ان هناك مقالة فيها تبين لماذا  
تريدنا الصين الجديدة ان ندرس . فتحلقنا حوله متشوقين لرؤية المقالة .  
فقرأها علينا ، وكان فيها مقطع يقول انه نظرا الى ان الصين الجديدة بحاجة الى  
كافة المواهب فان من الضروري تدريب واختيار اعداد كبيرة من الكوادر  
الجديدة . وسمع انه فى رأى الزنانات الاخرى ان الحكومة قد تركتنا ندرس  
وهيات لنا معاملة مفضلة لأنها تنوى استخدامنا للمساعدة فى سد العجز فى  
الكفاءات فى الصين الجديدة . ومن المضحك كما يتبين اليوم اننا كنا جميعا

مقتنعين تقريبا بهذه الفكرة ، الا رونغ يوان الذى عبر عن شكوكه .  
وبدأنا ندرس بجدية . كنا فى السابق قد وجدنا جميعا هذه الكتب غير  
مسلية باستثناء قو الصغير ، ولم نقرأها الا من اجل السجانيين فى الممر . ولكن  
دراستنا حتى الآن كانت لم تزد عن تعلم المصطلحات الجديدة . ورونغ  
يوان بالطبع لم يشترك طبعا ، وانما استمر يقرأ نصوصه البوذية بعينين مغمضتين  
بينما بقيتنا يدرسون .  
لم يدم تفاؤلى العشوائى هذا طويلا على اى حال . فبعد ذلك بوقت قصير  
اعادت سلطات السجن تنظيم الزنانات ، وفصلتني عن افراد اسرتي :

### مفصولا عن اسرتي

لماذا فصلت عن اسرتي ؟ استغرقت وقتا طويلا حتى ادركت ان هذه  
خطوة هامة جدا فى اعادة بناء نفسى . فى البداية ظننت انها كانت بسبب  
عداوة الحزب الشيوعى لى ، وقدرت انهم ارادوا ان يسألوا افراد اسرتي عن  
نشاطاتي الماضية ليتمكنوا بذلك من ادانتى فيما بعد .  
عندما كنت فى الاتحاد السوفياتى قلت ان جميع نشاطاتي الخيانية قد تمت  
تحت الضغط ، مخفيا تماما تعاونى مع الامبرياليين اليابانيين ومحاولا كسب  
عطفهم . وقد ساعدنى اقربائى فى ذلك وغطوا على تصرفاتى . اما الآن ، وقد  
عدنا الى الصين ، فقد اردتهم ان يحتفظوا بأسرارى اكثر من السابق . وشعرت  
اننى مضطر الى الانتباه الدائم اليهم والتأكد من انهم لا يفلتون اية كلمة وكان  
على ان انتبه الى شيو الصغير خاصة .

خلال اليوم الاول من وجودنا فى فوشون لاحظت ان موقف شيو الصغير  
قد تغير نتيجة للحادثة التى تمت فى القطار . وشعرت كأن حشرة تدب على  
رقبتي ، فطلبت منه ان ينظر اليها . لو حدث ذلك فى الماضى لأتتى على الفور ،

ولكنه في هذه المرة تظاهر بعدم السماع ولم يتحرك . واكثر من هذا انه ، عندما جاء روى الصغير واخرج اليسروع من رقتي والقاه على الارض ، شخر شيو الصغير وقال : ” انه ما يزال يرحم الحيوان . . ينقذ حياة تلك الحشرة بينما هي تقدم على ايداء انسان آخر . “ فشعرت بالضعف والفتور . وعندما كان روى الصغير يطبى لي فراشى بعد بضعة ايام ، طلبت منه ان ينفذ لي لحافى . وكان هذا تصرفا غير مرغوب فيه ، لأنه يجعل جو الزنزانة غير مريح . فأمسك شيو الصغير اللحاف والقاه على سريري قائلا : — انكما لستما الوحيديين في هذه الغرفة . ان عدم تقديركما للآخرين لا يصح مطلقا .

فسألته :

— ماذا تقصد بكلمة ” انتما “ و ” نحن “ ؟ أليس عندك احساس

بالياقة ؟

فانصرف بنظره عنى دون ان يجيب ، وجلس على الطاولة وبدأ يكتب وشفتاه مزمومتان . وتقدمت منه لأنظر ، ولكنه نحى الورق بعيدا ومزقها ، تاركا لي وقتا ارى فيه كلمتين فقط وهما ” سوف نرى . “

وندمت اشد الندم على ما فعلته في القطار . ومنذ ذلك الحين وانا ابذل اقصى جهدى لكسب صداقته ، بل وضحت له اننى لم اقصد ايداءه بكلامى واننى احبه دائما . وانتهزت كل فرصة لأوضح لأبناء اشقائى الثلاثة ان المبادئ التى تحكم العلاقات الانسانية لا يمكن نبذها جانبا ، وان من الضرورى ان نكون اوفياء لبعضنا ونقف متساندين في الاوقات الحرجة . وعندما لم يكن شيو حاضرا حذرت الآخرين لكي يكونوا حذرين جدا ازاءه ، وان يتأكدوا من عدم قيامه بتصرف سيئ ، وان يحاولوا جهدهم ليكسبوه الى جانبهم .

ونتيجة لجهودنا لم يقدم شيو الصغير على اى تصرف خطر ، وشعرت

فى النهاىة انه لىس فىه ما ىسوء . ولىكن فى الملحظة التى لم اعد افاق فىها ازاءه  
طلب منى سىجان ان انتقل الى ززانة اخرى .

فمحزم الآخرون لى امتعتى ونقلوا لى فراشى وحقىبتى الى الززانة الاخرى ،  
وبعد ان انصرفوا بقىت وحدى وسط حشد من الغرباء . وشعرت بحرج شدىد  
لم اعرف معه أ اجلس ام اقف ، وبدا واضحا ان الاشخاص الثمانىة اللذىن  
كانوا قبلى فى الززانة قد كبتوا بوصولى فلم يتلفظوا بكلمة . وبعد فترة ، ربما  
نتىجة لاتفاق ما ، وضع فراشى على سرىر بىجانب الجدار . وفىما بعد ادركت  
ان هذا مكان جىد لقربه من التدفئة فى الشتاء ، ولىكونه بارد فى الصىف لآنه  
بىجانب النافذة . ولىكننى كنت فى ذلك الوقت فى غاية القلاق بىخصوص معاطر  
فصلى عن اسرتى ، فلم انتبه لهذه التصرفات الموحىة بالاحترام . ولىست ،  
ولىكن السرىر الخشبى بدا قاسىا اكثرا من المعتاد ، لذلك نهضت وشرعت  
اخطو جىئة وذهابا . وعندها خطرت فى ذهنى فكرة ، فذهبت وطرقت باب  
الززانة ، فرد السىجان القصىر الممتلىئ :

— من هذا ؟

— هل لى ان اسألك يا سىد ان كان بوسعى ان اتحدث مع مالىر السىجن ؟

— حول ماذا ؟

— ارىد ان اوضح له اننى لم افصل عن اقربائى قبل ذلك قط ، واننى  
غىر معتاد على ذلك مطلقا .

ففىز رأسه وطلب منى ان انتظر وبعدها بقلىل عاد لىخبرنى بأن مالىر السىجن  
قد سمح لى بالعودة الى ززانتى السابقة . فسررت بذلك ، وجمعت فراشى  
بىنما حمل لى السىجان حقىبة ملابسى . وفى الممشى قابلت المالىر ، فقال :

— انطلاقا من تقدىركم معشر كبار السن قررت السلطات ان تقدم  
لكم طعاما من مستوى اعلى . لقد رأىنا انك اذا اقامت مع اقربائك وتناولت  
طعاما مختلفا ، فان هذا سىترك اثرا سىئا علىهم ، لذلك . . .



وعرفت ماذا يفكر فيه فقاطعته دون ان انتظر حتى ينهى كلامه ، فقلت :  
— هذا لا يهم . اننى استطيع ان اضمن ان هذا لن يترك عليهم اى  
اثر سيئ .

وكنيت على وشيك ان اقول : ” انهم قد اعتادوا على ذلك . “  
فابتسم المدير قائلاً :  
— ان افكارك بسيطة جدا . أ لم تفكر ابدا بأن عليك ان تتعلم العناية  
بنفسك ؟

— بلى ، بلى . ولكن يجب ان اتعلم تدريجيا وخطوة خطوة :  
فقال المدير مع هزة من رأسه :  
— حسن جدا ، ابدأ فى التعلم اذن .  
وعندما عدت الى زنزانتي السابقة شعرت اننى قد فارقتها منذ ستة . وسروا  
جميعا برؤيتى . واخبرتهم بما قاله المدير بشأن تعلمي الاعتناء بنفسى .  
فابتهج كل واحد منهم حيث استنتج من هذا ان الحكومة ليست مستعجلة  
فى محاسبتنا .  
لكنهم لم يتركونى اتدرب على الاعتناء بنفسى ، كما لم يكن عندى  
ميل مطلقا الى فعل ذلك . وانشغلت بالمعنى المتضمن فى حديث المدير  
بأننا سننفصل فيما بعد ، واخذت افكر فى طريقة ما لمنع حدوث ذلك .  
ولكن بعد عشرة ايام ، قبل ان اجد حلا لهذه المشكلة ، طلب منى السجنان  
ان احزم امتعتى .

وبينما جمع روى الصغير اشيائى انتهزت الفرصة لاصدار بعض التعليمات  
لأقربائى . ولم استطع ان افعل ذلك بالكلام خوفا من ان يسمعى السجنان ،  
فكتبت مذكرة الى بوجيه ليمررها على الآخرين . ونظرا الى ان هناك غريبين فى  
الزنزانة وهما موظفان سابقان فى حكومة وانغ جينغ وى العميلة فقد اضطرت  
الى ان اجعل المعلومات غامضة نوعا ما . فكتبت اننا قد انسجمنا مع بعضنا

انسجما جيدا بحيث يجب ان نستمر اوفياء مساندين لبعضنا بعضا بعد ان اغادر ، واننى اشعر باهتمام شديد بكل منهم . ورجوت ان يفهموا ان ما قصدته حقا ضرورة مراقبتهم لكلماتهم .

وحمل ابناء اشقائى امتعتى واخذونى الى الزنزانة التى انتقلت اليها فى المرة السابقة . وهناك قدم لى نفس السرير الجيد ، ومرة اخرى لم استطع ان اجلس ساكنا . فأخذت اخطو جيئة وذهابا ، ثم طرقت الباب ثانية .

ففتح لى نفس السجان الممتلىء الجسم . وعرفت عندها انه يدعى ليو ، وشعرت نحوه بمودة لأنه جلب لنا المزيد من الباوتسى ( اكر من العجين المطبوخ على البخار محشوة باللحم المفروم ) عندما رأى مدى استمتاعنا بهذا الطعام لدى تناولنا اياه اول مرة منذ بضعة ايام .

— يا سيد ليو عندى مسألة .

— هل تريد رؤية المدير ؟

— اريد ان اناقشك بالامر اولاً . اننى . . . اننى . . .

فقال ضاحكا :

— أ لم تعتد ذلك بعد ؟

وخيل الى اننى اسمع الآخرين خلفى يضحكون . فاحمر وجهى خجلا ، وحاولت ان اشرح له :

— ليس الامر اننى اريد ان اعود الى زنزانتى السابقة ، بل اتساءل ان كان يسمح لى برؤية افراد اسرتى مرة فى اليوم . اننى سأشعر بمزيد من السرور اذا استطعت تحقيق ذلك .

— أ لن تكون قادرا على رؤيتهم عندما تخرج للرياضة فى الفناء ؟ ليست هناك مشكلة .

— افضل ان اكون قادرا على التحدث اليهم . فهل يسمح المدير بذلك ؟ وكان هناك نظام لا يسمح لتزلاء الزنزانات المختلفة بمحادثة بعضهم

بعضاً .

- سأسأل لك .

ومنحت هذا الأذن ، ومنذ ذلك الحين أصبحت قادراً على التكلم مع افراد اسرتى كل يوم . واخبرنى بعض ابناء اشقائى بما حدث فى زنازاتهم وبما قالته السلطات لهم . وظل قو الصغير يبدو غير قلق ، اما شيو الصغير فظل كسابق عهده ، واستمر روى الصغير فى غسل ملابسى واصلاح جواربى . وبرزت لى مشكلات جديدة بعد حل مشكلتى المقلقة السابقة . خلال السنوات الاربعين الماضية ، اننى لم اطو لحافى مطلقاً ولم ارتب سريرى او اصب الماء الذى اغسل به ولم اغسل قدمى او اربط حذائى قط . كما لم ألمس مغرفة الارز او السكين او المقصى او الابرّة او الخيط ، لذلك أصبحت الآن ، وقد تعين على ان اعتنى بنفسى ، فى وضع حرج جدا . فعندما يكون الآخرون قد غسلوا انفسهم فى الصباح كنت انا قد لبست ثيابى فقط . وعندما انتهى لأن اغسل يذكرنى شخص ما بأننى يجب ان اطوى لحافى اولاً ؛ وفى الوقت الذى اكون قد طويت لحافى على شكل صرة غير مرتبة يكون كل شخص قد انتهى من الغسيل . وعندما اضع فرشاة الاسنان فى فمى اكتشف انها خالية من المسحوق ، وبعد ان انتهى من تنظيف اسنانى يكون الآخرون قد شرعوا او اوشكوا على انتهاء فطورهم . وهكذا كانت الامور تمضى طوال اليوم .

ان كونى ابطأ من الآخرين لم يكن اسوأ من ضحك الناس من ورائى . فرملائى فى الزنازاة كانوا جميعاً من ضباط ” امبراطورية منشوريا “ السابقين الذين لم يجرؤوا ابداً على رفع رؤوسهم امامى فى الايام السابقة ؛ وعندما جئت الى الزنازاة فى البداية ، لم يغامروا فى مخاطبتى بكلمة ” انت “ ، فكانوا اما ان ينادونى بكلمة ” سيد “ او ان يتجنبوا استخدام كلمات المخطاب لى تحدثهم معى . ولكننى وجدت الآن ان من الصعب تحمل ضحكهم

المكبوت :

ولكن هذا لم يكن اسوأ ما فى الامر . ففى يومنا الاول فى فوشون وضع جدول الخدمات لكل زنزانة لتؤديها بالتناوب وهى تكنيس الارض ومسح الطاولة وتفريغ المبة . وانا لم افعل ايا من هذه الواجبات عندما كنت فى زنزانتى السابقة ، ولكن المشكلة التى واجهتنى الآن هى ماذا افعل عندما يأتى دورى . هل سأفرغ مبة الآخرين ؟ وشعرت بأن هذا الامر اتعس من تلك الاتفاقية السرية بين ”امباطورية منشوريا“ واليابان : ورأيت اننى سأحط من شأن اسلافى والحق الخزى بصغار عشيرتى . ومن حسن الحظ ان جاء احد المسؤولين فى السجن فى اليوم التالى وقال للجميع اننى مريض ولا أستطيع ان اقوم بدورى كالبقية . وسررت كثيرا كأنى انقذت من موت مؤكد ، وشعرت بالامتنان للمرة الاولى فى حياتى .

ومع زوال هذا الخطر ظهر خطر آخر . كان المدير يظهر عادة عندما نكون فى رياضتنا بعد الظهر فى الباحة . وكان دائما ما يتحدث مع احدها ونحن نقوم بالرياضة ، وهذه المرة بدا انه قد اختارنى ، فقد نظر الى من الاعلى الى الاسفل ، ولا بد انه رأى ذعرى . فنادى :

— بو يى !

لم يسبق لى ان نوديت باسمى الشخصى قط قبل عودتى الى الصين ، لذلك كنت ما ازال غير معتاد سماعه . وفضلت ان ينادينى الناس برقمى ( ٩٨١ ) كما كان يفعل السجنانون فى بداية وصولنا الى فوشون . وقلت وانا اتقدم نحوه :

— نعم ايها المدير .

فقال بصوت هادئ ودود :

— لقد وزعت عليك ملابس مثل ملابس الآخرين ، فلماذا لا تبدو

مثلهم ؟

فقطرت الى ثيابى ثم الى الآخرين . كانت ثيابهم نظيفة مرتبة بينما

ثيابى مجمعة وسخة : وكان احد جيوبى نصف مهترئ ؛ وكان هناك زر مقطوع فى سترتى ؛ وبقعة حبر على ركبتى ؛ وبدت ساقا بنطاونى مختلفتين فى الطول ؛ وحذائى ليس فيه الا رباط ونصف . فتمتمت قائلا :

— سأرتب نفسى . عندما اعود سأصلح جيوبى واخيط زرا جديدا لسترتى .  
فسألنى وعلى وجهه طيف ابتسامة :

— كيف تجعلت ملابسك هكذا ؟ عليك ان تنتبه الى الآخرين وهم يقومون بأعمالهم . اذا كنت قادرا على تعلم الاشياء الجيدة من الآخرين فستستطيع ان تحرز تقدما .

ومع ان المدير قد كلمنى بلطف الا اننى غضبت غضبا شديدا . فهذه هى المرة الاولى التى تكشف فيها عدم كفاءتى علنا ، وانها المرة الاولى التى اظهر فيها امام اعين الناس ليس كصورة للمهابة بل كـ ” نفاية “ . واستدرت متجنبنا تحديق ” وزرائى “ و ” ضباطى “ السابقين ، متمنيا ان يخيم الظلام . وقلت فى نفسى بتعاسة : ” انهم يريدون ان يستخدمونى عينة لكل فرد فى الدراسة . “ ونظرت الى السور الرمادى العالى . ان حياتى كلها قد امضيتها محاطا بأسوار ، ولكننى فى الماضى كنت اعامل باحترام واتمتع بين الآخرين بمركز خاص داخلها ، حتى فى تشانغتشون . ولكن داخل هذه الاسوار كل شىء قد تغير . لقد عوملت تماما كأى شخص آخر ، بل واجهت صعوبة فى العيش . اننى لست تعيشا بسبب عدم كفاءتى ولكن بسبب ان الآخرين اعتبرونى غير كفء ، وكذلك بسبب فقدى لحقى الطبيعى فى ان يخدمنى الآخرون . والامتنان الذى شعرت به لاعفائى من خدمات الزنانة قد تلاشى نهائيا .

وفى تلك الليلة اكتشفت انه عندما يخلع الآخرون ثيابهم للنوم فانهم يطوونها على نحو مرتب ويضعونها تحت وسائدهم ، بينما كنت اقومها تحت قدمى حين اخلعها . وبدا لى ان فى ملاحظات المدير شيئا من الرواجاة .

لو عرفت كيف اتعلم الاشياء الجيدة من الآخرين لما كنت فى وضع تعيس  
كما انا فيه الآن . لماذا لم يخبرنى زملائى السجناء بهذا من قبل ؟ اية خيانة  
هذه !

كان اولئك الضباط العملاء ما يزالون فى الواقع مكبوتين بتصرفى المتعجرف ،  
لذلك لم يشيروا الى بشىء من هذا .  
امضينا شهرين فى فوشون ، وفى نهاية اكتوبر نقلنا جميعا الى هاربين .

## الانتقال الى هاربين

احب بضعة شبان بيننا الثثرة فى القطار الى هاربين ، كما رغبوا فى لعب  
الورق مع السجنائين ، بينما لم يتكلم بقيتنا الا القليل وبمتهى الهدوء . وكان  
الجو فى العربة كثيبا معظم الوقت ولم يكن قليلا بيننا من لم يستطع النوم  
ليلا او الاكل نهارا . ومع اننى لم اكن مدعورا كما كنت عند عودتى فى  
البداية الى الصين ، الا اننى كنت قلقا اكثر من اى شخص آخر . كان ذلك  
بعد وقت قصير من اقتراب قوات الولايات المتحدة الامريكية من نهر يالو  
ودخول متطوعى الشعب الصينى الى كوريا . وذات ليلة لم استطع انا وبو  
جيه ان ننام ، فسألته بهدوء عن رأيه فى الوضع العسكرى . فأجاب بصوت  
فاتر : ” ان دخول الحرب طلب للمتاعب . سنتهى فى لمح البصر . “  
ففهمت من ذلك ان الصين ستهزم وان القوات الامريكية ستحتل الشمال الشرقى  
على الاقل ، وان الشيوعيين ايضا يمكن ان يجهزوا على جماعتنا ليمنعونا من  
الوقوع فى ايديهم . واكتشفت فيما بعد ان هذا هو ما كنا نفكر فيه نحن السجناء  
جميعا حينذاك .

واشتد يأسى عندما رأيت السجن فى هاربين . لقد كان سجننا سابقا  
لحكومة ” امبراطورية منشوريا “ . وجعلنى مرآه ادرك ما المقصود من ان

يعامل المرء كما يعامل غيره . لقد خصصه اليابانيون لسجن الناس الذين ارتكبوا ذنب القيام بـ ” النشاطات المعادية لامبراطورية منشوريا واليابانيين “ . كان مؤلفا من طائفتين على شكل مروحة وفيه صفوف من الزنانات وبرج مراقبة في الوسط . وكانت هناك مصبغة من القضبان الحديدية بقطر انش امام الزنانات وخلفها ، وكانت الزنانات مفصولة عن بعضها بجدران من الخرسانة ، وتوسع كل واحدة منها لسبعة او ثمانية افراد . ولم تكن زنانتى مزدحمة نسبيا ، فليس فيها الا نحن الخمسة ، ولكن نظرا الى انها صممت وفقا للاستلاب الياباني ، فقد اضطررنا الى النوم على حصر مفروشة على الارض . وقد امضيت في هذا المكان ستين تقريبا ، وسمعت انه هدم فيما بعد . ومع اننى لم اعرف ، عند اول اقامتى هنا ، ان قلة من الذين كانوا محتجزين هنا خلال فترة ” امبراطورية منشوريا “ قد بقوا على قيد الحياة ، الا ان صوت فتح او اغلاق البوابات الحديدية كان كافيا لأتحمله . لقد جعلتنى هذه الضجة افكر دائما فى التعذيب وفى زمرة مطلقى الرصاص على المحكومين بالاعدام . وعوملنا هنا كما كنا نعامل فى فوشون . فالسجانون لطفاء ، والطعام جيد ، والصحف والاستماع الى المذياع والاستجمام استمرت كالسابق . واراخنى هذا الى حد كبير ، ولكنه لم يستطع ان يهدئنى تماما . واذكر كيف كان صوت صفارة الانذار التدريبية الحزين ينفذ الى اعماق رأسى ذات ليلة وظل كذلك وقتا طويلا بعد توقفه حقا . وقبل ان اصدق ان القوات الشعبية الصينية والكورية ماضية حقا فى كسب الانتصارات فى كوريا ، اقتنعت بأنه حتى اذا لم يقتلنى الصينيون فاننى سأموت فى غارة جوية امريكية . وكنت متأكدا من ان الصين ستهزم مهما حدث واننى سأموت .

واذكر بوضوح انه لم يصدق احد منا اخبار الصحيفة عن الانتصار الاول الذى احرزه متطوعو الشعب الصينى على الجبهة الكورية ؛ واننا كنا متشككين جدا فى الاخبار التى تقول ان القوات الشعبية الصينية والكورية

قد صدت الامريكان فى الحملة الناجحة الثانية الى القرب من الخط ٣٨ ٥  
وبعد فترة من الوقت تلت عيد رأس السنة لعام ١٩٥١ قرأ علينا احد الكوادر  
الاداريين بيانا بأن القوات الصينية والكورية قد استولت على سيئول ، فدوى  
التصفيق فى كافة الزنانات . وعندها فقط صدقت نصف تصديق . وعندما  
اعلنت فى الصحف ” انظمة معاقبة المعادين للثورة “ فى فبراير ذلك العام ،  
اوقفنا سلطات السجن عن قراءة الصحف خوفا من ان نصاب بالدعر ٥  
ولكننا لم نعرف ذلك ، بل ظننا ان السبب لا بد ان يكون الهزائم فى كوريا ٥  
واصبحت اكثر شكا من السابق فى الانتصارات الاولى ، وايقنت ان هلاكي  
قد اصبح وشيكا .

استيقظت مرة فى منتصف الليل على صوت البوابات الحديد ، ورأيت  
بضعة رجال يخرجون احد السجناء من الزنانة المجاورة . فبدأت ارتجف كليا ،  
مقتنعا بأن القوات الامريكية تقترب من هاربين وان الشيوعيين سيتخلصون  
منا اخيرا . وبعد قضاء ليلة مضنية وجدت فى الصباح اننى كنت مخطئا تماما ٥  
فما حدث هو ان احد الرجال فى الزنانة المجاورة قد تعب كثيرا من فتح اصابه ،  
فأبلغ السجن المدير بذلك ، فعاجب طبيبيا عسكريا وممرضات لفحص المريض .  
ورأيتهم يأخذونه الى المستشفى ، ولكننى كنت مرعوبا بحيث لم اشاهد الا  
سراويلاتهم العسكرية ولم افلح فى ملاحظة مآزرهم البيضاء .

على ان هذا لم يجلب لى كثيرا من الطمأنينة . فقد ظلت اظن مع كل  
عربة اسمعها قادمة انها جاءت لتأخذنى الى محكمة علنية . وبقيت طوال  
النهار اراقب واصغى لكل شىء يمر خارج القضبان الحديد ، وغالبا ما كنت  
ارى احلاما مروعة فى الليل . ولم يكن زملائى فى الزنانة احسن حالا منى  
بكثير فشبهتهم للطعام كان تنضال كشيئى ومعنوياتهم تهبط . وكلما كنا  
سمعنا ضجة على السلم ندير رؤوسنا للنظر ، واذا ظهر غريب يخيم الصمت  
على الزنانات كأنما نواجه جميعا حكمنا الاخير . ولكن عندما اصبحتنا جميعا



في ذروة اليأس منحنا املا جديدا من خلال حديث ادلى به الينا مسؤول في الامن نيابة عن الحكومة .

وقف مسؤول الامن امام برج المراقبة وخاطب جميع الزنانات مدة ساعة تقريبا . فأخبرنا بأن الحكومة لا تقصد قتلنا ، بل تريدنا ان نختبر انفسنا وندرس ، وبذلك نعيد بناء انفسنا . وقال ان الحزب الشيوعي والحكومة الشعبية تعتقدان بأن اكثرية المجرمين يستطيعون تحت السلطة السياسية الشعبية ان يعيدوا بناء انفسهم ويتحولوا الى اناس جدد . وقال ان المثل الاعلى للشيوعية هو اعادة صياغة العالم ، وانه من اجل تحقيق هذا الهدف فان من الضروري في البداية اعادة بناء البشرية . وعندما انتهى من حديثه تكلم مدير السجن . واذكر ان خطابه قد اشتمل على مقطع ورد على هذا النحو تقريبا :

” انكم لا تفكرون الا في الموت ، وتتخيلون ان كل شيء هو جزء من الاستعدادات لموتكم . لماذا لا تسألون انفسكم هذا السؤال : لماذا تطلب منكم الحكومة الشعبية ان تدرسوا اذا كانت تخطط لموتكم ؟

” ان لديكم كثيرا من الافكار الغريبة عن الحرب الكورية : ربما يظن بعضكم ان منطوى الشعب لا يستطيعون ضرب القوات الامريكية وان الامريكيين سيغزون الشمال الشرقي لا محالة ، لذلك تخشون ان يقتلكم الشيوعيون اولا . وقد يكون لدى بعضكم اعتقاد اعمى بقوة الولايات المتحدة الامريكية ويعتقد بأنها لا تقهر . فلاؤكد لكم بأن الشغبين الصينى والكورى قادران حتما على هزيمة الامبريالية الامريكية ، وان سياسة الحزب الشيوعي الصينى في اعادة بناء المجرمين سوف تنجح بلا ريب . وقد اثبتت الحقائق ان الحزب الشيوعي لا يصدر ادعاءات فارغة .

” ربما نقولون اننا اذا كنا لن نقتلكم فان من الخير ان ندعكم تغادرون . لا ، ان هذا لا يستقيم . اذا نحن اطلقنا سراحكم قبل ان يعاد بناؤكم ، فانكم قد تتركبون جرائم اخرى وعلى اية حال فان الشعب لن يوافق ولن

يصفح عنكم عندما يراكم . لذلك يجب ان تدرسوا على نحو جاد وتعيدوا بناء انفسكم . ”

وعلى الرغم من اننى لم افهم او لم اصدق كل هذا الكلام ، الا اننى رأيت ان هناك مسوغات تبرر ان الحكومة لا تريد قتلنا . وهذا كان التفسير الممكن الوحيد للدافع وراء توسيعهم حمامنا فى فوشون واناذهبهم حياة المريض ، وتقديمهم طعاما خاصا لكبار السن منا .

وفيما بعد اكتشفت ان اشياء كهذه لم تكن غير اعتيادية فى سجون الصين الجديدة ، ولكنها فى ذلك الوقت بدت غريبة جدا بالنسبة الينا ، واعتبرناها علامات للتقدير الخاص . لذلك عندما سمعنا موظفى الحكومة هؤلاء يخبروننا رسميا بأن الحكومة لا تريد ابادتنا ، شعرنا حالا بالمزيد من الطمأنينة . لم يتبته اى منا الى الاشارات الخاصة بالدراسة واعادة بناء انفسنا . وظننت اننا قد اعطينا كتبنا وصحفا لتمضية وقتنا ولابعادنا عن الافكار السيئة . وبدا مضحكا بالنسبة لى ان قراءة بضعة كتب يمكن ان تغير تفكير المرء . بل وكنت على اقل استعداد للاعتقاد بأن القوات المسلحة الامريكية يمكن ان تهزم . وقد اجمع الضباط السابقون الاربعة فى زناتنى ، والذين اعتبروا انفسهم خبراء عسكريين ، على ان امريكا ما تزال قادرة على السيطرة على الكرة الارضية بأسلحتها التقليدية حتى وان لم تكن لها المجرأة على ان تهزأ بالرأى العام العالمى وتستخدم القنابل الذرية ، ان قوتها لا تضاهى ، وان من السخافة القول بأنها يمكن ان تهزم . لكننا ادركنا فيما بعد ان الشيوعيين ليسوا من النمط الذى يتكلم كلاما سخيفا ، وقبل ان يمضى وقت طويل بدأنا نلاحظ ان الاخبار بخصوص كوريا لم تكن مزيفة . واخبرنى زملائى العسكريون فى الزناتنة انه بينما عدد الاصابات يمكن ان يخترع اختراعا من الجانبين ، الا ان من الصعب جدا الاستمرار فى الكذب بخصوص الاراضى التى تكسب او تفقد . كما ان الخبر الذى يفيد بأن القائد العام الامريكى يرغب

فى اجراء محادثات كان اصعب من ان يخترع اختراعا . فاذا كانت القوات الامريكية راغبة فى التباحث بشأن وقف اطلاق النار ، فكيف يمكن ان تكون متصفة بأنها لا تقهر ؟ لقد كان الضباط السابقون فى حيرة من امرهم ، وكذلك كنت انا .

ان تطور الحرب الكورية قد بين مدى خطأ توقعاتنا السابقة واثبت ان امريكا لم تكن نمرا حقيقيا بل نمرا من ورق. وشعرت الآن بمزيد من الطمأنينة ، لأنه اذا لم يكن الشيوعيون مهزومين ، فانهم لن يكون متعجلين كثيرا فى التخلص منا .

واصبحت الآن دراساتنا التى كانت فى السابق تجرى كيفما اتفق يديرها كادر من سلطات السجن . وقد القى علينا حديثا حول المجتمع الاقطاعى ، ثم تركنا نناقش هذا الموضوع . واضطررنا جميعا الى كتابة ملاحظات . وذات يوم قال لنا هذا الكادر : ” لقد سبق ان قلت انكم حتى تتمكنوا من اصلاح تفكيركم ، عليكم ان تفهموا اى نوع من الايدولوجية كانت لديكم . ان ايدولوجيتكم لا تنفصل عن خلفيتكم وتاريخكم الشخصيين ، لذلك يجب ان تبدأوا بفحصهما . ومن اجل اصلاح تفكيركم ينبغى لكل منكم ان يكتب سيرته الذاتية . “

وبدا هذا الامر بالنسبة لى كأنه حيلة لجعلى اكتب اعترافا . ترى هل سيقدم الشيوعيون على الاجهاز علينا بعد ان استقر الوضع العسكرى ؟

## كتابة سيرتى الذاتية وتقديم اختتامى

لقد اعتبرت كتابتى لسيرتى الذاتية مقدمة لمحاكمتى ، وصممت على ان اكرس معظم هذه الفرصة لانقاذ حياتى ، وعرفت اى خط سأسلك . عندما نزلنا من الشاحنات واصبحنا على وشك دخول سجن هارين همس قو الصغير

فى اذنى : ” اذا سألونا اى سؤال فستمسك بنفس القصة التى استخدمناها فى الاتحاد السوفياتى . “ فبرزت رأسى موافقا .

وقد غطت هذه القصة تعاونى مع العدو وصورتى كوطنى برىء جيد . وادركت اننى يجب ان اكون اكثر حذرا هنا مما كنت عليه فى الاتحاد السوفياتى وألا اترك ولو ثغرة .

وتكلم قو الصغير نيابة عن جميع ابناء اشقائى ومرافقى الشخصى لى الكبير . وهذا يعنى انهم كانوا مستعدين لمساعدتى واوفياء لى كالسابق . ولكن الولاء لى يكفى لمنع حدوث ثغرات ؛ فأعطيتهم المزيد من التعليمات ولاسيما لى الكبير ، وكان الشاهد على القسم الرئيسى من قصتى — كيف ذهب من تيانجين الى الشمال الشرقى .

لم استطع التكلم مع لى الكبير الا فى فترات الراحة عندما كان مسموحا لى برؤية افراد اسرتى . اما المجرمون الاصغر سنا ، ومن بينهم جميع افراد اسرتى ( عدا رونج يوان الذى كان قد مات و ” طبيبى الامبراطورى “ الدكتور هونغ الذى كان مريضا ) فقد بدأوا الآن القيام بأعمال كنقل الماء وتقديم الطعام والمساعدة فى اعمال المطبخ . ولم يكن من السهل جدا على ان اراهم جميعا على ما هم عليه . ولكن هذا التطور الجديد كان له فوائده ، اذ مكنتهم ذلك من التحرك بحرية نوعا ما وتسريب الرسائل لى . وارسلت فى طلب لى الكبير وذكرته بألا يقول شيئا عن كيفية مغادرتى لتيانجين ، وأنه لم يزد على ان حزم امتعتى بناء على تعليمات هو سى يوان بعد ان غادرت . فبرز لى الكبير رأسه ليرينى انه فهم ، ثم انصرف .

وفى اليوم التالى سرب روى الصغير رسالة الى من لى الكبير . البارحة مساء كان يتحدث مع جيا ، احد كوادر السجن ، واخبره اننى فى الشمال الشرقى قد عاملت المرؤوسين عندى بلطف كبير ولم اهتم او اضرب ايا منهم ؛ واننى عندما كنت فى ليويشون اغلقت بابى ورفضت رؤية

اليابانيين . فذعرت من هذا الكلام : لماذا ذكر ليويشون ؟ وطلبت من روى الصغير ان يخبره بالألا يقول الكثير ، وان يتظاهر بأنه لا يعرف شيئا عما حدث فى ليويشون .

وبعد ان طمأنت نفسى بوفاء لى الكبير واصدرت تعليمات لأبناء اشقائى ، بدأت اكتب سيرتى الذاتية . فوصفت خلفية اسرتى وطفولتى فى المدينة المحرمة . وقلت اننى قد اجبرت على الذهاب الى المفوضية اليابانية ، واصررت على اننى بقيت بعيدا عن المعترك السياسى وانا فى تيانجين ؛ وتمسكت بالقصة التى تقول اننى اختطفتم وعشت حياة تعيسة فى تشانغشون وانتهيت الى القول :

عندما رأيت معاناة الشعب ولم استطع ان افعل شيئا لمساعدته استبد بى الحزن . وتمنيت ان تشق القوات الصينية طريقها الى الشمال الشرقى واشتقت الى حدوث بعض التطورات الدولية التى تمكن الشمال الشرقى من تحقيق تحرره ، وقد تحقق هذا الامل اخيرا عام ١٩٤٥ .

وبعد ان راجعت ما كتبت مراجعة دقيقة كتبت نسخة اخرى نظيفة وسلمتها . واعتقدت بأنها ستقنع اى قارئ اننى تبت توبة كاملة . بعد ان سلمت سيرتى الذاتية حاولت التفكير فى طريقة اخرى لاقناع الحكومة بـ ” اخلاصى ” و ” تقدمى ” . وهن الواضح انه لم يكن كافيا ان اجعل لى الكبير والآخرين يمتدحوننى ، فقد احتجت الى بعض الانجازات العملية . ولكن منجزاتى منذ بدأت آخذ دورى فى خدمات الزنزانة لم ترضينى ، ناهيك عن ارضاء سلطات السجن .

وبعد سماع خطابات مسؤول الامن ومدير السجن اخذنا جميعنا نفكر فى طريقة لظهار كيفية رفعنا ” وعينا السياسى ” آمالين ان نستطيع بهذه الطريقة انقاذ حياتنا . ويبدو الامر مضحكا الآن ، ولكننا ظننا حينذاك ان

النفاق الفعال سوف يخدع الحكومة . وما كان يحزننى جدا فى ذلك الوقت الذى كنت فيه نهبا لهذا الوهم ، هو عجزى عن تأدية عرض جيد كالآخرين . وحاولنا جميعا كسب ثقة سلطات السجن من خلال الدراسة وقيامنا بأداء خدماتنا ومن خلال حياتنا اليومية . وكان عضو مجموعتنا الذى كانت "منجزاته" فى الدراسة من ابرز المنجزات هو رئيس مجموعتنا ، لاو وانغ ، وهو لواء سابق فى "امبراطورية منشوريا" . كان قد درس القانون فى بكين بضع سنوات . لقد حفظ بوصفه اكثرنا ثقافة المصطلحات الايدولوجية الجديدة بسرعة . اما الضباط الثلاثة الآخرون فقد وجدوا مثلى ان من الصعب تمييز الفرق بين "الدائى" و"الموضوعى" ، ولكنهم احرزوا "تقدما" اكثر منى . فقد كان لديهم دائما ما يقولونه فى المناقشات . واسوأ ما فى الامر ان كلا منا كان ملزما بكتابة مقالة يشرح فيها بأسلوبه ما تعلمه من طبيعة المجتمع الاقطاعى . واستطعت ان اهيبئ الامر لقول شىء فى المناقشات ، ولكن الكتابة كانت اكثر صعوبة . ولم ار اهمية كبيرة فى الدراسة ، واخلقتنى شروح الاقطاعية التى قرأتها فى الكتب . فمثلا اذا كان الامبراطور كبير ملاك الاراضى فلا بد من الحكم على بسبب ذلك وكذلك بسبب خيانتى للوطن . وقد اربعتنى هذه الفكرة كثيرا بحيث وجدت صعوبة فى كتابة ولو كلمة واحدة . وعندما جمعت اخيرا بعض الاجزاء الى بعضها عن طريق انتحال مقاطع من هنا وهناك رأيت انها ليست جيدة كتلك التى لدى الآخرين . وبدا واضحا ان منجزاتى فى الدراسة لن ترضى السلطات . وكان الدليل الوحيد الذى اظهرته لتقدمى هو ان آخذ دورى فى خدمات الزنزانة بعد الانتقال الى هاربين . وهذا كان اسهل بسبب وجود مراحض فى زوايا الزنانات ، لذلك لم تكن هناك مشكلة فى تفريغ المبال . وكان العمل خفيفا بما فيه الكفاية ، يتألف فقط من تلقى الوجبات الثلاث والماء الساخن الذى كان يرسل الينا كل يوم ومسح الحصران . وكانت هذه هى

المرّة الأولى التي خدمت فيها الآخرين ، وقد اضطربت الأمور عندما سكبت شيئاً من حساء الخضار على رأس أحد الموجودين . ومن ذلك الحين بدأ يساعدني شخص عندما يأتي دوري ، مدفوعاً بالطف نوعاً ما ولتجنب انسكاب الحساء مرة أخرى .

كانت ثيابي ملهبطّة كالسابق واستمر روى الصغير في غسلها واصلاحها لي . وقد اربكني هذا ، ولكن عندما حاولت ان اقوم بغسل ثيابي بنفسى بعد ان تكلم معى مدير السجن في فوشون بلت نفسى بالماء دون ان اجيد من استخدام الصابون وخشبة الغسيل . وبعد تسليمى سيرتى الذاتية بوقت قصير قررت ان اقوم بمحاولة ثانية لأقوم بغسل ثيابي بنفسى كى امنع السلطات من ان يئسوا منى . وغسلت قميصاً ابيض ، ولكن عندما نشف بدا شكله اقرب الى رسم مائى من اى شىء آخر ، فأخذه روى الصغير هامساً الى بأن هذا ليس بالعمل الذى يقوم به الـ ” فوق “ . فوافقته فى الرأى قادحاً زناد فكرى لايجاد طريقة اخرى اترك بها انطبعا حسناً لدى السلطات .

وفيما كنت اخطو ذهاباً وإياباً سمعت احد زوجى شقيقى وهو لاو وان ، وبعض زملائه فى زنراته يتحدثون عن التبرعات التى تقوم بها كافة قطاعات الشعب الصينى لشراء طائرات ومدافع ثقيلة للحرب الكورية . ولم يكن مسموحاً لنا بالتحدث مع السجناء فى زنرات اخرى ، ولكن لم يكن هناك ما يوقفنا عن الاستماع الى حديثهم . وكان احدهم وزيراً سابقاً فى ”امبراطورية منشوريا“ ، وقد تبرأ منه ابنه الذى كان حينذاك ، بحسب اعتقاده ، يقاتل فى كوريا . وقد قال انه سيتبرع بممتلكاته للحرب الكورية اذا لم تكن قد صودرت . فضحك الآخرون منه لتفكيره فى انه يمكن ان تكون ممتلكاته ما تزال لديه او ان ابنه يمكن ان يكون قد سمح له بأن يقاتل ؛ ثم قال احدهم بأن الوحيدين بيننا اللذين تستأثر ممتلكاتهما بالاهتمام هما الامبراطور ورئيس الوزراء السابق .

فنبهني هذا الامر . حقيقة كان لدى من المجوهرات اكثر من الآخرين بكثير . فعندى ، سوى الاشياء المخبوة فى اسفل حقيبة ملابسى ، بعض الاشياء البالغة القيمة مما لم اخفيه . ومن بين ذلك طقم من ثلاثة اختام لا تقدر قيمتها منقوشة بكل عناية من ثلاث قطع مترابطة ، كان قد صنع للاميراطور تشيان لونغ بعد ان تقاعد عن العرش . فقررت ان اسلم هذه الاشياء برهانا على ”وعىى السياسى“ .

وحاول بعض السجناء الانضمام الى متطوعى الشعب الصينى للقتال فى كوريا . وعندما رفضت طلباتهم احسست بالغيرة لهذه الطريقة التى ابدوا منها ”وعىهم السياسى“ دون اية خطورة جدية لحقت بهم . وقررت ألا اتخلف هذه المرة . ومن حسن الحظ ان موظفا حكوميا جاء فى جولة تفتيشية فى ذلك اليوم . وعندما رأيته قادما عرفت انه الرجل الذى طلب منى الا ابقى ونحن فى شينانغ . واستطعت ان ابين من سلوك مدير السجن الذى كان يرافقه ان هذا الرجل اعلى منه مركزا . ورأيت انه سيكون اكثر فاعلية ان اقدم اشيائى الى هذا الموظف الكبير . وعندما دخل ززانتنا انحنيت انحناء شديدة وقلت :

— اود ان اعلن يا سيدى اننى ارجب فى تقديم هذا الشىء الى الحكومة الشعبية .

فلم يأخذه بل هز رأسه وقال :

— أ لست بو يى ؟ من الافضل ان تناقش هذا الامر مع سلطات السجن .

ثم سألتنى بضعة اسئلة اخرى وانصرف . وقلت فى نفسى لو انه القى نظرة جيدة على اختامى لما بدا غير مبالى بها الى هذا الحد . وعندئذ كتبت رسالة الى سلطات السجن وسلمتها الى السجن ليو سويا مع الاختام .

وبقيت عدة ايام لم اسمع خلالها شيئا عن الاختام ، وبدأت اشك



فى ان يكون السجنان قد سرقتها . وذات مساء ، عندما كان الآخرون يلعبون الشطرنج او الورق ، كنت مكثبا بخصوص الاختتام ومقنعا بأن شكوكى فى محلها . وفى تلك اللحظة تماما وقف السجنان الممتأئ الجسم خارج الزنزانة وسألنى لماذا لا ألعب الورق كالآخريـن . وعندما اخبرته بأننى لا استطيع ، وهذه حقيقة ، انطلق فأحضر ورق لعب ، ثم جلس فى الجانب الآخر من القضبان الحديدية وخلط الورق . وكنت فى تلك الاثناء اكرهه . وقال وهو يخلطها :

— اننى متأكد من انك ستستطيع تعلم اللعب . فأنت عندما تصبح انسانا جديدا وتبدأ حياة جديدة لن تجد الكثير من التسلية اذا انت لم تمتع نفسك .

فذهلت لنفاقه . وعندما جاء سجان آخر مدخن غليونا واعطى احد زملائى فى الزنزانة شيئا من تبغه لكى يلف منه سيجارة ، اقتنعت بأن جميع السجنان يحاولون ان يخدعونا . ولكننى لن اخدع . ولكن الذى كان يحاول خداع الآخريـن فى الواقع هو انا . فبعد ذلك بوقت قصير قال لى المدير وانا فى فناء السجن :

— لقد رأيت رسالتك واختامك . وقد حصلنا كذلك على الاشياء التى قدمتها فى الاتحاد السوفياتى ، ولكن المهم بالنسبة للشعب الرجال ، الرجال الذين اعادوا بناء انفسهم .

## تغييرات فى اسرتى

ولم افهم مضمون ما قاله مدير السجن الا بعد سنوات طويلة . ففى ذلك الوقت نظرت الى الامر على انه اثبات على اننى لن اتعرض لخطر فى تلك اللحظة اذا كانوا يريدونى ان اصلح نفسى . ولكن الخطر جاء يوم لم

اكن اتوقعه :

فذات يوم انحلت يد نظارتى ، فطلبت من السجن ان يأخذها الى لى الكبير ليعيد تركيبها . وكان حاذقا فى اصلاح الاشياء الدقيقة كالنظارات والساعات وأقلام الحبر . وغالبا ما اصلح هذه الاشياء للناس ، وكان يصلح نظاراتى قبل ذلك على الدوام . ولكن الامر اختلف هذه المرة .

يمكن للمرء داخل السجن ان يسمع فى الطابق العلوى ما يجرى فى الطابق السفلى والعكس بالعكس ، فبعد ان غادر السجن مباشرة استطعت ان اسمع لى الكبير يلطم على نحو غير واضح تعبيرا عن عدم رضاه . وبعد لحظة عاد السجن وسألنى ان كنت استطيع ايجاد طريقة لاصلاحها بنفسى حيث ان لى الكبير قال انه لا يستطيع اصلاحها . فغضبت غضبا شديدا من وقاحته ، وقلت للسجن : ” او كنت استطيع اصلاحها بنفسى لما طلبت منه ذلك . ارجوك ان تكلمه ثانية يا سيد جيانغ . “ كان السجن جيانغ شابا نحيفا صامتا ، وجميع زملائى فى الزنزانة قالوا انه شخص مهذب . ولا بد انه كذلك لأنه فعل كما طلبت منه ونزل ثانية .

وهذه المرة لم يرفض لى الكبير بل اصلحها ، ولكنه لم يحسن اصلاحها بل اكتفى بربط اليد الى النظارة بخيط . والمسمار الصغير الاصلى قد اختفى على ما يبدو .

وفكرت فى المسألة مليا وتوصلت الى ان لى الكبير قد تغير . وتذكرت اننى ارسلت منذ بضعة ايام روى الصغير ليحضره حيث لم اره منذ فترة من الوقت . فعاد روى ليقول لى : ” ان لى الكبير يقول انه مشغول وليس لديه وقت . “ وبوسعى ان اتخيل الآن انه لا بد ان يكون قد قال شيئا كهذا : ” انا ليس لدى وقت لأكون دائما رهن اشارته وطلبه . “

وبعد موضوع النظارة بوقت قصير حل عيد رأس السنة لعام ١٩٥٢ . فسمح لنا باقامة حفلة بهذه المناسبة . وقمنا بأداء عرض صغير مستخدمين

الملعب الفارغ امام برج المراقبة مسرحا وقد حدث حينئذ ما ينذر بحصول نكبة .

كتب شيو الصغير وقو الصغير ولى الكبير مقطوعة هجائية فى صيغة حوار ، وجاء جميع نزلاء زنزانتهن باستثناء روى الصغير لأداء هذا الحوار . واثاروا الضحك من تصرف بعض السجناء مثل وزير العدل السابق فى " امبراطورية منشوريا " تشانغ هوان شيانغ المعروف بلقب " الفم الكبير " . وكان له طبع خشن . فكان يزعج جميع جيرانه عندما يختصم مع شخص ما ، وعندما قالوا له مرة انه اسقط الارز على الارض تعتمد ان يسقط المزيد . ثم وجه الهجاؤن بعد ذلك نارهم الى السجناء الذين كانوا يقرأون بأعلى اصواتهم عندما يرون سجانا يمر بهم .

ووجدت هذه الامور مضحكة مثل بقية المستمعين ، ولكن بعد ذلك جاء دور التهكم على السجناء المؤمنين بالخرافات . وحرف مؤدو هذا العرض الامور بحيث اظهروا هؤلاء المؤمنين بالخرافة بأنهم لا يدركون ان عرافتهم وصلاتهم لم تنقدهم من قبل ، فاستمروا يصلون سرا . ومن الواضح ان هذا الهجوم قد شملنى ، لأننى كنت ما ازال اتلو التعويذات واصلى احيانا . وبينما كنت مستعدا للاعتراف بأن هناك صدقا فى ادعائهم بأن الصلاة لم تنفعنى شيئا ، لم يكن من المحتمل ابدا ان اتعرض لهذا الهجاء علنا . وكان هذا عدم احترام فاضح .

ولم ينته الامر عند هذا الحد . وكانت الضحية التى تلت نموذجا لرجل ادخل سجننا عرف فيه الامور الصحيحة وعاملته الحكومة على انه انسان ، ولكنه " ما يزال يتصرف على انه عبد لشخص آخر . " ان خدمة ذلك " الشخص الآخر " عن طواعية لن تساعد على اصلاح نفسه بل ستجعل الآخر يمضى فى تصرفه على انه السيد . وبدا واضحا لى بما فيه الكفاية من الذى يهاجم ومن هو " الشخص الآخر " وفهمت الآن لماذا لم يشترك روى الصغير

فى الأداء ؛ وشعرت بالأسى له وخشيت ألا يقوى على الصمود :  
والواقع ان روى الصغير قد تغير ايضا . واحتجب لى الكبير وشيو الصغير  
وقو الصغير بعض الوقت فلم يظهرُوا فى الفناء ، ونادرا ما كنت ارى روى  
الصغير ، لذلك تكدست ثيابى الوسخة اياما . وبعد انتهاء حفلة عيد رأس  
السنة لم يأت لغسل ثيابى مطلقا .

ولم يمض وقت طويل حتى حدث تطور كبير آخر :  
ذات يوم وقد حل دورى للقيام بخدمات الزنانة كنت مقرفصا عند  
القضبان الحديدية انتظر وصول الطعام . فاذا بروى الصغير يجلبه . وعندما  
سلمنى اياه وضع فى يدى كرة ورقية صغيرة . فذهلت ، ولكننى اخفيتها  
بسرعة واستدرت لأسلم الطعام ، مجهدا نفسى فى التصرف على نحو طبيعى .  
وبعد انتهاء الوجبة ذهبت الى المرحاض الذى كان خلف جدار منخفض  
فى زاوية الزنانة ، وفتحت المذكورة :

اننا جميعا مذنبون ويجب ان نعترف للحكومة بكل شىء . هل بلغت  
عن الاشياء التى خبأتها لك فى اسفل حقيبتك ؟ اذا اخذت زمام المبادرة وسلمتها  
الى الحكومة فمن المؤكد انها ستعاملك باللين .

فالتهب الغضب فى نفسى ، ولكن بعد لحظة تحول هذا الغضب الى  
الادراك بأن اتباعى قد تمردوا وان اسرتى قد هجرتنى . والقيت تلك المذكورة  
فى المرحاض وقدرت ان هؤلاء الشباب قد تغيروا . وكان هذا الامر فوق  
قدرتى على الفهم .

كان والد لى الكبير خادما عند الامبراطورية الارملة تسمى شى فى القصر  
الصفى ، وبسبب ذلك تمكن لى الكبير من الحصول على العمل غلاما فى  
المدينة المحرمة بعد طرد الخصيان . وكان وقتها فى الرابعة عشرة من عمره .  
وقد تبعنى الى تيانجين ، حيث درس مع بعض الغلمان الآخرين الذين كانوا

عندى على مدرس اللغة الصينية . وجعل مرافقا شخصيا لى ، واعتبرته واحدا من خدمى الأكثر ثقة . واختبرته ليصاحبنى عندما تركت داليسيقو لى محاولتى الهرب الى اليابان عام ١٩٤٥ . وعندما كنا فى الاتحاد السوفياتى لكم يابانيا بشدة لعدم ابتعاده من طريقى . وكان على الدوام يحترمنى ويطيعنى طاعة تامة ، كما كان يطبق تعاليمائى بأمانة فى ائتلاف بعض مجوهراتى دون ان يترك اثرا لذلك . فلم استطع ان افهم لماذا ينبغي لشخص كهذا ان يتغير ويفقد احترامه لـ ” وليه “ .

وكان قو الصغير ابن بو وى ، الامير قونغ الثانى . وقد سمحت له بوصفى ” امبراطور اسرة تشينغ العظمى “ ان يخلف والده فى القلب ، ونشأته ليكون واحدا من دعائم اعادة الملكية فى المستقبل . وفى الاتحاد السوفياتى نظم قصائد عبر فيها عن ولائه لى . وقد جعلته تشيى له منقطعا للبوذية ، وفى مرحلة واحدة امضى الايام بكاملها مستغرقا فى ” تأمل العظم الابيض “ امام صورة هيكى عظمى . وظل يظهر ولاءه لى حتى بعد وصولنا الى هاربين . وعندما يكتب شخص كهذا هجوما على فهذا يدل بكل صريح انه قد انهى ولاءه لى .

وكان اكثر التغيرات ادهاشا ذلك الذى حدث لروى الصغير : لقد انحدر من اسرة اميرية متداعية ، وقد استدعيته الى تشانغتشون عندما كان فى التاسعة عشرة من عمره ليدرس مع ابناء عوائل نبيلة متدهورة ايضا واعتبرته من اكثر طلاب البلاط طاعة وامانة . وبدا لى اقل موهبة من الآخرين ولكنه خدمنى افضل من رفاقه الاذكى منه . واطهر ولاءه لى خلال سنواتنا الخمس فى الاتحاد السوفياتى . وقد اختبرته ذات مرة بأن سألته اذا كانت لديه فكرة بالتخلى عنى ، فاعترف بأنه شعر مرة بأنه قد عومل معاملة خاطئة عندما جعلته يركع على الارض مدة ساعة معاقبة له . وعندما قلت له اننى اصفح عنه سجد لى ، وظهر سعيدا كأنما قد غادر الجحيم الى الفردوس . وقيل

عودتى الى الصين رشحته ليكون "خلفا" لى فى حالة موئى ، وفرحته بذلك لم يكن ممكنا تخيلها . ومنذ ذلك الحين وهو يفعل كل شىء لى . ولكنه الآن من بين جميع الناس يحاول ان يعلمنى اننى مذنب .

لو اننى كنت اكثر دقة فى الملاحظة لانتبهت لبعض الاشارات المنذرة بهذه التغييرات التى لا يمكن تصورها . فى حفلة رأس السنة نلا قو الصغير قصيدة بمصاحبة الصفاقات يصف الطريقة التى تغير بها تفكيرهم . وقد وصف فيها كيف انشئوا منذ طفولتهم فى "امبراطورية منشوريا" ملقنين بالدعاية الرجعية . وانهم علموا ان يعتقدوا بأن اليابان من اكثر البلاد قوة على سطح الارض ؛ وان الشعب الصينى عاجز وبحاجة الى ان يكون محكوما ؛ وان من الطبيعى ان يكون الناس مقسمين الى درجات ، وما الى ذلك . وان عودتهم الى الصين قد بينت لهم ان كل ذلك كان مجرد كذب . وانهم ذهلو فى اليوم الاول من عودتهم لاكتشاف ان سائق قطارهم صينى ، وان اكتشافات كهذا كانت تتبع يوميا تقريبا . وان اكثر ما ادهشهم هو موقف سلطات السجن والانتصارات فى الحرب الكورية .

وفى ذلك الوقت رأيت ان هذه القصيدة ليست اكثر من رافعة ستار ولم اعرها انتباها . وعجزت عن فهم ان قو الصغير كان يشرح سبب تمردهم : انهم قد رأوا الآن اننى كنت اخدعهم .

ان الذى ما فهمته على وجه خاص انهم فى احتكاكاتهم بموظفى السجن منذ فصلهم عنى قد تأثروا جميعا تأثرا شديدا بالتغير فى منزلتهم . فمع انهم كانوا سجناء ، الا انهم عوملوا بوصفهم افرادا لهم شخصياتهم المستقلة ، بينما كانوا فى السابق نبلاء اسميا وعبيدا فى الواقع . لقد سمعوا الآن عن نوعيات من الشباب تختلف عنهم - سمعوا عن تشاو قوى لان التى فقدت يدها لتتخذ مصنعا ، وعن مآثر متطوعى الشعب فى كوريا . وبدأوا يسألون انفسهم لماذا لم يسمعوا عن اناس كهؤلاء فى الماضى ؟ ولماذا لم يتعلموا الا كيف

يتوسلون ويسجدون ؟ ولماذا كان ينتظر منهم ان يكونوا متشكرين على الشتم والضرب بينما الآخرون كسوا انفسهم بالعظمة ؟ ولماذا كانوا جاهلين كل هذا الجهل بينما الآخرون حققوا الشيء الكثير ؟  
ان افكارا كهذه جعلتهم يتغيرون ويبدلون بالدراسة الجادة ويعبرون سلطات السجن بكل شيء عن ماضيهم .

وبعد ان اتلفت المذكرة جلست بجانب الجدار مكتئبا افكر في ان الشيوعيين خطرون حقا اذا هم استطاعوا تغيير ابناء اشقائي ولى الكبير على هذا النحو . وكان عزائي الوحيد هو ان اخي وزوجى شقيقتى كانوا ما يزالون يتصرفون على نحو طبيعى . ولكننى بقيت فى قلق شديد : هل سيبلغ روى الصغير السلطات عنى ؟

ولم اعرف ماذا افعل . كان عندى كمية من المجوهرات يصل مجموعها الى ٤٦٨ قطعة مخبوءة فى اسفل حقيبتى : بلاتين وذهب وماس ولؤلؤ واصناف اخرى من الاحجار الكريمة التى اخترتها بعناية لتكفينى بقية حياتى . وكنت متأكدا اننى من دونها لن اكون قادرا على اعالة نفسى اذا ما اطلق سراحي ، ذلك لأن فكرة كسب معيشى بنفسى لم تخطر فى ذهنى . اذا كنت سأسلمها بعد اخفائها هذه المدة الطويلة ، فان ذلك سيثبت اننى كنت اخدع السلطات . ولكن اذا انا لم اسلمها ، فان روى الصغير ليس الوحيد الذى يعلم امرها ، واحتمال ان يتخلى عنى الآخرون اكبر بكثير من احتمال تخليه هو . واذا ما حدث هذا فسأقع فى ورطة حقا .

” اذا اخذت زمام المبادرة وسلمتها الى الحكومة فمن المؤكد انها ستعاملك باللين . “ عامت هذه الجملة فى ذهنى ثم اختفت تدريجيا . وظننت ان كلمتى ” الشيوعيين “ و ” اللين “ متضاربتان ، على الرغم من الطريقة التى عوملت بها فى السجن . والروايات التى قرأتها فى الصحف عن المعاملة اللينة للمذنبين الذين كشفوا فى حركة المكافحات الخمس وحركة المكافحات

الثلاث (١٣) . فبعد بدء هاتين الحركتين بوقت قصير قرأت عن اعدامات بعض الفاسدين الذين ارتكبوا افطع الجرائم . وفيما بعد رأيت تقارير عن جرائم الرأسماليين الذين سرقوا ممتلكات الدولة والاسرار الاقتصادية وعن الابتزاز والتهریب وعن التخلص من الضرائب ، وقارنت ذلك بسجلى . وكان لى تفسيرى الخاص لشعار ” قادة الفتنة دائما ما يعاقبون ؛ والذين اجبروا على التعاون لن يعاقبوا ؛ واولئك الذين يؤدون الاعمال التى تستحق التقدير يكافأون . “ ورأيت انه حتى اذا كانت روايات اللين صحيحة فانها لا يمكن ان تنطبق على : فقد كنت قائد فتنة ولذلك سأعاقب لا محالة .

وابتسمت قائلا لنفسى فى مرارة : ” اذا اعترفت فانك ستعامل باللين . “ كنت مقتنعا بأننى حالما اخبر مدير السجن بالمجوهرات سيفغضب غضبا شديدا لأننى خدعته ويعاقبنى . وربما يسعى الى اكتشاف ان كنت اخدعه بأنواع اخرى من الخداع . وهذه هى الطريقة التى كنت اعامل بها من هم دونى فى تلك الايام الماضية .

لا ، اننى لا يمكن ان اعترف . من المؤكد ان روى الصغير والآخرين لن يكونوا قساة على نحو يجعلهم يبلغون عنى . وتركت المسألة جانبا . بعد اسبوع حان دور روى ثانية فى جلب الطعام الى زنزانتنا . ورأيت تعابير وجهه جدية جدا ، ولم يكن ينظر الى اطلاقا . وحقق الى حقيبتى لحظة ثم انسل عائدا . فأصبت بالقلق . ماذا يعتزم ان يفعل ؟ وبعد اقل من ساعتين ظهر فجأة فى بداية فترة دراستنا . وتوقف خارج الزنزانة لحظة ، ونظر الى حقيبتى ، وغادر ثانية .

وايقنت انه ذهب لرؤية مدير السجن . فقررت ، وانا فى حمى القلق ، ان اسلم المجوهرات طائعا مختارا قبل ان يبلغ عنى . فأخذت يد لاو وانغ ، رئيس مجموعتنا واخبرته ان لدى شيئا سأعترف به للحكومة .



## اعتراف ولين

” اننى لست جيذا . لقد عاملتنى الحكومة بمنتهى الانسانية ، ولكننى خبأت كل هذه الاشياء مخالفا لوائح السجن ، لا بل قانون البلاد . ان هذه الاشياء ليست لى حقا ، انها للشعب ؛ لقد فهمت هذا اخيرا ، ومن اجل ذلك اعترفت وسلمتها . “

كنت واقفا فى مكتب مدير السجن ناكس الرأس امامه . ومجهراتى البالغة ٦٨ ٤ قطعة موضوعة على طاولة بجانب النافذة تلمع . وقلت فى نفسى : ” دعها تشع اذا كنت استطيع انقاذ نفسى بتسليمها ، واذا طبقت بحقى سياسة اللين . “

نظر المدير الى بتمعن ، وهز رأسه قائلا :

— اجلس .

وجعلتنى نبرة صوته اشعر ان هناك مجالا للأمل :

— هل خضت صراعا ذهنيا كبيرا حول هذه ؟

فتجنبت ذكر مذكرة روى الصغير ، وقلت :

— كنت اخشى ، اذا اعترفت ، ألا اعامل باللين ؟

فسألنى المدير وعلى شفثيه ابتسامة :

— لماذا ؟ لأنك كنت امبراطورا ؟

فأجبت بعد لحظة تردد :

— نعم .

— لا غرابة فى ذلك . ما دام لك تاريخ خاص فبدهى ان تكون عندك

بعض الافكار الخاصة . دعنى اكرر اذن ان الحزب الشيوعى والحكومة الشعبية يعيان ما يقولانه . انهما لينين مع اولئك الذين يعترفون ، وانهما يخففان عقوبات اولئك الذين يصلحون انفسهم ، ويكافئان اولئك الذين يؤدون اعمالا

تستحق التقدير بصرف النظر عن منزلتهم الاجتماعية . ان الامر كله يعتمد على سلوكك . لقد خالفت لوائح السجن باخفاك في تسليم هذه الاشياء حالا وباخفائها هذه المدة الطويلة ، ولكن ما دمت الآن قد اعترفت بذنبك ، فهذا يعنى انك تبت . ولهذا السبب لن نعاقبك .

وطلب من السجن خارج الباب ان يحضر امين المستودع لحفظ الاشياء القيمة . وعندما جاء طلب منه المدير ان يأخذ تلك الكومة من المجوهرات ويعطيني وصلا بها .

فدهشت . ثم وثبت ناهضا لأقول معترضا :

— لا ، لا اريد وصلا . اذا كانت الحكومة لا تريد ان تصادرها ، فانى سأ تبرع بها .

فنهض المدير وقال وقد هم بالمغادرة :

— لا ، اننا سنحفظها لك . فهل تتفضل بفحصها ؟ لقد اخبرتك من قبل ان الناس المعاد بناؤهم اكثر قيمة بالنسبة لنا .

وعدت الى ززانتي بالوصل . كان نزلاء ززانتي يتناقشون في كتاب : «كيف اصبحت الصين مستعمرة وشبه مستعمرة» الذى كنا ندرسه في ذلك الوقت ، ولكن عندما دخلت توقفوا عن مناقشة ذلك ورحبوا بى ترحيبا حارا لم يظهره من قبل وهنأونى على تقدمى قائلين :

”يا لاو بو (١٤) ، اننا معجبون بك .“

كانوا قد توقفوا من زمانه عن مناداتى بعبارة ”السيد بو“ وغيرها الى هذه الطريقة غير الرسمية في المخاطبة . وكنت عندما سمعت عبارة ”لاو بو“ للمرة الاولى لم استسغها في البداية ، ولكنها اليوم جعلتنى اشعر انها جيدة .

”لاو بو ، ان تصرفك قد بين لى الطريق .“

”يا لاو بو ، اننى لم اكن ادرك انك تتمتع بشجاعة الى هذا الحد .“

”يا لاو بو ، يجب ان اشكرك لأنك اعطينى المزيد من الثقة في سياسة اللين ازاء أولئك الذين يعترفون .“

وهنا يجب ان اضيف الى ان هيتى اصبحت اكثر اهمالا من السابق ، فقد كنت اغسل ملابسى واصلاحها بنفسى . وكان احترام نزلاء زنزانتى لى قد انخفض الى النصف على الاقل بعد تغيير عبارة الخطاب الى ”السيد بو“ . بل ان بعضهم اخذ يدعونى ”سوق الخرق“ من خلف ظهرى ، وكانوا غالبا ما يضحكون منى لعدم صلاحيتى فى الدراسة . ولهذا كله فان مديحهم المحالى قد ابهجنى .

فى فترة الراحة فى ذلك اليوم سمعت لاو يوان ، سفير ”امبراطورية منشوريا“ السابق لدى اليابان يتحدث عما فعلت . كان لاو يوان شديد الذكاء يستطيع ان يفكر فى لحظة فى ما لا يستطيعه الآخرون فى يوم . وما قاله جعلنى افكر بعض الوقت :

”ان لاو بو رجل عاقل ، ليس غبيا مطلقا . لقد كان مصيبا تماما فى اخذه زمام المبادرة واعترافه بأن لديه تلك المجوهرات . انه بالطبع لا يستطيع ان يخدع الحكومة ، لأن الحكومة لديها معلومات عنا اكثر مما تتخيلون . تذكروا تقارير الصحيفة عن حركة المكافحات الثلاث وحركة المكافحات الخمس . ان ملايين الناس قدموا المعلومات الى الحكومة . فالحكومة تعرف حتى الاشياء التى نسيتموها منذ سنوات .“

لقد ادركت اننى لا استطيع تغطية الكذب الذى ذكرته فى سيرتى الذاتية . اذا كان على ان اعترف لهم ، فهل يمكن ان اسلم كما سلمت عند تسلم المجوهرات ؟ هذه ستكون مسألة سياسية لا اقتصادية ، ولا اعرف ان كانت ستعالج بنفس الطريقة . ان مدير السجن لم يقل شيئا عن ذلك . ولكن الجرائم الاقتصادية كالجرائم السياسية ، والمبادئ التى تكلم عنها مدير السجن يجب ان تطبق عليها ايضا .

ولم استطع اتخاذ القرار . وبدأت انظر بمزيد من الاهتمام الى امثلة اللين الواردة في الصحف . كانت حركة المكافحات الثلاث وحركة المكافحات الخمس في طريقيهما الى الانتهاء ، والكثير الكثير من الحالات كانت تعالج ، وجميعها باللين . وتفحصت هذه الحالات مع لاو وانغ ، القاضي السابق ، مقارنا ما قرأته من حالات مع سجل ومتسائلا ان كانت سياسة اللين ستساعدني . عندما كانت الحكومة تستعد لمعالجة قضايا مجرمي الحرب اليابانيين طلبت منا سلطات السجن ان نكتب ما نعرفه عن جرائم اليابانيين في الشمال الشرقي . وسأل احد السجناء اذا كان مسموحا لنا بأن نكتب عن الآخرين بالاضافة الى اليابانيين . فقليل له ان هذا مسموح به طبعاً ، ولكن يجب ان نركز على جرائم اليابانيين . فأقلقني هذا الامر . من هم الآخرون الذين يريد هذا السجن ان يكتب عنهم ؟ ان كلمة ” الآخرون ” قد اشارت بكل وضوح الى الصينيين ، واكبر المجرمين الصينيين انا دون شك . فهل سيكتب اى من افراد اسرتى عن ” الآخرون ” ؟

وكتب مجرمو الحرب التابعون لـ ” امبراطورية منشوريا ” عن جرائم اليابانيين بتحمس كبير . وكتبت مجموعتنا بضعة عشر اتهاماً في اليوم الاول وحده ، وقال لاو وانغ في رضى : ” اننا لم نتصرف على نحو سيئ ، واننى متأكد من اننا نستطيع ان نكتب غدا بمقدار ما كتبناه اليوم . ” فتدخل احدهم قائلاً : ” من يعرف كم سيكتب اهالى الشمال الشرقي اذا طلب منهم ذلك . ” فأجاب لاو وانغ : ” ان الحكومة ستقوم طبعاً بالاستقصاءات بينهم . ما رأيك يا لاو بو ؟ ” فأجبت : ” اننى متأكد من انها ستقوم بالاستقصاءات . ولكننى اتساءل ان كانت ستسأل عن الآخرين بالاضافة الى اليابانيين . ” فقال : ” بعض الناس سيكتب عنا لا محالة ، حتى وان لم يطلب منه ذلك . ان ابناء الشعب العاديين يكرهوننا كراهية مرة كما يكرهون اليابانيين تماماً . ”

فى ذلك المساء جلب لنا عشاعنا لى الكبير . وكان يبدو فى مزاج سىى  
للغاية ، فقد وضع الطعام على الارض وانصرف عائدا دون ان ينتظرنى حتى  
استلمه منه . وتذكرت حالا كيف ساعدنى على الصعود الى خانة الامتعة  
فى السيارة عندما غادرت ” الحديقة الهادئة ” فى تيانجين .

امضينا اليوم التالى ايضا نكتب عن اليابانيين . ونظرا الى اننى لم اعرف  
الكثير فلم استطع ان اكتب الا قليلا ، ولكن لا وانه كان ما يزال راضيا  
لأن الآخرين كتبوا الكثير . وقال : ” تصورا ! كم من المعلومات سيكون  
ابناء الشمال الشرقى قادرين على تقديمها للحكومة . اننى بوصفى موظفا  
قانونيا سابقا استطع ان اخبركم انكم اذا كان لديكم دليل تستطيعون ان  
تجعلوا اى واحد يتحدث فى النهاية . فى الايام الماضية اعتدنا ان نفكر ان  
اصعب الامور هو الحصول على دليل ، ولكن الامور مختلفة تماما بالنسبة  
للحكومة الشعبية حيث الشعب العادى بكامله يقدم المعلومات . ” فهبط  
قلبى . وفكرت فى القضية التى قرأتها عن الرجل الذى اعدم شيوعيا قياديا  
عام ١٩٣٥ ثم قبضت عليه سلطات الامن مؤخرا فى مخبئه فى اعماق الجبال .  
ربما كان الشيوعيون يحتفظون به باضبارة منذ عام ١٩٣٥ .

وفى اليوم الثالث ، عندما كنت اكتب تقريرى الاخير عن اليابانيين ،  
سمعت صوتا على السلم . فالتفت لأنظر فرأيت شخصا غربيا بالقرب من  
برج المراقبة متبوعا بالمدير . فخمنت انه قد يكون موظفا من جهاز اعلى  
جاء للفتيش . ونظر الى كل زنزانة تباعا ، ولم يظهر اى اهتمام فيما كان  
المدير يخبره باسم كل سجين . ومع انه لم يكن مرتديا بزة عسكرية ،  
الا اننى حررت من تعابير وجهه الصارمة انه لا بد ان يكون رجلا عسكريا .  
وكان يبدو دون الخمسين من عمره .

وسألنى عندما نظر الى داخل ززانتنا :

— ماذا تفعل ؟

ودهشت بالاعتدال فى صوته وبطيف الابتسامة التى ارتسمت على وجهه . ونهضت واخبرته بأننى اكتب عن جرائم اليابانيين . فقال باهتمام :

— اية جرائم تعرف ؟

فأخبرته بمذبحة العمال فى مشروع البناء ، تلك القصة التى رواها لى تونغ جى شيوى . ولعلى كنت اتخيل ، الا ان الابتسامة بدت تختفى من وجهه كما اصبحت ملامحه صارمة جدا . ولم اتوقع ان الخبر سيثير فى نفسه ردة الفعل الشديدة هذه .

— لقد صدمت بتلك الحادثة فى ذلك الوقت حيث لم اكن ادرك ان اليابانيين كانوا بهذه القسوة .

— لماذا لم تقدم لهم احتجاجا ؟

— انا ... انا لم اجرؤ .

— لأنك كنت خائفا ؟

ودون ان ينتظر جوابى مضى يقول بلهجة هادئة مرة ثانية :

— آه ! ما اقرف الاشياء التى يمكن ان يسببها الخوف للانسان .

فقلت بصوت خافت :

— هذا كله كان ذنبى : يجب ان اعترف بذنبى للشعب ؛ اننى

لا استطيع التكفير عنها حتى ولو مت عشرة آلاف مرة .

— لا تضع اللوم كله على نفسك . يجب ان تتحمل نصيبك فقط

من المسؤولية وتحفظ بالحقائق . انك لا تستطيع ان تنهرب من ذنبك ، ويجب ألا تتحمل مسؤولية جرائم الآخرين .

ومضيت اقول اننى تأثرت بالطريقة التى عاملتنى بها الحكومة ، وبأننى

اعترفت بذنبى الكبير وصممت على اصلاح نفسى . ولا ادرى ان كان هذا الموظف كان يصغى الى عندما تفحص الزنزانة وطلب من سجين آخر ان يجلب له كوز الاسنان ليفتشه . وعندما انتهيت هز رأسه وقال :

— يجب ان تثبت بالوقائع . اذا اعترفت بذنبك حقاً واطهرت الندم فانك ستعامل باللين بكل تأكيد . ان ما يقوله الحزب الشيوعي معتمد ، وانه ليعلق اهمية كبيرة على الوقائع . وان الحكومة الشعبية مسؤولة عن الشعب . يجب ان تظهر انك تعزز تقدما بما تفعله ، ليس فقط بما تقوله . حاول بجهد .

ونظر الى ما كنت اكتبه ثم ذهب الى باب الزنزانة الاخرى . كان قلبي ثقيلاً جداً . وفيما تصفحت مجموعة المواد التي كتبتها بدا لي انني اليوم فقط ادركت مدى خطورة الاحداث التي وصفتها في كتابتي هذه . ومنذ ذلك الحين كانت عيناه الصارمتان تلازمانني وصدى كلماته يتردد في نفسي . وادركت انني اواجه قوة لا تقاوم ، قوة لن تكل او تستكين قبل ان تكتشف كل شيء . لقد امسكت هذه القوة جلاد عام ١٩٣٥ مع انه كان مختفياً في اعماق الجبال ، وادركت انها ستقدم وصفا كاملاً لجرائم اليابانيين في الشمال الشرقي ، وان جرائم العملاء الكبار والصغار في ” امبراطورية منشوريا “ لن تقوى على الافلات منها .

كان اليوم احد ، وكنت اعلق غسيل في فناء السجن كي يجف عندما رأيت لي الكبير وروى الصغير وأحد كوادر السجن يقتربون من بعيد . وبعد ان وقف ثلاثتهم عند المظاهر فترة افترقوا وتقدم روى الصغير في اتجاهي ، ولكن عندما هممت بتحيته مرق من جانبي فورا دون ان يلقي نظرة الى ناحيتي . فشككت في انه قد فعل شيئاً لا يمكن تغييره .

وعدت الى زنزاتي ثم اعدت فحص المواد المتعلقة بحركة المكافحات الثلاث وحركة المكافحات الخمس في الصحف القديمة . فجاءني لاول وانغ وقال :

— ماذا تفعل ؟ أ تدرس حركة المكافحات الخمس ؟  
فوضعت الصحف من يدي واعلنت قرارى :

— لا . كنت افكر فى بعض احداث الماضى : فى السابق لم ار طبيعتها الحقيقية ، ولكننى الآن ارى انها جرائم . هل تظن ان من الصواب ان اضمنها فى مقالتي الدراسية ؟  
فمخفض صوته وقال :

— طبعاً . ان الحكومة على اية حال قد جمعت عنا كثيراً جداً من المواد ، لذلك سيكون من الافضل بكثير الافصاح عنها .  
فتناولت قلمى . وكان الهيكل العام لمقالتي هو ان الاقطاعيين والكمبرادور كانوا شيئاً لا غنى عنه للامبريالية فى عدوانها على الصين ، واننى انا كنت مثلاً نموذجياً . لقد استخدمت القوى الاقطاعية لافثة لها من اجل تحقيق احلامها فى اعادة الملكية وعاونت مع الامبرياليين اليابانيين ، بينما استخدمنى اليابانيون لافثة لهم ايضاً عندما حووا الشمال الشرقى الى مستعمرة لهم . وكتبت تفاصيل نشاطاتى فى تيانجين وتفاصيل علاقاتى وعلاقات زمرتى باليابانيين ، بما فى ذلك لقائى مع دويهارا .

وبعد يومين اخبرنى لـاو وانغ بأن سلطات السجن قد قرأت مقالتي ورأت اننى احرزت تقدماً كبيراً ينبغى امجموعتى ان تمتدحنى عليه . وقال لـاو وانغ ، القاضى السابق :

— ان دليلاً حقيقياً واحداً يساوى اكثر من عشرة آلاف كلمة فارغة .

## صنع الصناديق

فى نهاية عام ١٩٥٢ انتقلنا من المبنى المحاط بالقضبان الحديدية الى مبنى جديد فسيح ، وكانت فيه اسرة جديدة وطاولات ومقاعد ونوافذ كذلك تدخل قدراً كبيراً من الضوء . ونظراً الى ان ما قاله مدير السجن عن " الاصلاح " بدا حقيقياً ، ونظراً الى اننى مدحت على كتابتى ذلك الجزء



من تاريخى الشخصى بدلا من ان اعاقب ، بدأت ادرس بجدية . ورأيت فى تلك الايام انه لم يكن هناك اكثر من القراءة ليقوم المرء باعادة بناء نفسه ، وتصورت اننى بمجرد تمكنى من الافكار الواردة فى الكتب تكتمل اعادة بناء نفسى . ولم يخطر فى ذهنى قط ان القراءة غير كافية ، او ان القراءة وحدها لن تمكّننى من فهم معنى مضمون الكتب . فى اواخر عام ١٩٥٠ واولئل عام ١٩٥١ مثلا كنت قد قرأت كتاب « ما هو المجتمع الاقطاعى ؟ » ، ولكن لم افهم ماذا تعنى الاقطاعية حقا الا فى ربيع ١٩٥٣ حيث علمتني ذلك فترة العمل حينذاك ، صنع الصناديق .

لقد اتفقت سلطات السجن مع مصنع اقلام الرصاص فى هارلين على ان نقوم نحن السجناء بصنع الصناديق الكرتونية التى تحزم فيها اقلام الرصاص . ومن ذلك الحين ونحن نمضى اربع ساعات كل يوم فى الدراسة واربع ساعات فى العمل . وقال لنا كوادر السجن ان هذا سيغير من روتين حياتنا ، حيث سيكون قليل من العمل اليدوى نافعا لنا لأننا لم نقم . قبل ذلك بأى عمل . ولم ادرك حينذاك ما المغزى الخاص فى تلك الكلمات . بالنسبة لى .

وطبعا لم اقم قبل ذلك قط خلال حياتى كلها بالصاق اجزاء صندوق لأقلام الرصاص الى بعضها ، كما انه لم يسبق لى ابدا ان برت قلم رصاص . وكل ما عرفته عن اقلام الرصاص هو اننى استطعت ان اذكر العلامة التجارية المكتوبة عليها — اقلام فينوس وكانت مطبوعة عليها مع صورة امرأة مكسورة الذراع ، وكانت هناك اقلام رصاص المانية عليها صورة ديك . ولم اذكر مطلقا الصناديق التى كانت هذه الاقلام تأتى محزومة فى داخلها ، كما لم تكن عندى فكرة عن ان صنع الصناديق متعب الى هذا الحد . وعلى اى حال لم يمض على وقت طويل حتى زال شعورى بهذه الاشياء الجديدة ، وبدا لى كما لو ان عقلى ملتصق بعجينة ، بليدا مشوشا . فبينما كان الآخرون قد اتموا عددا من الصناديق لم اكن قد انهيت صندوقى الاول بعد ، كما

انه لم يظهر بشكل صندوق او لآى شىء يصلح . فسألنى لاو شيان وهو مدير مستشفى عسكري سابق فى "امبراطورية منشوريا" ، آخذاً بيده هذا الشىء الذى صنعته :

— كيف صنعته يا ترى ؟ لماذا لا يفتح ؟ ما هذا الشىء العجيب ؟  
لقد نشأ لاو شيان فى اليابان حيث درس الطب ، وهو شقيق العميلة السيئة السمعة جين بى هوى (التي كان اسمها اليابانى كاواشيما يوشيكو) وابن للامير سو ، اى انه منحدر من اسرة خونة قياديين . وكان رجلاً سيئ الطبع ، وقد احب ان يصب جام غضبه على اذ كنت من الجبن بحيث لا اقوى معها على الصمود امامه .

كانت مشاعرى مزيجا من الغيرة وخيبة الامل والخوف من ان اكون مثار سخرية ، وقد لفت هذا الفضولى شيان انتباه الآخرين الى . فاحتشدوا حول صندوقى وراحوا يضحكون على نحو غير مريح . فانتزعت الصندوق من لاو شيان والقيته على كومة الفضلات . فقال محملاً فى وجهى :

— ماذا ؟ أتعتمد القاء ؟

فتمتمت قائلاً وانا ارفع الصندوق من كومة الفضلات واضعه على كومة الصناديق الجاهزة :

— كلا . انه ليس سيئاً جداً بحيث لا ينفع نهائياً ؛  
ولكن هذا كان خطأ واضحاً .

— الاشياء المنبوذة هى الاشياء المنبوذة اينما وضعت ؛  
فأغضبتنى هذه الاهانة المزدوجة المعانى اشد الغضب : فرددت عليه وانا ارتجف تقريباً ولا استطيع السيطرة على نفسى :

— انت تتعفرت على . انت تنمر على الضعيف وتخاف من القوى ؛  
فاحمر وجهه وصاح :

— على من انتمر ؟ ومن اخاف ؟ انت تظن انك ما تزال امبراطوراً

وان كل واحد عليه ان يخدمك ، أليس كذلك ؟  
ومن حسن الحظ ان الآخرين تجاهلوه ، وجاء رئيس المجموعة واسكنه .  
ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحد . فلاو شيان لم يكن على استعداد للتخلي  
عن هذه المشكلة بسهولة . وفي اليوم التالى اختار مكان جلوسه بجانبى من  
اجل الصاق الصناديق . واستمر ينظر الى عملى نظرات انتقادية ، لذلك  
استدرت واوليته ظهري .

ومع اننى لم احسن عملى كالآخرين ، الا اننى احرزت بعض التقدم  
فى ذلك اليوم . وفى المساء جلبت لنا سلطات السجن بعض الحاوى المشتراة  
بالنقود التى كسبناها من عملنا فى اليوم السابق . وكانت هذه هى المرة  
الاولى التى تمتعت فيها بشمار جهدى الشخصى . ومع ان جهودى كانت  
من اقل الجهود نجاحا الا ان حصتى من الحاوى كانت اطيب مذاقا من  
اية حلوى اكلتها من قبل . وقال لاو شيان :

— يا بو يى ، انك لم تعمل على نحو سئى جدا هذا اليوم ، أليس  
كذلك ؟

فقلت رادا على هجومه :

— لا ، لم تكن هناك اشياء منبوذة اليوم .

فأجاب مبتسما ابتسامة باردة :

— يحسن بك ان تكون اكثر تواضعا .

— واى تكبر فى قولى بأنه ليست لدى صناديق منبوذة ؟

وغضبت ، ولم اعد اشعر بلذة فى الحاوى التى فى يدى . كان من  
اكثر الاشياء كراهية فى تصرفاته هو براعته فى اختيار اللحظة التى اكون  
فيها شاعرا بالسعادة لبدأ فى تتبع الثغرات . وقلت له :

— اذا نبتت اية صناديق اخرى ، فبوسعك ان تلقبنى كما تشاء .  
ثم تجاهلته ، ولكنه ذهب والتقط احد الصناديق التى صنعتها وعرضه

امام الجميع قائلا :

— انظروا !

فرفعت نظري ، وكادت الحلوى تمخنقنى . كنت قد ألصقت رقعة الورق رأسا على عقب . فتميزت غيظا ، ووددت لو التقي الصندوق في وجهه الكريه . ولكننى كبحت هذه الرغبة الجامحة وتمتمت قائلا :

— فكر كما تشاء .

فرفع صوته قائلا :

— ما هذا الطبع السيئ ! ما تزال تمثل دور الامبراطور التتن . لقد انتقدتك من اجل صالحك ، ليس الا ، ولكنك لا تدرك ذلك .  
وسمع صوت سجان يأتى نحو الزنزانة ، فرفع صوته اكثر فأكثر :  
— انك ما تزال تحلم في ان تكون امبراطورا ثانية .  
فرددت عليه في غضب :

— كلامك هذا هراء . انا اغبى منك ، ولست ماهرا مثلك في التكلم او القيام بالاعمال ، ولقد ولدت على هذا النحو ، هل يكفيك ذلك ؟  
وجاء الآخرون ليوقفوا هذا الشجار . وكانت زنزانتنا غرفة كبيرة ، وكان عددنا فيها ثمانية عشر شخصا . فباستثنائي كان هناك ثلاثة من الوزراء العملاء السابقين واربعة عشر ضابطا سابقا . وكان احد هؤلاء الوزراء الثلاثة السابقين تشانغ جينغ هوى الذى اصبحت في هذا الوقت خرفا ، ولم يكن عادة يدرس او يعمل ، بل ظل صامتا تماما . وفي ذلك المساء اجرينا جميعا ما عدا تشانغ جينغ هوى مناقشة حول "مسألة الصناديق" . فقال بعضهم انه ليست هناك حاجة الى ان يرفع لاهو شيان صوته حتى وان كان حسن النية في نقده لى ، وقال آخرون اننى كنت مخطئا في عدم اعترافى بأننى صنعت الصناديق على نحو سيئ . وقال العجوز المنغولى قوه انه ليس من الغريب ان اخرج عن طورى وقد وقف منى لاهو شيان ذلك الموقف ، واعترض

قائد فوج سابق كان صديقاً لشيان على ان العجوز قوه ينظر من خلف نظارة معتمة . وظهر رأى آخر يقول ان هذه المسألة يجب ان تناقش فى اجتماع النقد يوم السبت . وشرع كل واحد يتحدث فوراً . ثم رأيت قائد الفوج يشد معطف شيان الذى كان يصيح بحدة بحيث غطى الزبد شدقيه . وصمت كل واحد ، والتفت فاذا بموظف فى السجن يدعى لى ، وكان مسؤولاً عن الدراسة ، قد دخل . فسأل رئيس المجموعة عما كنا ننشأجر بشأنه ، فقال لاو وى :

— ابلاغك يا سيدى ان هذا الشجار قد ثار حول صندوق كرتونى منبوذ .

فتناول هذا الموظف الصندوق الذى لصقت فيه الرقعة رأساً على عقب وقال :

— لماذا تتشاجرون حول امر تافه كهذا ؟ لماذا لا تكتفون بالصاق رقعة اخرى على نحو صحيح ؟

فأصبنا بالذهول . ولكن المشكلة لم تنته بعد . فبعد بضعة ايام اخبرنا روى الصغير عندما جاب لنا مواد عملنا بأن بعض المجموعات الاخرى تجرى مباراة ، واراد ان يعرف ان كنا سنشارك ام لا . فقلنا اننا سنشارك . ثم اخبرنا روى الصغير حينذاك ان قو الصغير فى مجموعتهم قد ابتدع طريقة للصق الصناديق لها ضعفا سرعة الطريقة القديمة . فأدركنا ان علينا ان نرفع من فعالية عملنا اذا كنا سنشارك فى المباراة . فاستخرجنا خلاصة من اخبار الابتكارات الفنية التى قرأنا عنها فى الصحافة ، وبدأنا خط انتاج متسلسل ، كان لكل منا فيه عملية . وقد استهوئنى هذه الفكرة لأنها ستجعل عملى اسهل ، وظننت انها قد تغطى عدم قدرتى . ولكن لم يمض وقت طويل حتى حدث تكدرس فى مرحلتى ضمن خط الانتاج ، وكان لاو شيان هو الذى لاحظ ذلك . فمظاهر بتعابير الارتباك ، وقال : ” ان عيوب فرد واحد يؤثر فى عمل

المجموعة . فماذا يجب ان نفعل بخصوص ذلك ؟ ”  
فلم اجادله هذه المرة ، ووقفت مواجهها كومة الصناديق نصف الجاهزة ،  
تماما مثل الناس الذين اعتادوا ان يقفوا خارج بوابة قصر تهذيب العقل في  
الايام الماضية منتظرين استدعاهم لمقابلتي . وعندما اشار الرجل الذى  
يلينى فى عملية الانتاج الى ان عملى ليس فى المستوى المطلوب واننى بذلك  
قد رفعت معدل الصناديق المنبوذة لدى المجموعة كلها ، ادركت انه لا  
احد مهما كان عادلا سيدحض النقد اللاذع الذى وجهه لى لاو شيان .  
وتركت خط الانتاج وعدت لأعمل بمفردى .

ومرة ثانية عرفت شقاء الوحدة . وبعد ان نبذتنى المجموعة شعرت ان  
الفرق بينى وبينهم كبير جدا كأنما كنت اقف امامهم عاريا . واوشكت  
ان انفجر بالغضب عندما تنحني لاو شيان متعمدا وهو يمر بى ، ووجهه  
ذو الندوب يكشف عن سروره بسوء حظى . واحتجت الى شخص عطوف  
اتحدث اليه ، ولكن الآخرين كانوا منهمكين فى العمل . وعندها اصبحت  
بانفلونزا رشعت بأننى فى غاية التعاسة .

وحلمت تلك الليلة بأن وجه لاو شيان فوق وجهى مباشرة ، يقول لى  
بفظاظة : ” انك منبوذ . انك لست قادرا الا على ان تصبح متسولا . ”  
ورأيت نفسى فى حلمى اقرض عند احد الجسور مثل واحد من ” القردة  
التي تحرس الجسر ” والتي حدثنى عنها الخصيان عندما كنت صبيا . وشعرت  
بيد تضغط على رأسى فاستيقظت مجفلا . ورأيت شخصا غير واضح المعالم  
يلبس ثوبا ابيض واقفا امامى ليتحسس جبهتى . ” ان حرارتك مرتفعة حيث  
ان نوبة الانفلونزا ازدادت سوءا . لا داعى الى القلق . دعنى افحصك . ”  
كان رأسى يؤلمنى ، وصدغى ينبض بشدة ، وعندما تماسكت عرفت  
ما كان يجرى . لقد سمعنى السجان اهذى فى نومي ، وعندما لم يستطع  
ايضاى استدعى طبيبا . فقاس الطبيب درجة حرارتي ، واعطتنى الممرضة

حقنة ، وعدت للنوم .

وبقيت مريضا مدة اسبوعين ، واخذت اتحسن تدريجيا تحت عناية الطبيب والممرضة . وقد امضيت معظم ذلك الوقت فى سريري ، لا اقوم بالعمل ولا بالدراسة . وفكرت فى هذين الاسبوعين اكثر من سنواتى القليلة الماضية . تسلسلت افكارى من الصناديق الكرتونية الى الوجه المرعب للامبراطورة الامله تسمى شى كما رأيته وانا طفل .

ان ذكرها الغامضة لم تبد لى فى الماضى الا مخيفة ، اما الآن فانى اكرها . لماذا اختارتنى انا لأكون امبراطورا ؟ لقد كنت طفلا جاهلا وبريئا ، لا يقل موهبة فى اية ناحية عن بوجيه على اقل تقدير ، ولكن لأننى وقع على الاختيار لأصبح امبراطورا ، فقد عشت حياة محاصرة تماما . اننى لم اتعلم حتى اكثر المعارف العملية ضرورية ، فنتج من ذلك اننى لا اعرف الآن شيئا بل عاجز تماما . ان معرفتى ومهاراتى اقل مما لدى الطفل ناهيك عما لدى بوجيه . لقد سخر منى لادوان ومثاله وظلمونى ، ولو سمح لى بأن اعيش بمفردى ، لما عرفت كيف استمر فى العيش . أليست حالتى الراهنة هى بسبب غلطة الامبراطورة الامله تسمى شى والامراء ووزراء اسرة تشينغ ؟

كنت سابقا امتلى غيظا وحقدا كلما انتقدنى احد او ضحك منى عدم مقدرتى كما كنت احقد على الحكومة الشعبية التى تحتجزنى . ولكننى الآن رأيت ان هذا خطأ منى . لقد كنت حقا مثيرا للضحك وعاجزا وجاهلا . لقد استأثرت فى السابق من عدم الاحترام الذى عاملنى به ابناء اشقائى ، ولكننى رأيت الآن انه ليس هناك سبب يلزمهم بأن يحترمونى . اننى لم استطع حتى ان اميز الكراث عندما اكلته ، واعترفت بالهة اجنبية على انها من اسلافى .

فما الذى كنت اتصف به بعد هذا كله من السمة السماوية ؟ لقد اخبرنى

لاو تشنغ المنغولى انه عندما تمرد والده بابوچاب فى السنوات الاولى من الجمهورية اقسمت الاسرة بكاملها ان تستعد للموت دعما لاعادة ملكيتى ؛ وان امه كانت تعبدنى كأننى لست اقل من اله . وقال ان من المؤسف جدا انها الآن ميتة ، والا ”لاستطعت ان اخبرها بأن الامبراطور شيوان تونغ ليس الا قمامة“ . هل استطيع ان الوم الناس على قول مثل هذا الكلام ؟ لقد لمت فقط الامبراطورة الارملة وبقية الامراء والوزراء ، وكرهت المدينة المحرمة كراهية جديدة . ورأيت انها عدو اشد خصومة من لاو شيان .

وعندما تحسنت حالى تقريبا ارسل مدير السجن فى طلبى . وبعد ان سألتنى عن صحتى مضى يستجوبنى عن الشجار بينى وبين لاو شيان . وسألتنى ان كان هذا قد سبب لى صدمة . وبعد ان قدمت له وصفا موجزا للمسألة انتهيت الى القول :

— لقد صدمت صدمة شديدة فى ذلك الوقت ، ولكننى الآن لست غاضبا كثيرا . اننى لا اكره الا عدم كفاءتى وجميع الناس الذين كانوا فى القصر ببيكين .

— شىء جيد ان تعترف بعيوبك ؛ فهذا يدل على تقدم . لا حاجة الى ان تبتئس بخصوص عدم كفاءتك ، فبوسعك ان تتغلب على ذلك اذا كنت راغبا فى التعلم . والشىء الاهم من ذلك انك ادركت مصدر عدم صلاحيتك . عليك ان تسأل نفسك لماذا انشأك اولئك الامراء وموظفو البلاط على هذا النحو .

— انهم كانوا مهتمين فقط بمصالحهم ، فلم يعتنوا بى ، بل بأنفسهم فقط .

فأجاب مدير السجن بابتسامة :

— اخشى ألا تكون مصيبا تماما . هل تستطيع ان تقول ان تشن باو



تشن ووالدك قد عملا ضدك قاصدين ؟ هل تعمدا محاولة ايدائك ؟

لم استطع الاجابة .

— يجب ان تعطى هذه المسألة اهتماما شديدا . اذا تمكنت من ايجاد الجواب فان مرضك سيكون نافعا .

وواصلت التفكير فى هذه المسألة بعد عودتى من مكتب مدير السجن ، واسترجعت حياتى الماضية مرات كثيرة قبل اجتماع النقد الذى اشتركت فيه بعد مرضى . وجعائى اخفاقنى فى العثور على جواب ازداد غضبا على غضب . وفى اجتماع النقد هذا انتقد احدهم لاو شيان على ضغينته قائلا انه كان دائما يتعمد مهاجمتى . ومعظم الآخرين عبروا عن آراء مشابهة ، بل ان بعضهم حمل لاو شيان مسؤولية مرضى وأشار الى انه كان قد ترك تأثيرا سيئا فى اعادة بناء انفسنا . فشحب وجه لاو شيان من شدة التوتر وقام بنقد ذاتى متلعثما . ولم اقل شيئا طوال الاجتماع مع اننى كنت التهب حقدا . وعندما اقترح احدهم ان اتكلم ازداد وجه لاو شيان شحوبا . فقامت بصوت خافت :

— ليس عندى ما اقله . اننى لا اكره الا عدم صلاحيتى .

فدهش كل واحد فيهم ، وارتخى فك لاو شيان . وبدأت اصيح :

— اننى اكره القصر الذى نشأت فيه ، اكره النظام الشرير . ما الاقطاعية ؟

الاقطاعية تعنى تدمير الناس منذ طفولتهم .

واحسست بغصة فى حلقى فام استطع المتابعة . واخذ الآخرون يتمتمون

بشيء ما ، ولكننى لم استطع سماع ذلك الشيء .

## وصول المحققين

مع نهاية عام ١٩٥٣ درسنا كتاب « حول الامبريالية » لمدة ثلاثة اشهر ،

وبعد ذلك عدنا الى فوشون في آذار ١٩٥٤ . ولم يمض وقت طويل حتى وصلت مجموعة العمل التابعة لهيئة التحقيق ، وبدأت تستجوب السجناء . واكتشفنا فيما بعد ان الحكومة قد قامت باستعدادات في غاية الدقة لاستقصاء جرائم مجرمي الحرب من اليابانيين ومن ” امبراطورية منشوريا “ ، وقد جندت قوى كبيرة للقيام بهذه المهمة . ونقلت دفعة من مجرمي الحرب اليابانيين الى فوشون . وكان الحكومة قد بدأت في جمع المواد منذ عدة سنوات ، وحشد مائتا محقق تقريبا تلقوا تدريبا فنيا وسياسيا خصوصيين . وبدأ التحقيق مع مجرمي الحرب من ” امبراطورية منشوريا “ باجتماع كبير عقد في نهاية مارس . وبقدرا ما كان يعينا نحن السجناء فان التحقيقات شملت ابلاغات عن جرائم الآخرين واعترافات بجرائمنا ، وقد انتهت في نهاية ذلك العام .

واخبرنا رئيس مجموعة المحققين في الاجتماع انه بعد دراستنا وفحصنا الذاتي خلال السنوات القليلة الماضية حان الوقت لأن نعترف بذنوبنا . ان الحكومة يتعين عليها ان تفحص جرائمنا ، واننا نلتزم بالادراك الصحيح لماضينا والاقرار بجرائمنا ، والابلاغ عن جرائم الامبرياليين اليابانيين وغيرهم من الخونة الصينيين . وعلينا ان نكون امناء سواء في الاعتراف بجرائمنا او الابلاغ عن جرائم الآخرين ، فلا نبالغ ولا نقلل . والقرار الذي ستتخذه الحكومة اخيرا حول كيفية معاملتنا سيعتمد على جرائمنا وموقفنا ، وسياستها هي التي مع من يعترف والشدة على من يرفض الاعتراف .

وفي الاجتماع اعلان مدير السجن بعض اللوائح الجديدة . فمنعنا من تبادل المعلومات في قضايانا ومن ارسال المذكرات الى الزنانات الاخرى ، وما الى ذلك . ومنذ ذلك اليوم بدأت كل مجموعة تخرج الى الرياضة بالتناوب ، وبذلك تعذر لقاء السجناء من الزنانات المختلفة .

وبعد انتهاء هذا الاجتماع عادت كل مجموعة الى زنانتها للنقاش .

وقال كل واحد انه سيقدم اعترافات كاملة وابلاغات تامة ، وانه اعترم بالاعتراف بذنبه كى يحصل على معاملة لينة ؛ ولكن بعضنا ، مثل لاو شيان ، كان قلقا بخصوص ذلك .

وقد لاحظت تخوفه ، فتلاشى ايماني بسياسة اللين مرة اخرى وحلت محله الشكوك . اذا كان مدير مستشفى سابق عنده ما يدعو الى الخوف ، فمن المؤكد ان يكون عندي انا ، الامبراطور السابق ، المزيد من الاسباب التى تدعو الى الخوف .

ونظرا الى اننى قد اعترفت قبل ذلك بجرائمى الرئيسية فان قلقى الكبير قد انحصر فى كيفية اقناعى المحققين بأننى كنت صادقا . لذلك قررت ان اكتب تاريخ حياتى فى مزيد من التفصيل ، بينما اكتب كل ما عرفته من جرائم مجرمى الحرب اليابانيين . ووعدت نفسى بأن افعل هذا فى اجتماع مجموعتنا .

ولم يكن تنفيذ هذا الوعد سهلا . فلدى الكتابة عن نهاية فترة "امبراطورية منشوريا" وصلت الى اعلان الاتحاد السوفياتى الحرب على اليابان . لقد كنت مرعوبا من ان يشك اليابانيون فى ويركلونى جانباً فى تلك الازمة ، فعصرت ذهنى فى التوصل الى طريقة اكسب فيها ودهم . وفى الليل ، بعد سماعى الاعلان السوفياتى للحرب على اليابان ، ارسلت فى طلب تشانغ جينغ هوى وتاكيب (رئيس "مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة فى امبراطورية منشوريا") بمبادرة منى . واعطيتهما "مرسوما" شفويا آمرهما فيه بالتعبئة بسرعة والقيام بكل شىء ممكن لدعم اليابان ضد هجومات الجيش الاحمر السوفياتى . ماذا سأقول بخصوص ذلك الآن ؟ كنت مضطرا الى ذكر ذلك بسبب وجود امكانية معرفة الناس الآخرين لهذا المرسوم ؛ ولكن اذا ذكرته ، أ فلا يجعل هذا التصرف الوحيد الذى اتخذته دون تحريض من اليابانيين ، أفلا يجعل المحققين يشكون فى اننى لم اكن اذن تحت سيطرة يوشيوكا

تماما ؟ واذا هم شكوا فى هذا الامر فان سيرة حياتى كلها ستصبح لاغية :  
وقررت ان لا اقول الكثير حول هذه المسألة . ولن يضيرنى ان اكون  
كنوما بعض الشيء حول بعض الاشياء السيئة التى قمت بها . ووضعت  
اللوم بخصوص هذا المرسوم على يوشيوكا ، ثم دوت الاعتراف مرة اخرى  
ذاكرا بمزيد من التفصيل الاشياء التى تجرأت على ذكرها ، وكتبت الابلاغ  
بكل ما استطعت كتابته عن جرائم الآخرين . وسلمت هذا كله وانتظرت امر  
المحققين للمثول امام القضاء .

وتساءلت كيف سيكون الاستجواب . هل سيكون المستنطق كأى مخاوق  
عادى او مثل وحش ؟ هل سيستخدم معى التعذيب كما كنت اعدب  
الخدم والخصيان المذنبين فى المدينة المحرمة وفى تشانغتشون ؟ وايقنت انه  
سيكون قاسيا . وكنت خائفا من التعذيب ، حتى ولو صفعة على الوجه ، اكثر  
من خوفى من ان اموت . لقد بقيت فى سجن شيوعى مدة ثلاث سنوات ،  
فلم ار الناس يضربون او يشتمون بل كانوا يعاملون بالاحترام اللائق بهم  
بوصفهم بشرا . وهذا كان كافيا لأن يرينى ان مخاوقى السابقة لم يكن لها  
اساس ، الا اننى اقتنعت بأن المستجوب لا بد ان يكون متشككا ويستخدم  
العنف مع من يستجوبه .

وامضيت عشرة ايام قلقة اعانى من وساوس كهذه . ثم جاءت اللحظة  
المخيفة عندما طلب منى سجان ان اذهب لرؤية المحققين .  
واخذت الى غرفة مساحتها عشرة امتار مربعة تقريبا . كان فى وسطها  
مكتب كبير وامامه طاولة صغيرة عليها طاسات الشاي وبريق شاي ومنفضة  
سجائر . وخاف المكتب جلس رجلان ، احدهما كهل والآخر شاب .  
واشارا الى بالجلوس على كرسي بجانب الطاولة . فسألنى الرجل الاكبر سنا  
منهما عن اسمى وعمرى ومسقط رأسى والعرق الذى انتمى اليه ، ومضى  
قلم الشاب يحك قطعة من الورق فيما كان يسجل اجوبتى . وقال الكهل :

— لقد قرأنا اعترافك ، ونود ان نجرى معك حديثا . يمكنك ان تدخن .  
وسألنى عن عدد من الاشياء بدءا من طفولتى الى الوقت الذى قبض  
على فيه . وهز رأسه وانا اجيب كأنما كان راضيا بجوابى :  
— حسن جدا ، سترك ذلك الآن . وقد يكون لدى المستنطق تشاو  
بعض الاسئلة الاخرى ليسألك اياها فيما بعد .

وانهى جو الاستجواب الذى جاء مباغتة تامة قلقي بخصوص التعذيب .  
واصبت بشيء من خيبة الامل لدى استجوابى التالى عندما لم اجد فى  
الغرفة الا تشاو . وتساءلت وانا اجلس امام هذا المستنطق الشاب ان كان  
كفوءا هو الآخر . وهل سيكون قادرا على تفهم اننى قلت الحقيقة ؟ هل  
سيكون له الطبع النزق الذى يكون لدى الشباب ؟ وكلام من سيصدق اذا  
كتب الآخرون عنى تقارير كاذبة ؟  
وقال مقاطعا سلسلة افكارى :

— هناك سؤال اود ان أسألك اياه :

لقد اراد ان يعرف عن الاجراءات الخاصة باصدار الاوامر والمراسيم  
الامبراطورية فى ” امبراطورية منشوريا “ ، فأجبتة بصدق . وعندما ذكر  
لى احد الاوامر ، سألتنى عن الوقت التى رأيت فيه قبل اعلانه . ولم اكن متأكدا  
فأجبت :

— ربما قبل يوم او يومين ، ولكن قد يكون قبل ثلاثة او حتى اربعة .  
— لا داعى لأن تعطى جوابا فى الحال . يمكنك ان تخبرنى عندما  
تتذكر . دعنا ننقل الى سؤال آخر الآن .

ولم استطع ايجاد جواب على السؤال الآخر ايضا . وارتبكت وتساءلت  
ان كان المستنطق سيظن اننى اتعمد اخفاء شيء ويخرج عن طوره . ولكنه  
قال بدلا من ذلك : ” لندع هذا السؤال جانبا ايضا . يمكنك ان تخبرنى  
عندما تتذكر . “ ثم اضطرت الى الازعان لذلك الشاب فى النهاية .

ففى احدى الجلسات - لا اذكر ايها - اخرج بعض المواد التى كنت قد كتبتها ووضعها امامى وسألنى :

- لقد كتبت هنا ان الغزاة اليابانيين اخذوا ستة عشر مليون طن من الحبوب من الشمال الشرقى فى سنة واحدة ، تنفيذا لخطة وضعها فورومى تاداىوكى ، مجرم الحرب الذى كان نائبا لرئيس " مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة فى امبراطورية منشوريا " . فهذا غامض جدا . اية سنة كانت تلك ؟ كيف تعرف رقم ستة عشر مليون طن ؟ ارجو ان تعطينى مزيدا من التفاصيل .

كنت فى الواقع قد سمعت مصادفة اثنين من الوزراء العملاء السابقين فى زيارتى يتحدثان عن ذلك ، ولكن لم استطع الاعتراف بهذا ، لذلك قلت ان اليابانيين قد سلبوا من الشمال الشرقى جميع ثرواته ، واخذوا جميع الحبوب التى كانت مزروعة . فقاطعتنى المستنطق ثانية عند هذه النقطة :

- هل تعرف الانتاج السنوى للحبوب فى الشمال الشرقى ؟

فلم استطع الاجابة بشئ .

- على اى اساس بنيت افادتك فيما كتبت ؟

ورأيت اننى لا استطيع ان اجد لنفسى مخرجا من هذا الوضع ، فاعترفت ان مستندى الوحيد كان القيل والقال .

- اذن أ انت تصدق ما كتبت ام لا ؟

- اننى . . . اننى لا ادرى .

فنظر الى المستنطق وقد جحطت عيناه ، وقال :

- حتى انت لا تصدق ذلك . اذن لماذا كتبت ؟

ولم اعرف ماذا اقول . واغلق قلمه ورتب « حولية امبراطورية منشوريا » و« تقرير الحكومة » السميكين على مكتبه . وبدا واضحا انه لا يريد اى جواب آخر منى ، واقفل الاستجواب قائلا :

— سواء كنت تشير الى نفسك او الى الآخرين عياك ان تتشبه دائما  
بالحقائق .

فنظرت اليه فى صمت ، معترفا لنفسى بحقيقة ما قال ، اذ خفت من  
ان يكذب الآخرون او يبالغوا فيما يقولونه عنى . وخرجت من الغرفة اتساءل  
ان كان جميع المحققين واعين مثل هذا الشاب . ماذا سيحدث لو ان  
شخصا غير كفوء قرأ عنى بعض الاشياء الكاذبة ؟

وسرعان ما حصلت على اجابة عن هذا السؤال عندما اخبرنا لاو يوان  
عن تجربته . لقد سجل رقما استنتجه لمقدار الحديد والفولاذ الذى اخذه  
اليابانيون من الشمال الشرقى . فلم يصدق المستنطق هذا الرقم واعطاه قلم  
رصاص ، وطلب منه ان يحسب كم من الخامات يلزم لانتاج هذا المقدار  
من الحديد والفولاذ ، وكم من الخامات كان يستخرج فعلا فى الشمال  
الشرقى كل سنة . وانتهى لاو يوان الى اخبارنا بأن المستنطق كانت لديه  
اضبارات للموارد الطبيعية فى الشمال الشرقى .

وفهمت الآن لماذا كان لدى المستنطق تشاو كل هذه الكتب الارشادية  
على مكتبه . وللتحقق من جميع الادلة المكتوبة امضى مئات المحققين اكثر  
من سنة يطوفون فى كافة انحاء البلاد ويقرأون الاضبارات بأعدادها الكبيرة  
والموزونة بالطن كما اكتشفت عندما وقعت على الاستنتاجات العامة التى  
كتبها عنى المحققون .

وسبب اصطدامى بهذا المحقق الشاب هو انه كان واعيا جدا فى بحثه  
عن الحقائق ، واننى كنت اخشى بغياء ان يظن اننى لست امينا . لذلك  
اسرعت فى كتابة نقد ذاتى وارسلته اليه . ومن ثم شعرت ان الوضع ليس  
بالغ الخطورة .

## معاناة وحقد الشعب فى الشمال الشرقى

لم اعرف ابدا ولم اهتم بمعرفة الكوارث التى انزلها اليابانيون بشعب الشمال الشرقى ، ولم افكر قط فى ان يكون لهذه الكوارث ما يعنيه بخصوصى . ولكن عندما حضرت اجتماع دراسة حول جرائم مجرمى الحرب اليابانيين فى الشمال الشرقى ادركت مدى خطورة هذه الجرائم . لقد ترك هذا الاجتماع الذى اشترك فيه مجرمو الحرب اليابانيون انطباعا عميقا جدا فى نفسى . وكانت اكثر الشهادات باعثا على الدهول اعترافات فورومى تادايوكى ، نائب رئيس ” مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة فى امبراطورية منشوريا “ ، واعترافات قائد درك سابق فيها .

كان فورومى مفضلا لدى الجيش اليابانى ، وواحدا من حكام ” امبراطورية منشوريا “ الحقيقيين . وقد خطط هو ورئيسه تاكيب روكوزو ، عملا بأوامر جيش قواندونغ ، ونفذوا حكم الشمال الشرقى وسلبه . وقد تكلم بمزيد من التفصيل عن سياسة انتزاع الاراضى بالقوة من الفلاحين فى الشمال الشرقى لتوطين المهاجرين اليابانيين ، وعن ” الخطة الخمسية لتطوير الانتاج “ التى وضعت لسلب الموارد الطبيعية فى الشمال الشرقى ، وعن استخدام الافيون لتسميم الشعب ، وعن سياسات اخرى كثيرة ، بما فى ذلك انتزاع كل ما لدى الاهالى من الحبوب والمنتجات الاخرى كجزء من الاستعدادات لحرب الباسيفيك . كما تحدث عن بعض عواقب هذه السياسات ، وكان كل مثال ذكره نموذجا للوحشية . ففى عام ١٩٤٤ ، مثلا ، جند اكثر من خمسة عشر الف عامل من الشمال الشرقى كله تجنيدا الزاميا من اجل البناء العسكرى بوانغيمياو فى جبال شينغان . وكانت الظروف التى اجبروا على العمل خلالها سيئة للغاية بحيث مات منهم اكثر من ستة آلاف عامل .

وكان لدى فورومى ايضا الكثير مما يمكن قوله عن سياسة الافيون



اليابانية . لقد بدئ بهذه السياسة في اوائل عام ١٩٣٣ عندما اصبح الجيش الياباني يشكو من نقص في الاعتمادات المالية قبل غزوه رخه . ونظرا الى انه لم يسيطر على انتاج الافيون في الشمال الشرقى في ذلك الحين ، فقد استورد اكثر من مليوني آونس من الافيون الاجنبى وبعث المنشورات بالطائرة في كافة انحاء رخه لتشجيع زراعة خشخاش الافيون . وحوالى عام ١٩٣٦ وسع الجيش الياباني الى حد كبير المساحة الخاضعة لزراعة الافيون في "امبراطورية منشوريا" ، وفعل كل ما في وسعه لتوسيع الانتاج ، وفيما بعد اعطى لنفسه الحق القانونى في احتكار بيع الافيون . واسس اليابانيون "جمعيات لمنع تدخين الافيون" في كل مكان ، واقاموا صالات للتدخين زودوها بـ "مضيفات" ، وبدلوا جهودا كبيرة لنشر الادمان بين الشباب . وفي عام ١٩٤٢ عقد "مجلس انعاش آسيا" "مؤتمرا حول احتياجات الافيون وانتاجه في الصين" ، اتخذ قرارا ينص على ان "تغطى امبراطورية منشوريا ومناطق حدود منغوليا متطلبات الافيون لمنطقة الازدهار المشترك في شرقى آسيا العظمى" ؛ وبعد ذلك زادت المساحة الخاضعة لزراعة الافيون في الشمال الشرقى الى ٣ آلاف هكتار . ووفقا لحسابات فورومى فان "امبراطورية منشوريا" قد انتجت اكثر من ٣٠٠ مليون آونس من الافيون قبل انهيارها . بلغت ارباحها في عام ١٩٣٨ سدس الدخل الاجمالى للحكومة العميلة ؛ وفي عام ١٩٤٤ وصل الى ٣٠٠ مليون يوان ، اكثر بمائة مرة عما كان عليه في بداية "امبراطورية منشوريا" ، وبذلك تزودت اليابان بمصدر من اهم مصادر التمويل لحربها العدوانية . وكان في رخه وحدها ما يقارب من ٣٠٠ الف مدمن افون ، وفي الشمال الشرقى عامة وصل معدل مدخنى الافيون الى واحد من كل عشرين نسمة .

وشهد ضابط درك بأن رجال الدرك غالبا ما كانوا يقومون بمذابح جماعية ، ويحشدون الناس بعدها لرؤية الجثث . فكانوا احيانا يقبضون على عدد من

الناس يعتبرونهم مريبين ، فيصفونهم صفا واحدا ويختارون واحدا منهم عشوائيا ، ثم يشقونه بسيف امام الجميع . ولقد قتل بنفسه اكثر من ثلاثين ضحية بهذه الطريقة . وكان المقبوض عليهم يخضعون لشتى الوان التعذيب : فكانوا يضربون ؛ ويصب في انوفهم الماء البارد وماء الفلفل الحارق والكبروسين ؛ وكانوا يحرقون بأعواد البخور او بالمساعر المحمأة حتى الاحمرار ؛ وكانوا يعلقون بالمقابو . . .

والى جانب ما عاناه اهالى الشمال الشرقى على ايدى الغزاة اليابانيين مباشرة ، ليس من الصعب اظهار الحقائق والارقام بخصوص ما تعرضوا له من تعذيب على ايدى الحكومة العميلة والخونة الصينيين . فقد سلبت منهم عمليا من خلال الاوامر وسياسات الحبوب المتعددة ، ومن خلال نظام تزويد اليابان بالحبوب ، جميع الغلال التى كانوا ينتجونها كل سنة، وفى نهاية فترة "امبراطورية منشوريا" استطاعوا فقط ان يحافظوا على انفسهم احياء بواسطة اكلهم "الدقيق المركب" الذى يتكون من قشرة الذرة وحثالة فول الصويا بعد استخراج الزيت منه ودقيق البالوط . وكانت الحبوب التى تؤخذ منهم تحفظ للاستخدام العسكرى او ترسل الى اليابان . وقد ارتفع المقدار الذى يرسل الى اليابان سنويا الى ٣ ملايين طن عام ١٩٤٤ ؛ وبلغ مجموع ما ارسل فى السنوات الست الاخيرة من فترة "امبراطورية منشوريا" الى اكثر من ١١٠٠٠٠٠٠٠ رطل . ونتيجة للقوانين التى كانت تحكم الحبوب والاقمشة القطنية والمعادن وغير ذلك من السلع وجد الاهالى انفسهم يتحاون الى "مجرمين اقتصاديين" . فكان الناس العاديون مثلا ممنوعين من اكل الارز ، ويمكن ان يعاقبوا بوصفهم "مجرمين اقتصاديين" اذا اكتشفت بقايا ارز فى قبضتهم . وفى عام ١٩٤٤ - ١٩٤٥ وحده عوقب ٣١٧١٠٠ مواطن بصفة "مجرمين اقتصاديين" .

وعلاوة على الحبوب ، فقد الفلاحون اراضيهم . فى السنتين الاخيرتين

من فترة "امبراطورية منشوريا" انتقل ٣٩٠ الف مهاجر يابانى الى الشمال الشرقى ، فأخذت الحكومة العميلة ٣٦.٥٠٠.٠٠٠ هكتار من الارض من اهالى الشمال الشرقى لتقديمها لهؤلاء المهاجرين .

وعندما اراد اليابانيون سلب الموارد الطبيعية من الشمال الشرقى وتحويلها الى قاعدتهم الاقتصادية ، استخدموا الحكومة العميلة لاستعباد اهالى الشمال الشرقى من خلال شتى الحيل الماكرة . وبعد ان صدر باسمى "قانون ضبط العمل" عام ١٩٣٨ كان يساق سنويا ٢.٥٠٠.٠٠٠ رجل ( باستثناء اولئك الذين جندوا جنوب السور العظيم ) للعمل بالسخرة . ومعظمهم عملوا فى التعدين والبناء العسكرى ، وقد ماتوا بأعداد كبيرة بسبب الظروف المخيفة التى اشتغلوا فيها . وفى مشروع واحد هو "مشروع منع الفيضان" فى مدينة لياويانغ سنة ١٩٤٤ مات ١٧٠ عامل شاب من اصل ٢٠٠٠ عامل سيقوا للسخرة هناك .

وكان جميع الفلاحين والعمال العاديين والطلبة والشباب غير الصالحين للخدمة العسكرية مضطرين الى الاشتراك فى هذا العمل الاستعبادى الذى كان يدعى رسميا "العمل الطوعى" .

والذين عانوا اسوأ المعاناة هم نزلاء "الاصلاحيات" . ففي نهاية عهد "امبراطورية منشوريا" وصلت وحشية الحكم اليابانى الى حد الجنون . فأعلن "قانون تقويم الفكر" و "قانون الامن والتقويم" عام ١٩٤٣ فى محاولة لحل مسألة النقص فى اليد العاملة وكبح تزايد مقاومة الشعب ، وقيمت معسكرات الاعتقال فى كافة انحاء الشمال الشرقى تحت اسم "الاصلاحيات" . وقد القى فى هذه الاصلاحيات حشود من المملقين بتهمة التشرد ، وكذلك من الساخطين بتهمة "الافكار السيئة" واجبروا على القيام بالاعمال الشاقة . وكانت السلطات احيانا توقف المارة وتصنفهم كـ "متشردين" دون ان تزجج نفسها بمجرد سؤالهم ، ومن ثم تلقى بهم الى احدى "الاصلاحيات" التى

لا يخرجون منها بعد ذلك ابدا :

والتلاء الذين ظاوا احياء بعد انهيار " امبراطورية منشوريا " يخبرون الحكومة الشعبية الآن بكل مرارة وحقد عما فعله الحكام العملاء بهم . لقد قبض على فلاح من مدينة خقانغ عام ١٩٤٤ واخذ الى المقر الرئيسى للشرطة بتهمة قيامه بنشاطات معادية لامبراطورية منشوريا واليابانيين . وكان معه هناك سبعة عشر شخصا آخرون وبعد ان ضربوا ضربا عنيفا اخذوا الى اصلاحية خقانغ واجبروا على العمل فى استخراج الفحم من مناجم دونغشان . وكانوا ملزمين بالعمل اثنتى عشرة ساعة يوميا ، لا يعطون خلالها الا كتلة صغيرة من الذرة الرفيعة فى كل وجبة ، ولا يعطون ملابس او افرشة ، وكانوا يضربون بمنتهى الوحشية . قال هذا الفلاح :

سمعت امى اننى فى الاصلاحية ، فجاءت الى المكان الذى كنت اعمل فيه لترانى عبر السلك الشائك . وعندما رآها الشرطة قبضوا عليها من شعرها وظلوا يركلونها الى ان تكومت على الارض ولم تقدر على النهوض . وبعد ذلك ضربونى بالمجارف حتى اثخنونى بالجروح وغبت عن الوعى سبعة ايام . وذات مرة ، احتجنا الى خضار نأكله مع وجباتنا فاشتري سجين يدعى سونغ كاي تونغ بعض البصل من احد المارة ببعض النقود منى . فراه رئيس القسم الخائن وانغ ، فاستدعانا كلينا ، واخذ منى خمس يوانات وامر بضربى ضربا مبرحا بحيث نزفت دما من فمى وانفى . ثم امرنى بالدخول فى كيس ودفعنى فيه بالضرب على رأسى عندما رفضت ، ولما اصبحت داخل الكيس رفعوا الكيس واسقطوه ثلاث مرات ، وفى المرة الثالثة فقدت الوعى . وكان الناس هناك يمتوون يوميا ، وكل ثلاثة او اربعة ايام يتم اخراج سبع او ثمانى جثث . ومات تسعة من السبعة عشر رجلا الذين قبض عليهم معى . وقد اصبت انا بالسل ، وما زلت غير قادر على العمل . واصيبت امى بالجنون ، واضطر اشقائى الثلاثة ، واكبرهم لم يتجاوز الحادية عشرة من العمر ، الى التسول لسد رمقتهم .

ان القمع الذى كان الشعب يتعرض له فى الشمال الشرقى على يد الجيش والشرطة والمحاكم والسجون فى "امبراطورية منشوريا" ينطوى على فظائع دموية لا يحصى عددها . ولقد شهد الفلاح هوانغ يونغ هونغ البالغ من العمر واحدا وستين عاما والذى القى القبض عليه لأنه بعث برسالة الى الجيش المتحالف ضد اليابانيين ، شهد جريمة مذبحة جماعية وصفها كالتالى :

" فى اليوم السادس والعشرين من الشهر الثانى وفقا للتقويم القمري ( الصينى ) اخذت الشرطة العميلة اكثر من ثلاثين سجيننا منا ليذهبوا ويحفروا حفرة خارج بوابة تشاويوان الغربية . وعدنا الى السجن بعد حلول الظلام . وفى اليوم السابع والعشرين اخذت انا ووانغ يا مين وقار شو سان وليو تشنغ فا فى مجموعة واحدة واخذ عشرون آخرون فى مجموعة اخرى الى خارج البوابة الغربية ، حيث اطلق الرصاص على مجموعة العشرين كلها . ثم جاءوا بدفعة اخرى من اثنين وعشرين رجلا ورموهم بالرصاص ايضا . وبعد رميهم صب رجال الشرطة البنزين على جثثهم واشعلوا فيها النار ، وكان احدهم حيا ، وعندما ادركته النار حاول ان يهرب ولكن الشرطة اطلقوا عليه النار وقتلوه . وعندما احترقت هذه الجثث طلبوا منا ان ندفنها . وما يزال القبر هناك خارج بوابة تشاويوان الغربية ، وبوسعى ان اجد المكان ثانية .

هذا الجحيم الارضى كان يدعى "الفرديوس على الطريقة الملكية" الذى حكمت فيه بصفة "رئيس تنفيذى" ثم بصفة "الامبراطور كائغ ده" .  
وجميع هذه الاعمال الوحشية قد نفذت باسمى . فلا عجب فى ان تنتهى جميع شهادات ضحايا نظام "امبراطورية منشوريا" بالعبارة التالية :  
"اننى اطالب الحكومة الشعبية بأن تنتقم لنا . اننا نريد من اليابانيين والخونة الصينيين ان يدفعوا ما فى اعناقهم من دين الدم ."  
"انتقموا لعوائلنا التى قتلت . عاقبوا اليابانيين والخونة ."

” انك لا تستطيع ابدا ان تنجو من عواقب خطاياك “

كانت المشكلة اكثر خطورة من ذلك :

لقد اثارنا نحن مجرمى الحرب ” المانشويين “ الاعترافات والافشاءات التى ادلى بها مجرمو الحرب اليابانيون واتهامات ابناء الشعب فى الشمال الشرقى . وكانت ردة الفعل بين الشباب منا قوية ، ولقد كشفنى ابناء اشقائى وزوجا شقيقتى ولى الكبير . وجدت نفسى محاطا بالكراهية حتى داخل اسرتى . فقد كنت كأنى اقف ضمن دائرة من المرايا ، فأينما نظرت رأيت صورتى الكريهة .

بعد حضورنا اجتماع الدراسة الخاص بمجرمى الحرب اليابانيين جمعنا وطلب منا ان نتحدث عن ذلك . وكان بعضنا ما يزال شديد الاثارة بحيث اقسام ان يعترف بجرائمه ويبلغ عن جرائم الآخرين . وكان الهدف الرئيسى للاتهامات تشانغ هوان شيانغ ، وزير العدل العميل الذى ذهب الى ابعد الحدود فى كسب الحظوة لنفسه لدى اليابانيين واصبح الآن غير مرغوب فيه حتى فى السجن تماما لأنه يعتمد اتلاف الطعام ، ويخرق لوائح السجن ، ويصرخ فى وجه السجناء وما الى ذلك . وقد حذره بعضنا من انه اذا لم يتصرف على نحو لائق فى المستقبل فان الحكومة لا يمكن ان تصفع عنه . ونظرا الى اننى خشيت من ان اعامل بهذه الطريقة ، فقد كنت قلقا اخاف ان يظن الآخرون اننى لا اتصرف على النحو اللائق . ولما لم يكن مسموحا لنا فى ذلك الوقت ان نخبر بعضنا بعضا عن اى شىء من الاعترافات التى ادلىنا بها والمعلومات التى قدمناها ، فقد خفت ألا يعرف الآخرون اننى قد اعترفت ، لذلك قررت ان اتكلم فى الاجتماع . وعندما اخبرتهم فى الاجتماع بكل شىء اعترفت به ووصلت الى نهاية حديثى ، وثب قو الصغير على قدميه وسألنى : — لقد قلت الكثير ، أليس كذلك ؟ ولكن لماذا لم تذكر تلك المذكرة ؟

فقيت كالأبكم لحظة من الوقت . ثم نهض شيو الصغير أيضا وقال :  
— المذكرة ، مذكرة روى الصغير . لقد قلت الآن انك سلمت تلك  
المجوهرات بمبادرة منك . لماذا لم تقل ان روى الصغير قد حثك على  
ذلك ؟

فسارت الى سد هذه الثغرة في قصتي قائلا :  
— اجل ، اجل ، كنت سأذكر ذلك . لقد كان روى الصغير هو  
الذى نورنى ...

ولكن النظرات المحملقة الى من شيو الصغير وقو الصغير دلت بكل وضوح  
على انهما غير راضيين بهذا . ومن حسن الحظ ان الاجتماع كان قد انتهى  
حينذاك .

وعندما عدت الى ززانتي كتبت نقدا ذاتيا وسلمته الى مسؤول السجن .  
لقد ايقنت ان مدير السجن سيغضب منى ، واستأثت اشد الاستياء من روى  
الصغير لاجل الاخبار الآخريين بأمر المذكرة . كان قو الصغير وشيو الصغير ،  
عضوى اسرتى ، قاسيين حقا بتصرفهما هذا اذائى . انهما لم يكونا وفيين لى  
حتى مثل لى الكبير . وقد رأيت بعد وقت غير طويل التقارير التى كتبها عنى  
وايقنت عندها ان التغيير الذى حدث داخل اسرتى كان اكثرا اخافة مما تخيلت .  
كان هناك نظام ينص على ان يقرأ كل سجين التقرير الذى يتضمن اتهامات  
ضده ، فأحضر لى المستنطق تشاو رزمة من التقارير عنى ، وقال : " عندما  
تتهى من قراءتها وقع على التى توافق عليها . واذا كنت لا توافق ، فقدم  
اعتراضاتك . "

وكانت التقارير الاولى التى رأيتها موجهة من بعض الوزراء العملاء السابقين ،  
ربما انها كانت لا تشير الا الى وقائع معروفة ، وقعت عليها كلها . ولكن  
عندما بدأت أقرأ التقارير التى كتبها افراد اسرتى سرعان ما تعرفت راحة يدى .  
وتضمن تقرير زوج شقيقى لاو وان ، مقطعا يقول :

فى مساء ٩ اغسطس ١٩٤٥ ذهبت الى القصر لأرى بو يى . فوجدته يكتب شيئا ، وتشانغ جينغ هوى وتاكيب ينتظران خارج غرفته لمقابلته . واطلعتى بو يى على ما كتب ، وكان المضمون العام هو ان على جميع قوات "امبراطورية منشوريا" المسلحة ان تقاتل الى جانب الجيش اليابانى الامبراطورى وتحطم العدو الغازى (الجيش الاحمر السوفياتى) . وقال انه سيسلم هذا الامر الى تشانغ جينغ هوى وتاكيب ، واراد ان يعرف ان كان لدى اى اقتراح اقوله . فقلت ليس هناك من بديل .

وكانت هذه كارثة ، اذ اننى وضعت اللوم فى ذلك على يوشيوكا . وكانت شهادة لى الكبير اكثر اربابا . فقد وصف رحيلى من تيانجين ، وذكر كيف اتفقت معه على التثبيت بالقصة القديمة قبل ان اكتب سيرتى الذاتية . ولم يكن هذا كل ما فى الامر . فقد كشف سلوكى اليومى بقدر كبير من التفصيل ، مينا كيف تصرفت مع اليابانيين وكيف عاملت افراد اسرتى . ولو كانت هناك حالة او حالتان من هذا النوع لهان الامر ، ولكن هناك قائمة هائلة من الاتهامات .

فقد كتب لائ وان مثلا :

عندما كانت تعرض افلام فى القصر كنا ملزمين بالوقوف اذا ظهر الامبراطور اليابانى على الشاشة ، وبالتصفيق للجنود اليابانيين اذا شنوا هجوما . وذلك لأن الذين يشغلون الفيلم كانوا يابانيين . وكانت هناك حملة للاقتصاد فى الفحم عام ١٩٤٤ ، فأصدر بو يى اوامر بألا تشعل المواقد بعد ذلك فى جيشيلو (مبنى فى القصر) لارضاء يوشيوكا ، ولكنه استخدم فى غرفته موقدا كهربائيا دون علم يوشيوكا .

وعندما هرب بو يى الى داليتسيقو وضع الالهة اليابانية وصورة ام هيروहितو فى عربته فى القطار ، وكان يقوم بانحناء مقدارها تسعون درجة كلما مر بالصورة وامرنا ان نفعل مثله .



وتضمن تقرير روى الصغير مقطعا حول الايتام الذين استخدمتهم غلمانا وكشف عن المعاملة السيئة التى عوملوا بها والعقوبة القاسية الجائرة التى كنت انزلها بهم فى غالب الاحيان . كما بلغ عن موت الغلام الذى حاول النجاة .

وصيغة الاتهامات التى وجهها ضدى لى الكبير لم تترك شيئا خفيا من احقاده :

لقد كان هذا الشخص ، بو يى ، قاسيا وخائفا من الموت ، ومتشككا للغاية ، وكان كذلك شديد المكر كثير النفاق . وكانت معاملته لخدمه لا انسانية : يشتمهم ويضربهم لأتفه سبب . واذا شعر بالثعب او الضجر فان على الخدم ان يتحملوا مغبة ذلك ، وكانوا محظوظين اذا ما تعرضوا فقط للصفع والركل . ولكن عندما يكون مع غرباء فانه يتصرف كأنما هو ألطف انسان على وجه الارض .

وكانت عاداته فى تيانجين ان يأمر بضرب الناس بعضى خشبية او بكراييج الخيل . وفى عهد ” امبراطورية منشوريا “ اضيفت اشكال جديدة اخرى من التعذيب . . .

وجعل كل واحد يتصرف كأنه شريكه . فكان اذا اراد ان يضرب شخصا ما ، فهو يشك فى كل من يرفض ان يقوم بالضرب تنفيذا لأمره او لا يضرب بقسوة كافية بأنه متواطىء مع المذنب . واذا ما حدث ذلك فان الذى كان من المفروض ان يتولى الضرب يضرب هو الآخر وعلى نحو اقصى عدة اضعاف . وكان جميع ابناء اشقائه واتباعه يجلبون له الناس ما بين حين وآخر . وضرب احد الغلمان ، واسمه تشو بوه رن ( يتيم ) فى الثانية عشرة او الثالثة عشرة من عمره ، ذات مرة بوحشية بالغة بحيث اصيب بجروح بطول قدم فى فخذه ، استغرقت شهرين او ثلاثة اشهر الى ان التأم تحت اشراف الطبيب هوانغ . وفيما كان هذا الصبى يتحسن طلب منى بو يى ان آخذ له لبنا واشياء اخرى واقول له : ” ما الطف صاحب الجلالة معك ! هل كنت تحصل على اشياء طيبة كهذه واثت فى الميتم ؟ “

ولدى قراءتى هذا الاتهام الاخير بدأت اشك فى التقرير الذاتى الذى كنت الجأ اليه فى الماضى . لقد ظننت فى السابق ان كل شىء فعلته قد تم تبريره . فأنا لم اكن ازيد عن خضوعى لضغط اليابانيين فنفذت اوامره ، لأننى كنت مجبرا على ذلك ؛ اما معاملتى لأهل بيتى ، وتعذيبهم ، فكنت دائما ما ابدو فيه محققا . اما ان اتذلل للقوى واتنمر على الضعيف فهذا كان امرا طبيعيا ومعقولا بالنسبة لى ، وقد تخيلت ان كل واحد فى موضعى سيتصرف نفس الشىء . ولكننى الآن ادركت ان هذا ليس هو الوضع الطبيعى للناس ، وان تبريرى الذاتى باطل تماما .

ليس هناك ، برغم كل شىء ، اضعف من السجناء الذين يعجرون من جميع حقوقهم ، ولكن الشيوعيين الذين اخذوا بزمام الساطة لم يضربوهم او يشتموهم ، كما انهم لم يعتبروهم اقل شأنًا من البشر . اما القوة ، فان الجيوش الامريكية بمعداتهما من الدرجة الاولى يمكن اعتبارها "قوية" ، ولكن القوات الشيوعية لم تخف منها على الرغم من رداءة معداتهما ، بل تجرأت على مقاتلتها مدة ثلاث سنوات الى ان اجبرتها على توقيع هدنة .

ولقد رأيت مؤخرا المزيد من الامثلة الجديدة . فمن الاتهامات الجماهيرية علمت ان كثيرا من ابناء الشعب العاديين لم يتبعوا عقيدتى ازاء العنف والاضطهاد . فكان هناك فلاح من محافظة بايان يدعى لى ديان قوى عانى من اضطهاد اليابانيين والخونة الصينيين كل المعاناة . وقد عاق آماله فى الخلاص على الجيش المتحالف ضد اليابانيين . ففى عيد رأس السنة الصينية عام ١٩٤١ ارسل الى المقاتلين المعادين لليابانيين دو واحد (١٥) من . الدخن ٤٧ كعكة مفتولة مقلية و ١٢٠ بيضة وعلبتين من السجائر . وفيما بعد اكتشفت الشرطة العميلة ذلك فألقت عليه القبض . فعاق وجلد ، ثم اعطى صدمات كهربائية . ووضعت بجانبه الجثث النازفة ، جثث الذين ماتوا تحت التعذيب ، لاختافته ، وكان ذلك لاجباره على كشف بعض الاسرار الهامة المتعلقة بالقوات المعادية

اليابانيين : واستمر تعذيبه الى ان حرر بعد استسلام اليابانيين .  
وفي عام ١٩٤٣ ، اخذ لي ينغ هوا من قرية جينشان ، وكان ما يزال  
طفلا ، بعض البيض الى المقاتلين ضد اليابان ، وعندما اكتشف جواسيس  
الشرطة ذلك اخذ الى المقر الرئيسى للشرطة . وفي البداية قدموا له الشاى والسجائر  
ودعوه لأكل جياو تسى قائلين : ” انك مجرد طفل ولا تدرك الامور ، لذلك  
اذا تكلمت فاننا سنتركك تذهب . “ ودخن لي ينغ هوا السجائر ، وشرب  
الشاى ، واكل جياو تسى . وفي النهاية قال : ” اننى مجرد مزارع ولا اعرف  
شيئا . “ فعلقه العملاء رأسا على عقب وضربوه ، واعطوه صدمات كهربائية ،  
واحدوا في جسمه حروقا ، وعروه من ثيابه ليضربوه بهراوات شائكة ، ولكنهم  
لم ينتزعوا منه اية معلومات .

لقد عرفت الآن انه ليس جميع الناس على هذه الارض ضعفاء . وكان  
التفسير الوحيد لتصرفاتى فى الماضى هو اننى تنمرت على الضعيف ونخفت من  
القوى ، واننى خفت من الموت وطمعت فى الحياة . وتسويغى الاساسى هو ان  
حياتى كانت فى نظرى اكثر من غيرها قيمة واننى كنت جديرا بأن اصان  
اكثر من اى شخص آخر . لقد تعلمت فى السنوات القليلة الماضية شيئا من  
قيمى الحقيقية من محاولتى غسل ملابسى وصنع الصناديق ، واصبح لدى  
الآن عن ذلك فكرة اكثر وضوحا من خلال اتهامات ابناء الشعب العاديين وافراد  
اسرتى ضدى .

وفى المرايا التى تحيطنى رأيت اننى رجل مذنب ، ومفتقر الى كل صفة  
من الصفات الحميدة ، وليس هناك اى تسويغ ممكن لسلاوكى .  
وهكذا وقعت على الاتهام الاخير ضدى ، وانطلقت فى الممشى وذهنى  
مفعم بالندم والاسى .

” انك لا تستطيع ابدا ان تنجو من عواقب خطاياك . “

## الفصل التاسع

# اقبل اعادة تكوين نفسى

## كيف أصبح انسانا ؟

”لقد بدأت سنة جديدة . فما برنامجك بخصوصها ؟“ هذا كان السؤال الذى سألنى اياه مدير السجن فى عيد رأس السنة عام ١٩٥٥ . فقلت انه ليس امامى الا ان انتظر عقوبتى . فهز المدير رأسه وقال معترضا بشدة :

— لماذا انت متشائم جدا ؟ يجب ان تقف موقفا ايجابيا من اعادة بناء نفسك وتسعى جاهدا الى ان تصنع من نفسك انسانا جديدا . فهدأتنى هذه الكلمات ولو انها لم تستأصل تشاؤمى . وشعرت بأننى واقع فى هاوية الاحتقار الذاتى الذى لعب الآن دورا اكبر فى تفكيرى من المخاوف التى كانت مسيطرة على بخصوص ادانتى .

وبينما كنا ذات يوم فى باحة السجن خلال فترة الاستجمام جاء مراسل صحفى ، معه آلة تصوير ليالتقط لنا صورا . ونظرا الى ان فترة الاتهام والاعتراف بذنوبنا قد انتهت ، فقد سمح لنا بأن نقضى فترة استجمامنا فى الفناء سويا ، واضيفت الى الفترة نصف ساعة اخرى . كان الفناء يعج بالنشاط ، بعض الناس يلعب بالكرة الطائرة وكرة الطاولة وبعضهم يتحادثون وبعضهم يغنون . . . وبعد ان صور المراسل كل هذه المشاهد جاء فى النهاية ليأخذ صورة لى . وكان يقف الى جانبى موظف سابق فى ”امبراطورية منشوريا“ يتفرج على اللعب ، فلاحظ ما سيفعله المراسل ، فابتعد عنى مسرعا وهو يقول : ”لن اتصور معه .“ وعلى الفور ابتعد عنى جميع الذين كانوا يقفون قريبا منى .

وخلال شهر مارس - آذار - جاءت مجموعة من قواد جيش التحرير لتفتيش السجون الخاصة بمجرى الحرب التي كانت تابعة لموقع شنيانغ العسكري فاستدعاني مدير السجن انا وבו جيه لنذهب ونراهم . وعندما رأيت القاعة تغص بالكثفيات الذهبية ظننت لأول وهلة ان هذه لا بد ان تكون محكمة عسكرية ، ولكنني اكتشفت بعد ذلك ان الجنرالات يريدون ان يعرفوا دراستي . وكانوا ودودين جدا معي ، وظهروا اهتماما كبيرا في ما قلته ، وسألوني عن طفولتي وعن حياتي ايام ” امبراطورية منشوريا “ . واخيرا قال قائد ملتحي منهم : ” ادرس جيدا واعد بناء نفسك . ستكون في المستقبل قادرا على رؤية بناء الاشتراكية بأم عينيك . “ ولدى عودتي الى ززانتي ظننت انه يجب ان يكون برتبة مشير ، فقال بو جيه انه لم يكن المشير الوحيد بينهم . فتأثرت تأثرا عميقا . ان الشيوعيين ، الذين لم اتوقع ان يظهروا لي ادنى تسامح ، قد عاملوني بالفعل على انني انسان ، سواء كانوا مشيرين او سجانين . ولكن زملائي المساجين لم يكونوا على استعداد حتى للوقوف الى جانبي ، كأنما انا شيء اقل من انسان .

وبعد ان عدت الى ززانتي اخبرت زملائي فيها بما قاله المشير . فقال لاو يوان ، السفير السابق لـ ” امبراطورية منشوريا “ لدى اليابان واسرع رجل ادراكا في ززانتنا : ” اهنتك يا لاو بو . اذا قال المشير انك ستكون قادرا على رؤية البناء الاشتراكي ، فهذا يعني انك في امان . “

وبعث هذا سرورا غامرا لدى الآخرين جميعا . اذا كان الخائن رقم ١ في امان ، فمن المؤكد انهم سيكونون على ما يرام .

بعد انتهاء فترة الاتهام والاعتراف بالذنوب اصبح الكثير منا يركزون اهتمامهم على المستقبل . فلاوشيان مثلا لم يبتسم ابتسامة واحدة منذ بداية هذه الفترة ، اما الآن فقد تهلل وجهه بابتسامة عريضة وربت على كتفي بحرارة وقال : ” اهنتك يا لاو بو ، اهنتك . “

ورفع الآن الحظر عن التكلم مع بعضنا خلال فترة الاستراحة ، ولم تعد زنزاناتنا تقفل خلال النهار . وصادف ان جاء شخص الى زنزانتنا فى تلك اللحظة ، فانتشرت على الفور الاخبار المفرحة فى كافة انحاء السجن . وفكرت فى ابناء اشقائى ولى الكبير الذين تجاهلوني منذ بدء فترة الاتهام والاعتراف بالذنوب ؛ وايقنت ان هذه الانباء ستجعلهم يبتهجون ، فتعللت بذلك لكى اذهب واتحدث معهم . ورأيت قو الصغير وشيو الصغير بجانب شجرة فى ركن من الباحة . ولكن قبل ان اصلهما غادرا المكان .

وفى ابريل - نيسان - طلبت سلطات السجن منا ان ننتخب لجنة دراسة كما فعل مجرمو الحرب اليابانيون . وقد مكثنا هذه اللجنة التى كانت خاضعة لاشراف السلطات من تنظيم دراستنا وحياتنا اليومية ؛ وكانت مسؤولة عن نقل اية مشكلة نثيرها الى مسؤولى السجن ، وعن كتابة تقارير باجتماعات النقاش والنقد . وكان بوسعها كذلك ان تبادر الى تقديم بعض الاقتراحات . وكانت تتألف من خمسة اعضاء انتخبوا انتخابا ووافقت عليهم سلطات السجن ؛ وفيهم رئيس ، واربعة اعضاء آخرين يتولى كل واحد منهم مسؤولية احد النشاطات الاربعة : الدراسة والحياة اليومية والرياضة والاستجمام . وكان مسؤول الدراسة ومسؤول الحياة اليومية فى كل زنزانة ملزمين بتقديم التقرير الى العضو المعنى فى اللجنة كل يوم . وحرك هذا الابتكار السجناء ، واعتبرناه دليلا على ثقة السلطات باعادة بناء انفسنا . وادرك بعض منا ادراكا اوضح من ذى قبل ان اعادة بناء النفس تتوقف علينا . وبرهنت الحقائق فيما بعد على ان هذه اللجنة قدمت الكثير من المساعدات فى اعادة بناء انفسنا . ولكن مشاعرى ازاء ذلك فى البداية لم تكن كمشاعر الآخرين تماما . وهذا بسبب ان اثنين من الاعضاء الخمسة كانا من اقربائى الذين وجهوا ضدى اشد الاتهامات خطورة . احدهما لاو وان ، الرئيس ، الثانى روى الصغير ، العضو المسؤول عن الحياة اليومية .

وبعد ان انشئت هذه اللجنة بوقت غير طويل قررت ان نقيم ملعبا .  
كنا فى السابق نستخدم ملعبا بناه مجرمو الحرب اليابانيون ، اما الآن فسنقوم  
بتسوية قطعة من الارض لأنفسنا . وكان روى الصغير مسؤولا عن هذه  
المهمة ، فوبخنى امام الجميع عندما كنا على وشك ان نبدأ العمل فى يومنا  
الاول . لقد تأخرت عن الطابور لأمر تافه ، وفيما رحت اجرى الى مكانى  
بين الصفوف وازرر ملابسى بسرعة سمعت اسمى ينادى . فأجبت مسرعا  
الى نهاية الصف :

— حاضر ، حاضر .

فصاح روى الصغير والتجهم باد على وجهه :

— انك تتأخر فى كل مرة نجتمع بها ، فتجعل البقية ينتظرونك . انك  
لا تملك ادنى اعتبار للآخرين . انظر الى نفسك ، ما اشد الاهمال فى مظهرك !  
ألا تستطيع حتى ان تزرر سترتك جيدا ؟  
وطأطأت رأسى فראيت ازرارى كلها فى غير عراها المناسبة . وحلقت  
فى الحاضرين وانا اتمس ازرارى فى عجز .

وخشيت الآن من انهم حفظوا تسجيلات اجتماعات النقد الاسبوعية ،  
فأضافوا اليها تفسيرات غير مؤاتية لتصرفاتى . وكانت اجتماعات النقد الاسبوعية  
فى مجموعتنا مختلفة عن ذى قبل ، حيث كنا نتصايح او نتبادل مجرد  
ملاحظات مؤدبة . اما الآن فاننا تحدثنا بمزيد من الوعى والجدية . وهذا يرجع  
من جهة الى ان بعضنا قد تخلص من اعبائه الايدىولوجية او تعلم شيئا حول  
اعادة بناء النفس ، وبذلك اتخذ المزيد من المواقف الايجابية ، ومن جهة  
اخرى الى ان الخطابات التى ليست لها علاقة بالموضوع والتى تعودنا ان  
نلقيناها لم تعد تأخذ بها لجنة الدراسة . واحد الاسباب التى جعلتنى اشعر  
ان اجتماعات النقد الاسبوعية قد تغيرت هو انه عندما كان اناس آخرون  
يتكلمون عنى فانهم لم يعودوا يفعلون ذلك بتحفظ ، وسبب آخر اكثر اهمية



هو ان بين الاعضاء الجدد الذين انتقلوا الى مجموعتنا كان لى الكبير الذى خبرنى جيدا واصبح مسؤولا عن حياتنا اليومية . فعندما كان الآخرون يتكلمون عن نواقصى يبادر هو بتقديماته وتحاليه لمتابعة جذر المشكلة واصابتى فى المكان المراجع . وبإضافة توضيحات روى الصغير ولاو وان الى هذا كله ، كنت لا اكاد ابدو انسانا .

وكننت فى الماضى اذا احالنتى صدمة خارجية الى اقصى بأسى القى اللوم احيانا على نفسى واعتبر ذلك عقوبة لى على تصرفاتى ، ولكن كنت اشعر فى احيان اخرى بالسخط على مصيرى وعلى الآخري لجعلهم الامور امامى صعبة عن عمد . وفى البداية اعتدت ايضا ان اغضب من الحزب الشيوعى والحكومة الشعبية وسلطات السجن . اما الآن فليس عندى ما يسوغ تدمرى ازاء هذه السلطات الثلاث ، وشعرت شعورا اقوى بأن كثيرا من الاشياء كانت خطأ منى ، ولكننى كنت ما زلت اميل الى لوم الآخريين على مشكلاتى . وعندما قرأت التقارير التى كتبت عنى ، ادركت ان جميع الاشياء التى اردت ان ابقيا سرا قد اصبحت الآن مكشوفة ، لذلك ظننت انه ما دامت الحكومة قد عرفت كل شىء فان من الطبيعى اما ان ينتقموا منى او يتخلوا على الاقل عن آمالهم فى اعادة بناء نفسى . ولكن المستنطقين ومدير السجن والمشير قالوا جميعا اننى يجب ان ادرس ، واعيد بناء نفسى ، واصبح انسانا جديدا . وجميع موظفى السجن شاركوا فى هذا الرأى ، وقد اظهروا ذلك بوسائل عملية كثيرة .

وبعد ان بنينا الملعب قررت لجنة الدراسة ان نجعل فناء السجن اجمل ، استعدادا لعيد العمال ، وذلك عن طريق غرس الازهار والاشجار وازالة الاعشاب الضارة وتسوية الارض . وانطلقنا جميعنا فى العمل متحمسين . واخذت فى البداية اساعد فى ردم حفرة كبيرة ، ولكن السجنان جيانغ قال ان هناك تخوفا من ان اقع فى الحفرة بسبب ضعف نظرى ، لذلك حولت الى

ازالة الاعشاب الضارة فى حوض ازهار . وبعد ان مضت على فترة من الـ ل هناك  
جاءنى لـو تشنغ المنغولى ، واختطف من يدى النباتات التى كنت قد  
اجتثتها وصاح :

— ما هذه التى تقتلعها ؟ ها ؟

— لقد طلب منى اقتلاع الاعشاب ، أنيس كذلك ؟

— وهل تسمى هذه عشبة ؟ ألا نرى ان جميع ما اقتلعتة شتلات

ازهار ؟

وتحولت مرة ثانية الى مثار اهتمام حيث كنت اقرص هناك ، لا  
اجرؤ على رفع رأسى . وتمنيت لو تختفى جميع الازهار والاعشاب ،  
وتابع لـو تشنغ يصيح ممسكا النباتات فى يده :  
— انك حقا منبوذ .

فجاء السجان جيانغ واخذ النباتات من لـو تشنغ ، ونظر اليها ، ثم  
رماها على الارض قائلا :

— ما فائدة مهاجمته على هذا النحو ؟ يجب ان تساعدته بتعليمك اياه  
كيف يزيل الاعشاب على نحو ملائم بحيث لا يخطئ بذلك فى المرة  
القادمة .

فأجاب لـو تشنغ :

— لم اتخيل قط انه ما يزال هناك اناس لا يعرفون الفرق بين الازهار  
والاعشاب .

— وانا لم اتخيل ذلك مطلقا ، ولكن ما دمنا الآن قد عرفنا خلاف ذلك  
فعلينا ان نتوصل الى كيفية مساعدته .

كانت جملة ” لم اتخيل قط “ دائما ما تقترن فى ذهنى سابقا بملاحظات  
مرعجة مثل ” لم اتخيل قط ان بو يى بهذا الغباء — هو ميثوس منه “ ، او  
” لم اتخيل قط ان بو يى بهذا النفاق او التردى — انكم لا تستطيعون اعادة

بنائه “ ، او ” لم اتخيل قط ان بو يى موضع كراهية هذا العدد الكبير من الناس — انه لا يمكن ان يفقد “ . اما الآن فقد اصبحت جملة ” لم اتخيل قط “ تتبع حقا بـ ” ولكن بما اننا عرفنا الآن فعلينا ان نتوصل الى كيفية مساعدته “ .

وذات يوم كسرت نظارتى مرة اخرى . وبعد شئ من التردد اضطررت الى طلب المساعدة من لى الكبير ثانية ، فقلت له بصوت خافت :  
— ارجوك ساعدنى . لقد حاولت ان اصلحها بنفسى عدة مرات ، ولكننى لم استطع . ولا احد آخر يمكن ان يصلحها ، لذلك دل يمكنك ان تصلحها لى ؟

فأجبنى محمقا :

— ما تزال تريدنى ان اخدمك . أ ما كفتك تلك الخدمة الطويلة ؟  
وانتقل الى مكان آخر من الطاولة غاضبا . ووقفت مكانى يائسا ، اتمنى لو استطيت ان ادق رأسى فى الجدار . وبعد اقل من دقيقتين عاد لى الكبير واخذ النظارة منى وهو يشخر فى غضب :

— حسنا ، سأصلحها لك . ولكن دعنى اقل لك اننى لا افعل هذا الا لمساعدتك على اصلاح نفسك ، والا فليس عندى وقت .

وعندما حان موعد الاستراحة ذهبت الى قاعة المطالعة الجديدة لأريح نفسى ، فقابلت هناك بوجيه . فأخبرته بما فى ذهنى ، وذكرت له اننى امضى احيانا بعض الليالى دون نوم بسبب عداوة افراد اسرتى لى . فسألنى عن السبب فى عدم اخبار سلطات السجن بذلك . فسألته :

— لماذا ؟ لقد عانوا منى الكثير فى الايام الماضية ، فبدهى ان يكرهونى . فأجاب بوجيه بأنه سمع مسؤولى السجن يطلبون منهم ان ينسوا الضغائن الماضية ويساعدونى . وعندها فقط ادركت لماذا كبت لى الكبير غيظه وعاد من الجانب الآخر للطاولة .

وكانت المساعدة التى تلقيتها على نوعين . احدهما عملى ، مثل اصلاح  
لى الكبير نظارتى ومساعدة الآخرين لى على خياطة لحافى وفرشتى بعد غسلهما ،  
فمن دون هذه المساعدة كنت امضى يوما كاملا فى هذا العمل معيقا بذلك  
النشاطات الجماعية . والنوع الثانى من المساعدة كان شفويا ، وهذا هو  
القسم الذى اضع فيه الانتقادات التى يوجهها لى الآخرون . كان مسؤولو  
السجن غالبا ما يقولون انه يجب ان نساعد بعضنا من خلال النقد والنقد الذاتى  
وتبادل الآراء . لكنى لم اقدم للآخرين الا النزر اليسير من هذه المساعدة ،  
ولم اكن مطلقا راغبا فى قبولها منهم ايضا . لذلك ومع ان لى الكبير اخبرنى  
بأن هدفه من اصلاح نظارتى هو مساعدتى على اعادة بناء نفسى ، ومع ان  
مدير السجن اخبرنى بأن النقد هو احد الطرق التى تساعدنا على اصلاح تفكيرنا ،  
الا اننى ما ازال غير قادر على رؤية اية علاقة بين اى من هذه المساعدات  
وبين اصلاح تفكيرى واعادة بناء نفسى . لقد رأيت ان المساعدة العملية التى  
يقدمها لى الآخرون لا تثبت الا عدم كفاءتى واحتقارهم اياى ؛ واعتبرت النقد  
ليس اكثر من طريقة لاعادة فتح جراحى واثارة اوجاعى وكنت افضل عدم  
المساعدة اطلاقا .

كلما تحدث موظفو الحكومة عن التحول الى انسان جديد ربطوا ذلك  
باصلاح المرء لفكره وتغييره لوجهة نظره . ولكن ما اقلقنى هو مسألة الكرامة .  
كنت اتساءل كيف سيعاملنى المجتمع واسرتى ، وهل سأكون منهوذا .  
وحتى اذا تعين ان يسمح لى الحزب الشيوعى والحكومة الشعبية بالعيش ،  
فقد لا يتسامح معى المجتمع ، وحتى اذا لم اضرب فاننى اخشى ان يشتمنى  
الناس ويبصقوا على .

وكلما تحدثت سلطات السجن عن اصلاح الفكر اشارت الى ان تصرفات  
المرء يجب ان تكون مدعومة دائما بأيدولوجيا ، لذلك كان من الضرورى  
تحليل الجذور الايدولوجية لجرائم المرء من اجل منعه من ارتكابها ثانية .

وكنيت من جهة اخرى مقتنعا بأننى لن اكرر ابدا ما قد فعلت فى الماضى .  
اذا كان شعب الصين الجديدة مستعدا لمسامحتى فبوسعى ان اتعهد بذلك .  
فما الحاجة اذن الى معالجة تفكيرى ؟

ورأيت ان المفتاح لتحويلى الى انسان جديد لا يكمن فى نفسى بل فى  
الطريقة التى يعاملنى بها الآخرون . لقد قال مدير السجن اننا اذا اصباحنا  
انفسنا جيذا ، فان الشعب سيعاملنا باللين ، ولكنه لن يتسامح معنا عندما  
نرفض اعادة بناء انفسنا . وهذا فى الواقع يعتمد على . وبدأت افهم هذا  
لمجرد ان شيئا صغيرا حدث لى بعد كروب طوال .

### ذلك يعتمد على

كنت ذات احدى اغسل ملابسى كالمعتاد . وعندما انتهيت من غسلها  
حان موعد الاستجمام ، وشعرت برغبة فى ان اذهب الى غرفة المطالعة لأقرأ  
وحدى . وما كدت اجلس حتى سمعت اصوات متحدثين فى الخارج :

- ألا يستطيع اى منكم ان يلعب التنس ؟
- انا لا استطيع ، ولكن بو يى يستطيع . يجب ان تسأله .
- حتى اذا استطاع فلن يكون لديه وقت مطلقا للعب التنس . فالسمااء  
وحدها تعرف متى سينتهى من غسل ملابسيه .
- انه الآن اسرع بكثير مما مضى .
- لا اصدق ذلك .

فأعاظنى هذا اغاظه شديدة . لقد انتهيت غسل ملابسى دون شك ،  
واننى قمت بالكثير من الاعمال كالآخرين ، ولكن ما يزال هناك اناس لا  
يصدقون ، كأنما انا عاجز فى طبعى عن احراز اى تقدم . واحضرت مضربى  
وخرجت الى الفناء غير متحمس للعب بقدر تحمسى الى ان يرانى الآخرون  
وقد انتهيت من غسيلى . وعندما وصلت الباحة كان اللذان سمعتهما يتحدثان

قبل لحظة قد غادرا فلعبت مع آخرين ممن ارادوا اللعب . وتجمع بعض المتفرجين لمشاهدة اللعبة ، ولعبت بحيوية كبيرة ، وتصيبت عرقا . وعندما ذهبت الى الحنفية لأغسل يدي لقيت مدير السجن الذى كان يمضى آحاده غالبا فى السجن .

— لقد احزرت تقدما هذا اليوم يا بو يى .

فسرت لسماعى هذا الكلام وقالت :

— لم العب منذ وقت طويل .

فقال مشيرا الى غسلى المنشور على الحبل :

— اننى احداثك عن ذلك . فما دمت تستطيع ان تنهى غسيلك بنفس السرعة التى ينتهى بها البقية من غسيلهم ، فان بوسعك ان تتمتع بنفس القادر من الراحة والاستجمام كما هم يفعلون .

فهزرت رأسى ورحت اطوف معه حول الباحة .

— فى الايام الماضية كنت مشغولا جدا عن التمتع بالراحة والاستجمام كأى شخص آخر ، لذلك لم تكن متساويا معهم واستأنت . اما الآن وقد اصبحتم متساوين ، فانك تكون مرتاحا عندما يحين موعد الغسيل . انظر اذن ، لقد امسكت بمفتاح المشكلة بنفسك . لذلك لا داعى للقلق بخصوص كيفية معاملة الآخرين لك .

وبعد لحظة مضى يقول :

— لقد حولتك الحرب العالمية الثانية من امبراطور الى سجين . وفى الوقت الحاضر ، هناك معركة كبيرة تدور رحاها داخل عقلك ، معركة اتحويل امبراطور الى عامل عادى . لقد ادركت شيئا من ماهية الامبراطور ، ولكن هذه المعركة لم تنته بعد ، وانك ما تزال لا ترى فى نفسك انك مساو للآخرين . ولكن يجب ان تفهم نفسك على نحو افضل .

وفكرت فيما قاله وقتا طويلا . وبينما وافقت اننى امسكت مفتاح

المشكلة بنفسى ، لم استطع ان ارى اننى ما ازال اظهر كبرياء الامبراطور .  
ولكن مع مرور الوقت اخذت الحياة تعلمنى تدريجيا ان هذا صحيح .  
وعندما عادت مجموعتنا الى الزنزانة ذات يوم بعد ان قمنا بازالة الفضلات ،  
نقدنا عضو لجنة الدراسة الذى كان مسؤولا عن الحياة اليومية فقال :

— انكم لم تقفلوا الحنفية بعد ان غسلتم الايدى ، والماء ما يزال يجرى .  
هذا تصرف لا مسؤول ، ويجب ان اطلب منكم ألا تفعلوا هذا ثانية .  
وسألنى لى الكبير على الفور ان كنت انا آخر من غسل وعندما اعترفت  
اننى ربما نسيت ان اقفل الحنفية ، قال ان هذا مثال للطريقة التى كنت اتصرف  
بها وانا امبراطور ، ولكننى ظلمت اتصرف على هذا النحو . واستطرد قائلاً :  
— فى تلك الايام لم تكن تلمس حتى مقبض الباب حيث كان هناك  
دائما اناس آخرون يفتحون لك الابواب ويغلقونها . وانك حتى الآن تفتح  
الابواب ولا تغلقها خلفك مطلقا . انك لم تتوقف بعد عن التصرف كأمبراطور .  
وقال لـ لاو يوان :

— لقد تذكرت الآن ، انك غالبا ما تغطى مقبض الباب بصحيفة عندما  
تفتحه . لماذا تفعل ذلك ؟

وابتدرنى لى الكبير بالقول :

— ذلك لأنك تخشى ان يكون المقبض قذرا ، أليس كذلك ؟  
فأجبت قائلاً :

— كل واحد يلمسه ، فطبيعى ان يكون قذرا .

واثار هذا حملة مفاجئة من الهجومات على :

— لماذا تكون الوحيد الذى يهتم بذلك ؟

— ماذا تكره ، قدارة الباب ام قدارة الناس ؟

— ألا يدل هذا على انك تظن نفسك فوق الآخرين ؟ انك تظن اننا

جميعا ادنى منك منزلة ، أليس كذلك ؟

حاولت جهدى فى تبرير نفسى بأننى لا احمل شعورا مثل هذا ولكنى لم استطع طرد شكوكى : هل فعلت ذلك حقا ؟ هل حملت حقا مثل هذه الافكار ؟ وفيما بعد اشار لى احدثهم بأننى كنت دائما عند الاستحمام اول من يدخل الى الحمام واخرج منه دائما عندما يدخل الآخرون ؛ وذكرنى سجين آخر بأننى كنت دائما آخذ الطاس الاول من جياو تسى فى الاتحاد السوفياتى . ويجب ان اعترف بنفسى ان لى الكبير كان مصيبا عندما قال اننى لم اتخلص بعد من كل كبريائى الامبراطورى .

وعندما استعيد الماضى ارى ان لى الكبير كان معلما لى ، وان كان صارما . انه ، مهما كانت دوافعه ، حرص دائما على ان يجعلنى ارى الاشياء التى لم اكن انتبه اليها بنفسى . وفى النهاية ادركت اننى انا الذى يجب ان الوم نفسى على معظم ما يعترضنى من متاعب .

وذات مرة افقدت مجموعتى عددا من النقاط فى التفتيش الصحى ، وذلك لأننى اخطأت الارضية وانا انظف اسنانى ، واكتفيت بمسح البقع عن الارض بقدمى بدلا من تنظيفها جيدا . فجاءنى لى الكبير بخزقة مسح وسألنى لماذا لم استخدمها .

— لم يخطر ذلك ببالى .

فغضب من جوابى هذا ، متهما اباى بمجرد التفكير فى نفسى :

— انك لا تستطيع ان تفكر الا فى حقوقك ، وليس فيما عايتك من

واجبات .

وكان على وشك التنظيف بنفسه ، ولكنه قذف الممسحة على الارضية

وطلب منى ان امسح البقع بنفسى ففعلت ذلك طائعا .

منذ الوقت الذى اكتشف فيه ان الامريكان يستخدمون القنابل الجرثومية

فى كوريا والشمال الشرقى ، ومنذ بدأت الحركة الصحية على نطاق الوطن

التى تلت ذلك ، صارت تنظم حملات فى السجن فى مواعيد محددة كل



سنة لآبادة الحشرات . وبين جميع ذكرىاتى عن هذه الحملات برزت الآن مسألة ضرب الذباب .

لقد جلب لى الكبير ذات يوم بعض المذبذبات الجديدة ولكنها لم تكن كافية ، وكان الآخرون جميعا يطلبونها ، فلم ابدل جهدا للحصول على واحدة ، ولكن لى الكبير سلم اول مذبة لى . وكانت هذه اول مرة جربت فيها ضرب الذباب ، فشعرت بالانزعاج ، اقول الحق ، لأننى لم اقتل فى حياتى اية ذبابة من قبل .

ولم يكن فى السجن ذباب كثير ، فحسب مقياس ”العاصمة الجديدة“ لـ ”امبراطورية منشوريا“ كان قد انقرض هناك تقريبا . ورحت افتش عن الذباب ، واخيرا وجدت واحدة تمحط على حافة نافذة مفتوحة ، فلوحت بالمذبة لأطردھا . فصاح لى الكبير من ورائى :

— ماذا تفعل ؟ انت تقتل الحشرات ام تنقذ حياتھا ؟  
وبدت هذه كأنما ھى دعاية للآخرين ، ولكننى عرفت ما كان يرمى اليه . فاحمر وجهى خجلا ، وقلت مكرھا :

— طبعا لا انقذ حياتھا .

وفى الوقت نفسه تساءلت لماذا تركت الذبابة تطير :

— انت لا تقتل الذباب خشية العقاب ، أليس كذلك ؟  
وشعرت بالذنب فيما راح يحدق الى ، ولكننى صمدت بقوة ، وقلت :

— عما تتحدث ؟ الذبابة طارت ، هذا كل ما فى الامر .

— فكر فى ذلك جيدا .

وفى اجتماع البنقد فى ذلك المساء لم يذكر احد فى البداية هذا الامر ، ولكن بعد ذلك اخبر لى الكبير كل واحد كيف منعت قتل الذباب فى تشانغشون بل وجهت الناس الى انقاذ الفأر من فكى القطعة . فانفجر الجميع بالضحك ، ثم نقدونى على خرافاتى . وفى الوقت الذى اضطررت الى الاعتراف

فى نفسى بأنهم مصيبين سمعت نفسى أقول :  
— اننى لست خرافيا . أ لم اقتل ذبابا فى السنة الماضية ؟  
فلم يتمالك لاو يوان نفسه عن القهقهة ، وقال :  
— ا تذكر — شكرا على تذكيرك اياى . لقد سلمت مذبتك لشخص  
آخر ، وطردت جميع الذباب بصحيفة كى تدعه ينجو .  
ووسط جلجلات الضحك الساخر الذى تلا ذلك ، كان لى الكبير هو  
الوحيد الذى ظل وجهه متجهما :

— لا ادرى ما معنى ان يقوم الآخرون بـ ” انقاذ الحياة “ ، ولكن  
فى حالتك انت فأنا متأكد من انها اثنائية كاملة . انك تفعل هذا لتحصل  
على بركة بوذا . انه ليس مهما اذا قتل الآخرون جميعا ما دام هذا يؤمن لك  
بقائك حيا . انك تظن نفسك اعلى شخص على وجه الارض .

فاعترضت قائلا :

— هذه مبالغة .

فتدخل لاو يوان قائلا :

— ان بو يى يحتقر نفسه احيانا .:

فأضفت قائلا :

— نعم ، اننى لا اعتبر نفسى مطلقا اعلى من اى شخص آخر .

فقال لى الكبير :

— ربما تحتقر نفسك احيانا ، ولكنك ما زلت تعتبر نفسك احيانا  
اخرى اعلى واهم من اى شخص آخر . اننى لا اعرف كيف تتصرف  
هكذا .

وفيما بعد اخذت ادرك تدريجيا ، فبعد اربعين سنة من العيش فى منزلة  
عالية جدا اهوى الى الارض فجأة . وهذا يفسر السبب فى اننى كنت اختلف  
الآخرين احيانا واخرج عن طورى واشعر بالظلم . ولكنى ايضا كنت ارى

على الدوام اننى اقل شأنًا من الآخرين ، مما يسبب لى الاكتئاب والحقد والشعور بالهوان والتعاسة . وباختصار ، لقد فقدت كبريائى الامبراطورى ، ولكننى ما زلت احتفظ بمقياسى القديم . ولقد ادركت هذا فيما بعد عندما اكتشفت ان من المستحيل الحكم على الناس بهذا المقياس . وبينما كنت فى نفس الزنزانة التى كان فيها لى الكبير قبل ان اتوصل الى فهم هذا الامر ، لم استطع تفهم الا ما تحدث عنه مدير السجن . وادركت اننى لم اعامل الآخرين على انهم انداد فى علاقاتى بهم ، وهذا ما اثار استيائهم ومنعهم من معاملتى على اننى ند ، او من احترامهم لى . ولم اكتشف اى نوع من الناس كنت حقا الا عندما قوبلت بكرم من الناس الذين لا يمكن ان يقاسوا بمقياسى .

## لماذا كل هذه الشبهة ؟

ذات يوم ، مباشرة بعد عيد رأس السنة الصينية لعام ١٩٥٦ ، ادلى مدير السجن بالبيان التالى فى نهاية حديث له عن نمو الاقتصاد الوطنى :  
” لقد درست جميعا وثائق الخطة الخمسية الاولى والتعاون الزراعى والتحويل الاشتراكى للحرف اليدوية والصناعة والتجارة الفردية . ولقد قرأتهم ايضا فى الصحف عن ظهور مؤسسات مختلطة تملكها الدولة والافراد فى بعض المدن الكبرى . ولكن كل ما تعرفونه عن البناء الاشتراكى هو ما تعلمتموه من الكتب . انكم بحاجة الى رؤية الحالة الحاضرة للبلاد بأعينكم لتتمكنوا من ربط دراساتكم بالواقع . ولهذا ستنظم لكم الحكومة زيارات الى الخارج فى المستقبل القريب . سترون فوشون اولاً ، وتزورون مدناً أخرى فيما بعد . “

اصبح جو السجن فى ذلك اليوم ابهج مما كان عليه فى اى يوم مضى ،

ورأى بعض السجناء فى ذلك اشارة الى اننا سيطلق سراحنا قريبا . ولم اشاركهم آمالهم ، مقتنعا بأننى لن يطلق سراحى بالتأكد حتى وان اطلق سراحهم . بل وخفت ايضا من اظهار وجهى امام الناس فى زيارة . وبعد ظهر ذلك اليوم سمعت آخرين يتكلمون فى هذه المشكلة التى كانت تشغل ذهنى :

— ماذا تظن ان الناس سيفعلون عندما يروننا ؟

— لن يحدث شئ حيث ان موظفين حكوميين سيأخذوننا ، والا فلن يدعونا نخرج .

فقال لاو فو ، وزير الزراعة فى ”امبراطورية منشوريا“ سابقا :

— لست متأكدا من ذلك . ماذا يحدث اذا ما اثيروا ؟ يا للسماء لقد كنت موظفا صغيرا ، وقد رأيت الجماهير عندما تهيج . انهم اذا ما خرجوا عن طورهم ، فمن المؤكد ان تستجيب الحكومة لمطالبهم .

— لا تقلق ، ان الحكومة لن تدعنا نخرج اذا لم تكن متأكدة تماما مما يعجرى .

وجاء الرئيس الجديد لمجموعة الدراسة فى ززاننتا ، وهو موظف سابق فى حكومة وانغ جينغ وى العميلة ، وقال :

— لا اظن ان الحكومة ستفشى شخصيتنا :

فضحك لاو يوان وقال :

— ان الشعب سيعرفنا سواء افشت الحكومة شخصيتنا ام لا . هل تظن ان الامر سيكون على ما يرام لمجرد ان اهالى الشمال الشرقى لن يعرفوكم ؟ انهم بمجرد ان يميزوا واحدا منا ، ومن المحتمل ان يفعلوا ذلك ، سيعرفون من نحن .

وفكرت فى صورى التى اجبر اهالى الشمال الشرقى على الانحناء لها فى الماضى ، وايقنت انهم لن يجدوا صعوبة فى تشخيصى . فكيف ستستطيع الحكومة منعهم من الهيجان والمطالبة بمحاكمتى علنيا ؟ وقد تساءل لاو

فو بدوره أ لن تستجيب الحكومة لما يطالب به الشعب ؟  
كنت فى تلك الايام ما ازال انظر الى ابناء الشعب العاديين على انهم  
جهلة وهمج تماما . ومن المؤكد انهم سيحاسبوننى ، انا عدهم اللود ،  
بقسوة شديدة متجاهلين سياسة اللين واعادة بناء النفس التى تسلكها الحكومة  
والحزب . وشككت فى ان تكون الحكومة قادرة على منع حدوث ذلك ،  
وشككت ايضا فى انها ربما تكون مستعدة لأن " تضحى " بى كى تكسب  
التأييد الشعبى . ولكننى كنت مخطئا تماما .

سأصف فى الجزء التالى كثيرا من الاشياء غير المتوقعة التى رأيتها فى  
الزيارة ، ولكننى اريد ان اصف اولاً اكثر الناس الذين قابلتهم شهامة .  
كانت الاولى امرأة شابة عادية . عاشت مذبحة بينغدينغشان ، واصبحت  
الآن مديرة روضة لمنجم الفحم المكشوف فى فوشون . وقد حدثنا بعض  
مسؤولى المنجم عن تاريخ المنجم والمذبحة .

كان فى القسم الشرقى من المنطقة التعدينية قرية تضم الف اسرة تقريبا ،  
تدعى بينغدينغشان . ومعظم سكانها كانوا من عمال المناجم المعوزين .  
وبعد الاحتلال اليابانى للشمال الشرقى ظهر مقاتلون وطنيون فى هذه المنطقة  
كما فى اى مكان آخر . وفى ليلة عيد منتصف الخريف عام ١٩٣٣ اصطدم  
المتطوعون المعادون لليابانيين من جنوبى منشوريا باليابانيين فى بينغدينغشان ،  
وقتلوا ضابطا وبضعة عشر من الحرس اليابانى ، واحرقوا مخزنا يابانيا .

وفى اليوم التالى ، عندما غادر المقاتلون ، طوق بينغدينغشان حوالى ١٩٠  
حارسا يابانيا مع بعض الخونة الصينيين ، وساقوا جميع السكان — رجالا  
ونساء واطفالا — برؤوس حراهم الى تلة خارج القرية . وهناك اطلقوا النار  
بالرشاشات على جميع هؤلاء السكان البالغ عددهم ثلاثة آلاف نسمة ، ثم  
اخذ الجنود يشقون الجثث بحراهم ليتأكدوا من انها فارقت الحياة . وبعد  
هذا سكبوا البترين على كل البيوت فى القرية واحرقوها ، وقصفوا التلة بالمدفعية

الثقيلة ليعطوا بقايا جريمتهم . واخيرا احاطوا القرية بسياج من الاسلاك الشائكة ، ولم يسمحوا لأى غريب بدخولها . وصدر انذار بأن كل من يؤوى الفارين من بينغدينغشان سيقتل هو وجميع افراد أسرته . وهكذا تحولت بينغدينغشان الى سفح تلة معزول مغطى بالعظام . وقد ظهرت مرثاة شعبية فى منطقة فوشون ، تقول :

بينغدينغشان

بينغدينغشان

التي كانت ملاذا للحياة

هى اليوم خراب تغطيه الدماء والادغال

للموا بعض الآجر

التقطوا العظام

فقد ذبح اليابانيون آباءنا وابناءنا

بحر الدماء عميق

وحقدنا لن يموت

ولكن اليابانيين لم يتمكنوا من ذبح جميع القرويين او ترويع عمال فوشون . وقد نجت صبية فى الخامسة من عمرها ، تدعى فانغ سو رونغ ، من بين اكوام الجثث الدامية ، وتعهدوا بالرعاية سرا عامل منجم عجوز مقعد . وهكذا عاشت شاهدا على ذلك العمل الوحشى الشنيع .

بعد ان رأينا نحن السجناء المنجم انتقلنا لمشاهدة خدمات الرفاهية ، ولذلك ذهبنا الى روضة فانغ سو رونغ . ونظرا الى انها كانت فى شنيانغ فى ذلك الوقت حدثتنا عاملة الروضة الاخرى عن اجتماع فانغ بمجرى الحرب اليابانيين فى اليوم السابق . وقالت لنا ان شغيلات الروضة رفضن فى البداية ان يسمحن لها بمقابلتهم ، لأن هذا قد يسبب لها صدمة كبيرة . الا ان مجرمى الحرب اليابانيين ناقشوا الامر ورجوا ان يسمح لهم برؤيتها لأنهم

ارادوا ان يعتذروا لها . وبعد ان تم التغلب على معارضة الشغليات دخلت في النهاية لثراهم . فأنحروا لها انحناء شديدة تعبيراً عن اعترافهم بذنبهم ، وطلبوا منها ان تحدثهم عن المذبحة .

فروت لهم كيف قادها جدها الى الخارج بينما حملت امها شقيقها الطفل . ”كان الجنود اليابانيون والخونة يصيحون اننا سنذهب لالتقاط صورة . وسألت جدى ماذا تعنى الصورة فأعطاني طاحونة هوائية كان قد صنعها لتوه وطلب منى ألا اسأل اية اسئلة . “ وهكذا ذهبت مع جميع القرويين الى ساحة الاعدام . وعندما بدأت الرشاشات تطلق النار غطاها جدها بجسمه ، واغوى عليها حتى دون ان تبكى . وعندما عادت لوعيتها وجدت نفسها محاطة بالدماء السائلة والمتخثرة ؛ والدخان يغطي السماء .

واحست بألم مخيف بسبب جروح الرصاصات الثماني والحربة في جسمها ، وكانت آلامها المهلكة من شدة الخوف اكثر من ذلك بكثير . كان جدها ساكناً ، ولم تستطع رؤية امها او شقيقها . وزحفت خارجة من بين اكوام الجثث ، وعادت الى القرية ، لتفاجأ بأنها قد تحولت الى انقاض ينبعث منها الدخان . وزحفت عبر السلك الشائك ، ومنه الى جذامة الذرة الرفيعة ، مغطية وجهها بيديها . فرآها شايب ولفها بسترته ، وبعد ذلك فقدت وعيها ثانية .

كان هذا الشايب عامل منجم ، اصبح مقعداً بعد حياة غاصة بالصعوبات والمعاناة ، وقد آلت حاله الى بائع سجائر لسد رمقه . ووضعها داخل كيس لا يفتح الا ليلاً ليطعمها . ولما ادرك انه لا يستطيع ان يستمر على هذا النحو وقتاً طويلاً هربها في كيسه من اليابانيين ، واخذها الى بيت خالها الذى احتفظ بها خارج منزله في كومة من القش واعتنى بجروحها ، وراح يطعمها ليلاً . وعندما اقترب الشتاء اخذها الى اقرباء آخرين في قرية ابعد ، وعاشت هناك معهم باسم آخر .

نشأت فانغ سو رونغ مجروحة في جسمها ونفسها ، ونما معها حقدنا الشديد . ولكن عندما استسلم اليابانيون في النهاية حل محلهم موظفو الكومينتانغ الفاسدون والمرشون ، وازدادت الى حقدنا على قتلة اسرتها حقدنا آخر على قوات تشيانغ كاي شيك التي مارست القتل والحرق والسلب كما فعل اليابانيون تماما . واخيرا تحررت قريتها ، وشرق النور في حياتها . واعالها الحزب والحكومة وثقفاها . ووجدت فيما بعد عملا ، وتزوجت وانجبت اطفالا . واصبحت الآن عاملة نموذجية في فوشون .

ماذا قالت هذه المرأة للمجرمين الذين ارتكبوا جرائم شنيعة كهذه ضد الصين عندما قابلتهم وجها لوجه ؟

”حتى لو عضضتكم حتى الموت فاني لن اشفى غابلي . ولكنني عضوة في الحزب الشيوعي ، والقضية العظيمة قضية الاشتراكية وتغيير العالم تعني الشيء الاكثر بالنسبة لي من احساسى الخاصة . ولقد وضع حزبنا جميع انواع السياسات لتحقيق هذه الاهداف . وانا اؤمن بهذه السياسات وسأعمل على تنفيذها . ومن اجل هذه القضية نحيت حقدى الشخصى جانبا .“

لقد ادهش هذا التسامح المذهل المئات من مجرمى الحرب اليابانيين وجعلهم لفترة لا يحرون جوابا ، ثم شرعوا ييكونون من شدة احساسهم بالخزى وركعوا امامها ، طالبين من الحكومة الصينية ان تعاقبهم .

ان شهامة فانغ سو رونغ كانت مذهلة بما فيه الكفاية ، ولكن لو قلنا انها ملزمة بوصفها عضوة وكادرة في الحزب ان تقف موقفا كهذا ، فما الذى جعل الفلاحين العاديين في تايشانبو يظهرون نفس الشهامة ؟

وتايشانبو قرية في ضواحي فوشون ، انشأت في ذلك الحين تعاونية زراعية . وقد ذهبنا اليها في اليوم الذى تلا زيارتنا لروضة الاطفال ، وكان قلبى يخفق على الطريق من شدة الخوف . وتذكرت الاتهامات التى كتبها الفلاحون



ضدى والتي قرأتها ، وتساءلت كيف ستكون معاملتهم لى ، وايقنت ان الفلاحين ” الافذاظ ” و ” الجبهة ” سيكونون غير قادرين على التصرف مثلما تصرفت فانغ سو رونغ . والواقع اننا قابلنا عددا من العمال وافراد اسرهم فى اليوم السابق ، ولكننى عزوت تصرفهم الى انهم كانوا يجهلون من نحن . لقد زرنا فى المساء السابق دار عجزة لعمال المنجم المتقاعدين . ان هؤلاء المسنين الذين عملوا فى المناجم طوال حياتهم او الذين طردهم اليابانيون بعد ان اصبحوا عاجزين نتيجة حوادث العمل قد انقذوا على الفور بعد تشكيل الحكومة الشعبية ، وحول فندق يابانى فخم الى ملاذ يمكن ان يقضوا فيه بقية حياتهم فى اطمئنان ، كانوا يمضون اوقاتهم فى لعب الشطرنج وزراعة الازهار وقراءة الصحف وفى اية طريقة اخرى تلائمهم . وعندما زرت احدهم مع بضعة سجناء آخرين حدثنا عن الحياة التعمسة فى المناجم ايام ” امبراطورية منشوريا ” . فشعرت بالعزى والخوف ، واختبأت فى الزاوية صامتا مخافة ان يميزنى . ولاحظت انه علق بدلا من صور الاسرة التى رأيناها على الجدران فى مسكن العمال صورة الرئيس ماو فقط ، اذ بدا واضحا انه اعز عليه من اقربائه — هذا اذا كان قد بقى له اقرباء على قيد الحياة . وتساءلت ان كان قد فهم سياسة الرئيس ماو فى اعادة بناء المجرمين .

خلال اليوم الاول من زيارتنا حاولنا جميعا ان نجعل انفسنا غير واضحين تمام الوضوح . فالقم الكبير الذى كان ذات مرة مسؤولا عن بناء معبد لديانة شييتو اليابانى فى فوشون ، كان شاحب الوجه ، وقد حاول ان يظل طوال الوقت مختبئا وسط مجموعتنا . وعندما وصلنا تايشانبو لم يتجراً واحدا منا على رفع رأسه . وفى هذه الحالة من الاضطراب استمعنا الى مسئول التعاونية وهو يحدثنا عن ماضى التعاونية وحاضرها . وطفنا بها ورأينا ادوات جديدة ومزرعة دواجن ودفينات ملأى بالخضار وحظائر مواشى ومخازن قمح واشياء اخرى . وكل من قابلناه كان لطيفا معنا واقف بعض الناس العمل الذى

كان يقوم به ووقف وحيانا . وهنأت نفسي على بقائى كل هذه الفترة دون ان يعرفنى احد ، ولكن عندما كنت فى بيت احد اعضاء التعاونية فى نهاية الزيارة لم اعد قادرا على اخفاء هويتى اكثر من ذلك .

كان البيت الذى زرته انا وبضعة آخرون لأسرة تدعى ليو . وكان كلا الوالدين يعملان فى الحقول ، وكان الابن الاكبر كاتب حسابات لقبو التخزين ، والابن الثانى طالبا فى مدرسة متوسطة ، والبنت تعمل فى محطة كهرومائية . ولم تكن فى البيت عندما وصلنا الا السيدة ليو وكانت تطبخ ، وعندما رأت كادر التعاونية يقودنا الى داخل البيت خلعت مئزرها وطلبت منا ان نجلس فى الغرفة الشمالية التى كانت مبنية حديثا بالاسمنت . وعاملتنا على اننا ضيوف حقا ، فطلبت منا ان ندخل الى صدر الغرفة ونجلس على سرير الكانغ المبنى على طراز الشمال الشرقى . وكان ينتصب مع الجدار خزانة لها ادراج ، وعليه ساعة منبهة كبيرة وطقم شاي يلتمع وعدد من الزهريرات وعلبة شاي .

ولم يخبرها الكادر الذى جلبنا من نكون نحن ، بل اكتفى بأن قدمنا لها على اننا زائرون جئنا لمشاهدة التعاونية . ثم طلب منها ان تتحدث لنا . وعلى الرغم من انها لم تكن متحدثة جيدة الا انها اخبرتنا بأنهم كانوا اسرة من سبعة افراد يحرثون حوالى نصف هكتار من الارض ، وانهم عاشوا خلال فترة ”امبراطورية منشوريا“ شبه متسولين تقريبا . ”كنا نزرع الرز ، ولكننا نضطر الى اكل دقيق البلوط . وكان علينا ان نسلم كل الرز الذى نزرعه ، واذا ما وجدوا حبة واحدة منه فى البيت اعتبرونا ’مجرمين اقتصاديين‘ . ولقد القى البوليس القبض على رجل ذات مرة عندما كان فى الطريق مريضا واكتشفوا حبات ارز فى قبائه . ولبسنا جميعا الاسمال البالية . وتردأت احوال بعض العوائل على نحو اسوأ منا ، فلم تجد الفتيات البالغات فى تلك العوائل ما يلبسهن سوى الاكياس . . . وفى عيد رأس سنة لم يعجد الاطفال ما يأكلونه ،

وليس بوسعى ان اخبركم كيف كان ذلك ، لهذا قال الشايب يجب ان نأكل سرا وجبة ارز . وجاء البوليس الى القرية فى منتصف الليل ، فأفزعنا هذا حقا . لقد جاؤوا فى الواقع للقبض على الرجال واخذهم الى العمل الاجبارى ، وارساؤهم لقطع الاشجار وبناء مواقع دفاعية . وقالوا ان ذلك من اجل الحماية من قطاع الطرق ، ولكنها اقيمت حقا بسبب ذعرهم الشديد من جيوشنا المتحالفة ضد اليابانيين . واخذ الشايب كذلك . وتقريبا لم يرجع احد من الرجال الذين اخذوا من قريتنا الى العمل الاجبارى حيا . . . .“

ودخل ابنها فيما كانت تتكلم . كان قصيرا جدا . ولدى تدقيقنا النظر استطعنا ان نرى انه قد ولد مقعدا . يساقين متوقفتين عن النمو . وفى اجابته عن سؤالنا قال ان عاهته قد اجبرته على ان يعيش حياة الكلاب فى المجتمع القديم ، بينما يعمل الآن كاتب حسابات فى قبو التخزين ، وله من الاعتبار ما لأى شخص آخر . كانت عيناه تلتهبان حقا الى الماضى ، ولكن عندما تحدث عن الحاضر بدا الابتهاج والثقة فى صوته واساير وجهه كأمة تماما . وحدثنا عن جميع البخسروات التى لم تكن تزرع فى القرية من قبل ، واطلعتنا امه على خابية رز فى زاوية الغرفة . وسأل ابنها ضاحكا : ” من يريد ان ينظر الى الارز ؟“ واجابت هى على نحو سريع لاذع : ” لا اهمية لذلك فى هذه الايام ، ولكن كم مرة رأيتم الارز فى زمن كانغ ده (١٦) ؟“ فنسعتنى هذه الملاحظة على الفور .

لقد كنت خائفا فى بداية قدومنا الى هذا البيت من ان يسألونى عن اسمى ، والآن شعرت بأنه لخداع لا يغفر اذا لم اخبرهم عن شخصيتى قبل ان اغادر . فنهضت وقلت ناكسا رأسى : ” ان كانغ ده الذى تتكلمين عنه هو بو يى ، امبراطور منشوريا العميل الخائن . انه انا . اننى مدين لك بعذرى .“

وقبل ان أنتهى من كلامى نهض الوزراء العملاء السابقون واخبروها

بشخصياتهم . وكان احدهم مسؤولا عن العمل الاجبارى ، وكان الآخر مسؤولا عن ارسال الحبوب الى اليابان ، والثالث قائد عسكري اجبر الرجال على الدخول فى الجيش العميل للقتال الى جانب اليابانيين .

فصعقت العجوز . ومع انها حزت ان نكون من مجرمى الحرب المانشويين - العملاء ، الا انها لم تعرف بوضوح شخصياتنا ، ولم تتخيل كذلك اننا سنطلب منها ان تصفى حسابها معنا .

كيف فى الواقع تعاملت معنا ؟ انها لم تشتم او تبكى ، كما انها لم تستدع الجيران او الارامل والايام الذين قتل ذووهم فى الايام الماضية ليصبوا جام غضبهم علينا . بل قالت بدلا من ذلك متتهدة تنهيدة حزت فى قلبى : ” لقد انتهى كل شىء الآن . لا داعى الى قول اى شىء آخر بخصوص ذلك . “ ومسحت دموعها واستطردت قائلة : ” انكم ما دمتم راغبين فى الدراسة فافعلوا ما يقوله الرئيس ماو وتحولوا الى اناس محترمين ، فانكم ستصبحون على ما يرام . “

كنا امامها نبكى فى صمت ، ولكن مع كلماتها هذه انفجرنا بالتحجب : وقال ابنها فى صوت منخفض : ” اننا نعرف اى نوع من الناس انتم : ان الرئيس ماو يقول ان الغالبية العظمى من المجرمين يمكن ان يعيدوا بناء انفسهم ، وما يقوله لا يمكن ان يكون خطأ . فاذا انتم اصاحتم انفسكم واعترفتم بذنبكم فان الشعب سيصفح عنكم . “

هكذا كانت شهامة الفلاحين الذين ظننتهم افظاظا وجهلة وانهم سينتقمون منا دون ان يلتفتوا الى سياسة اللين واعادة بناء النفس .

انهم الآن سادة انفسهم ، ومن خلفهم حكومة قوية وجيش قوى يقودهما الحزب الشيوعى . ومع ذلك فانهم عندما واجهوا السجناء الذين ارتكبوا فى حقهم اشنع الجرائم مثل هذا الكرم .

لماذا وثقوا بالحزب والرئيس ماو الى هذا الحد ؟ ولماذا قبلوا سياسة

الحزب ازاء اعادة بناء المجرمين عن طيب خاطر ؟ ولماذا كان الحزب الشيوعي والحكومة الشعبية على ثقة تامة بأن الشعب سيقبل سياساتهما حتما ؟ اننى فى هذه الزيارة عرفت الجواب عليها .

## التغيرات توضح كل شىء

كان مزاجنا فى نهاية زيارتنا التى استغرقت ثلاثة ايام متباينا تماما عنه عند ابتداء الزيارة ، فقد حلت المحادثة الحيوية محل الصمت المتجهم . وبقينا طوال اليومين الاولين من عودتنا الى السجن نتحدث فى موضوع جولتنا . وكان القول المتكرر هو : ” ان الامور قد تغيرت ، والمجتمع قد تغير ، وجميع الصينيين قد تغيروا . ” وطبعا كان موضوع التغيير هو الذى غالبا ما قرأنا عنه فى الصحف وفى رسائل الاهل او ما سمعنا عنه من سلطات السجن خلال السنوات القليلة الماضية ، ولكن بعض المجرمين منا اراد ان يختبر هذا بأنفسهم . ومن بين هؤلاء كان لاو يوان نزيل زفرانتنا ، وفى هذه المرة اقتنع هو الآخر .

وذات مساء كنا نتحدث عن الكعك الذى ذفناه بأنفسنا فى مطعم العمال ، فقال احدهنا ان من المؤسف اننا لم نر ايا من الوجبات تطبخ على مواقد الغاز فى شقق العمال عندما شاهدنا الطعام الذى يقدم وقت العمل . فأخبرنا لاو يوان عند ذلك بما قد اكتشفه . فبينما كان بقيتنا يتفرجون على غرف العمال ذهب هو الى ما وراء المبنى لينظر الى داخل صناديق القمامة ، فشاهد عظام سمك وقشور يرض وبقايا طعام اخرى .

وكان لاو فو ، وهو ضابط تموين مع جيش الشمال الشرقى السابق قبل ان يصبح وزير زراعة فى حكومة ” امبراطورية منشوريا “ ، شخصا صموتا على نحو طبيعى ، ولكنه اليوم بدا حيويا : ” فى ايام ’ امبراطورية

منشوريا ، لم تكونوا تجدون سمكا او لحما فى بيوت العمال ، بل حتى قبل ذلك نادرا ما كان يرى اى منهما . ويجب ان اعرف - لقد بدأت الحياة موظفا صغيرا . “

وقال لاول تشنغ بصراحة ، وكان قد رباه الاليانيون : ” عندما قرأت الصحف ودرست الوثائق السياسية فى الماضى اقتنعت فى بعض الاحيان وشككت احيانا اخرى ، وكنت اظن ان هذه القاعدة الصناعية فى الشمال الشرقى هى شىء خلفه اليابانيون . ولكن فى المصنع التابع للمدرسة الصناعية رأيت المخاطر اليابانية القديمة ذات الحزام الجلدى قد حلت محلها هناك معدات صينية الصنع من طراز جديد ؛ فالآن اصدق ان الصينيين قد نهضوا حقا . لقد تغيروا حقا . “

ووافقت بالتاكيد على انهم قد تغيروا ، ونمت عندى احساسات اخرى بخصوص الزيارة ايضا .

ان الشهامة المذهلة التى اظهرها لنا الناس خلال الايام الثلاثة من زيارتنا قد جعلتنى اتساءل هل يمكن ان يكون ذلك حقيقة واقعة . أكانوا مستعدين لتجاهل الجرائم التى ارتكبها الخونة ضدهم . هل لديهم حقا تلك الثقة بسياسة اعادة بناء المجرمين ؟ كيف يمكن ان يكون هذا ؟

ان التغيرات قد وضحت كل شىء . فمنذ اواخر القرن التاسع عشر وفوشون شهيرة بثروتها المعدنية ، ولكن اولئك الذين استفادوا من هذه الثروة لم يكونوا عمال المناجم الفقراء البائسين . وفى عام ١٩٠٥ خضعت المناجم المفتوحة للسيطرة اليابانية بعد هزيمة روسيا القيصرية ، وفى العقود الاربعة التى تلت وصل عدد عمال المناجم الذين ماتوا من شدة يؤسهم رقما يتراوح بين ٢٥٠ الف الى ٣٠٠ الف عامل .

وكان العمال ، ومعظمهم فلاحون عاطاوي من شاندونغ وخبى والشمال الشرقى ، يأتون فى حشود كبيرة كل سنة . وكانوا يعملون اكثر من اثنتى

عشرة ساعة يوميا . ومعظمهم اقاموا في ” بيوت جماعية كبيرة “ : وربما وصل عددهم في القاعة الواحدة الى مائة او مائتين ، ولبسوا الاسمال على مدار السنة . وكان الكثير منهم يعجز عن ايجاد ملابس لمواليده ، وعندما يموت الاطفال جوعا ، يضطرون الى دفنهم عراة . وعلى الرغم من انخفاض اجورهم الزموا بدفع حصة منها الى المدراء والمراقبين . والذي يتبقى لهم كان لا يكفي لتأمين الطعام والكساء . علاوة على ذلك فان قلة منهم الذين استطاعوا تحمل اعباء الزواج ، وكان حوالى سبعين في المائة من الرجال العاملين في منجم لونغفنغ عزابا .

ولم يكن هناك اهتمام بمسألة الاحتياطات الامنية في المناجم وكانت الانفجارات والانهيارات حوادث عادية . وقد تعود العمال ان يقولوا : ” اذا اردت ان تصبح عامل منجم ، فعليك ان تغامر بحياتك . “ وبعد انفجار غازى في منجم عام ١٩١٧ ختم الملاك اليابانيون على المنجم ليمنعوا حدوث خسارة في الفحم ، تاركين في داخله ٩١٧ عاملا ليحترقوا احياء . وحدث فيضان في نفس المنجم عام ١٩٢٨ مات فيه ٤٨٢ عاملا . ووفقا لاحصائيات ” امبراطورية منشوريا “ الرسمية فان ٢٥١٩٩٩ عاملا قد قتلوا واصيبوا في هذه المناجم ما بين عام ١٩١٦ وعام ١٩٤٤ . وقد ملئ واد جبلى بجثث اولئك الذين لم يدفنوا داخل الحفر ، وسمى الوادى لذلك ” قبر العشرة آلاف رجل “ .

وفتح اليابانيون مكانا سموه ” حديقة المتعة “ كان يضم اكثر من الف موسم وصالونات للقمار واللافيون والمورفين .

وفي فوشون القديمة كانت هناك بيوت ممتازة لليابانيين وابراج الرفع الشاهقة للمناجم ، ولكن كان هناك ايضا متسولون وقطط ميتة واطفال ميتون بجانب نهر يانغباي ، واخرى عائمة في البالوعات . وفي الشتاء كان يعثر على جثث جديدة كل يوم عند جسر يانغباي . وكان في فوشون ايضا ” اصلاحية “

خلال عهد "امبراطورية منشوريا" ، وهى معسكر محشد للعمال الذين عارضوا "امبراطورية منشوريا" واليابان .

لقد حدثت منذ ذلك الوقت تغييرات هائلة . فبدلا من الاكواخ الممتدة على مساحة ٣٥٠٠ متر مربع التى بناها اليابانيون للعمال خلال واحد وثلاثين عاما ، انتصبت مساكن جديدة للعمال على مساحة ١٧٠ ألف متر مربع ، بنيت خلال السنوات السبع التى تلت التحرير . وقد زرنا هناك بيت عامل قد يكون واحدا من الـ ٨٠ فى المائة من عمال المناجم الذين تروجوا منذ التحرير . وفى تلك الغرف رأينا اللهب الازرق المنبعث من موقد غاز .

وحدثنا رئيس مكتب المنجم عن الغاز ونحن نمشى تحت الارض فى المسالك المؤدية الى منجم لونغفنغ . ان مناجم الفحم فى لونغفنغ وشنغلي ولاوهوتاي كانت تغص بالغازات — ذلك العدو اللدود لعمال المناجم فى كل العالم . وكانت لا تزال مرعبة بعيد التحرير ، لاسيما منجم لونغفنغ الذى انسدت مسالكه بالانهيارات الناجمة عن تخريب اليابانيين اولا والكومينتانغ من بعدهم . وكانت الغازات الكثيفة داخله تمنع من اعمال النسف او استخدام المعدات الكهربائية .

وفى خريف ١٩٤٩ اقترح احد مهندس المنجم على لجنة الحزب خطة لسحب الغاز بأنابيب الى السطح للانتفاع به والتخلص من خطره فى آن واحد . فأيدت اللجنة اقتراح المهندس واعرب العمال ولاسيما المسنون منهم وعيالهم ، انهم راغبون فى القيام بأى شىء لانجاح هذه الخطة . ونظم المشروع التجريبى . واندفع العمال الذين كانوا اعضاء فى الحزب الى الجبهة الاولى للنضال الذى شن ليلا ونهارا داخل الطرق المملوءة بالغازات تحت الارض . وفى البداية واجهتهم الصعوبات وهم يعملون وسط الغاز الكثيف ويتعرضون لمضايقات الجبناء والمحافظين على القديم ؛ ولكن فى ١ يوليو ١٩٥٠ تمت التجربة ، واندفع لهب ازرق من فوهة الانبوب الذى



يسحب الغاز من تحت الارض . وبكى العمال المسنون ، وصاح الشباب :  
” لقد انتصرونا ثانية . “

وقد ذكرتني هذه التجربة بأغنية كنت قد سمعت بعض الاولاد يغنونها  
في روضة الاطفال ذلك الصباح :

لو لا الحزب الشيوعي ،  
لما كانت الصين الجديدة .

وفيما كنا نمشى في الطريق التحتاني وصلنا الى دكان مشرق الانارة  
يبيع الفواكه والحلوى والمناشف والمناديل وغير ذلك . فتوقفنا هناك ، وشرح  
لنا دليلنا ان هذا المكان كان مستنقعا للقاذورات والجردان ايام ” امبراطورية  
منشوريا “ ولم يكن احد يجزأ على مكافحة الجردان بسبب خرافة شائعة  
تقول ان هذه الجردان هي خيول الاله الطاوى لاو تسي ( ١٧ ) . وكان  
عمال المناجم يعبدونه طلبا للامن والرجاء في حياتهم البائسة . في هذه الايام  
القوا جميعا صور لاو تسي الى خارج بيوتهم . واخبرنا وهو يشير الى الارضية  
الخرسانية النظيفة بأن العمال كانوا يمشون حفاة في الماء القذر هنا في الماضي ،  
وانهم كانوا في بعض الانفاق يعملون عراة .

ومررنا بعربات تجر كهربائيا لنقل الفحم الى الخارج . ” كانت هنا  
في الماضي طرق تمر بها القطارات فقط وغالبا ما داست القطارات على  
العمال الذين لا يجدون ممرا يسلكونه الى المنجم ، ولكن عدد الذين  
قتلوا بهذه الطريقة لم يكن يساوى شيئا بالطبع قياسا الى اولئك الذين قتلوا  
في الانفجارات . وكان عمال المناجم يقولون انهم ” كتل من اللحم لاصقة  
داخل نفق الفحم “ . كانوا يعودون من عملهم الطويل تحت الارض كل  
ليلة حامدين الصدف التي جعلتهم يخرجون احياء وكان هناك دائما حشد من  
اهالى العمال ، النساء والاطفال ينتظرون في اعلى الوهدة حيث يخرج العمال ،

وحين لا يخرج عامل مع الخارجين يعرف اهله انه قد مات . وغالبا ما كانت الجثث تبقى في مكانها . “ وأشار الى الجدار قائلا : ” رأيت اربعة رجال دفنوا هنا احياء . لقد نزلت الى وهدة المنجم اول مرة وانا في الرابعة عشرة من عمري ، ولا اود ان اقول كم مرة اصطدمت بالموت منذ ذلك الحين . “  
واخبرنا بمدى الذعر الذى كان يصاب به العمال اذا ما مرضوا . فمقاومتهم كانت ضعيفة جدا ، حيث ان اكوأخهم خالية من التدفئة ، وثيابهم اسمال ، وفراشهم اكياس ، وحصتهم من الطعام ثمانى كعكات ضئيلة الحجم من الذرة في اليوم . وكان اليابانيون اذا ما وجدوا احد العمال مريضا ، وضعوه في مكان منعزل محروس حراسة مشددة ، ولا يعطونه الا طاسا من عصيدة الارز في كل وجبة . وبعض المرضى كان يحرق قبل ان يموت ، او يدفن حيا في ” قبر العشرة آلاف رجل “ . وقال لنا دليلنا ان والد الرجل الذى رأيناه قبل لحظة يقود القطار قد دفن حيا .

وبعد لحظة صمت تابع يقول لنا انه اوشك ذات مرة على الاختناق في الجو العفن عندما كان داخل المنجم .. وقد مرض عندما خرج ، ولكن المراقب هدده بالجلد اذا هو لم يعد الى الوهدة ثانية . ونظرا الى انه كان اصغر عامل في الكوخ الذى يسكن فيه فقد جاء زملاؤه الكبار وطرّدوا هذا المراقب . وقال ان العمال الذين كان اليابانيون والمراقبون يخافونهم اشد الخوف هم سجناء من الجيش الثامن ، كانوا على استعداد لقتل مضطهديهم اذا هم قبضوا عايتهم تحت الارض . وهذا يعنى ان اليابانيين قد اجبروا على معاملتهم معاملة افضل . وعلى الرغم من ان هؤلاء المساجين كانوا معزولين عن العمال الآخرين عزلة تامة ، الا ان مقاومتهم اظهرت لبقية العمال ان المراقبين واليابانيين ليسوا اكثر اخافة من فئران المنجم وان ايامهم قد اصبححت معدودة .

وادركت مدى التباين بين هذا العامل الواثق بنفسه وبينى انا عندما كنت

فى الماضى مريضاً من اكل اللحم ، اتناول الحن والدواء يومياً ، ويستبد  
بى الشعور بأن نهائى قد اقتربت ، وبأننى فقتدت كل كرامة انسانية .  
لقد كان فى تلك الايام لا يرى فى وفى امثالى اكثر من جردان . فما رأيه  
بنا الآن ؟

وتذكرت الدموع التى ذرفها العمال المسنون عند سحب الغاز عبر  
الانبوب لأول مرة بنجاح وصيحات الانتصار التى اطلقها الشباب : لقد صار  
ممكن ان تتكشف لهم حقائق المجتمع والبشر والطبيعة . كل شىء وكل  
واحد قد اعيد بناؤه . وماذا يهمهم من امبراطور ما دام المستقبل مستقباهم ؟  
هذا كان سبباً آخر فى قدرتهم على ان يكونوا متساهلين معى . كل شىء  
قد تغير ، وكان ابرز تغيير اساسى هو ذلك الذى طرأ على الشعب . وبالتأكيد  
فلو لا الحزب الشيوعى لكنت جميع هذه التغييرات والشهامة التى قولنا  
بها مستحيلة .

## لقاء الاقرباء

تعلمت من هذه الزيارة انه اذا كان الشعب سيفصح عنى فعلى ان اصبح  
انساناً حقيقياً . وقد تعلمت اشياء اخرى ايضا . فى اليوم الاول من الزيارة  
نظرت الى الحكومة الجديدة من المنظار القديم ، رافضاً ان اصدق ان اى  
نظام يمكن ان يكون على علاقة بالجماهير قائمة على الثقة المتبادلة ، وفقاً  
لما قرأته فى الكتب . وظننت ان السبب الذى جعل الحزب الشيوعى يملك  
هذه القوات المساحة الجبارة وتلك الحكومة القوية هو مكروه الشديد ومهارته  
الديماغوغية . وهذا ما جعلنى اخاف من ان يقتلونى تنفيساً عن غضبة الجماهير .  
وعرفت الآن ان السبب الذى جعل الشعب يدعم الحزب ويثق به هو الفوائد  
التي جناها من الحكم الجديد والتي لم يكن فى وسع ، ولا فى نية اى حكومة

سابقة ان تقدمها له .

كنت اقول فى نفسى انه من الطبيعى ان يفرح الفقراء بالمجتمع الجديد ، ولكن اولئك الذين كانوا اغنياء او كبراء فى الماضى والناس الذين كانوا على علاقة وثيقة بى او بأمثالى وابناء الاقليات القومية لن يكونوا راضين مطلقا . وبعد زيارتنا بوقت قصير زارنى بعض اقربائى ، فعلمت ان هذا رأى كان سخيفا هو الآخر . فالواقع ان قطاعا كبيرا لا مثيل له فى التاريخ من جميع الطبقات الاجتماعية يشعر الآن بالرضا عن هذه الوضعية الجديدة .

لقد بدأنا نحن السجناء تبادل الرسائل مع اقربائنا فى صيف عام ١٩٥٥ . واكتشفنا من هذه الرسائل ان اقرباءنا لم يعاملوا معاملة سيئة بسبب اننا مجرهون . فبعض الاولاد فى المدارس وبعضهم يعمل ؛ وبعضهم اصبح متخصصا وآخرون انضموا الى عصبة الشيبة الشيوعية او الحزب الشيوعى . وقد فاجأنا هذه الرسائل بقدرما شجعتنا ، وادركنا بمزيد من الوضوح معنى التغيرات الاجتماعية بالنسبة لنا . على اننا لم نكن سواء فى ذلك فبعض من كانوا اكثر تشككا بيننا اقتنعوا نصف قناعة فقط ، وقلة كانوا متحمزين كثيرا فذهبوا فى تأويلاتهم الى ما شاء لهم خيالهم . وعندما تسلم لاو تشانغ ، وهو جنرال سابق من العملاء ، الرسالة الاولى من ابنه وجدها تبدأ بما يلى : ” السيد تشانغ ، اننى آسف ، ولكننى لا استطيع ان اخاطبك بأية طريقة خلاف هذه . . . ” وكاد لاو تشانغ يجن من الحزن ، وتعاطف معه كثير من السجناء الآخرين . وتمتم بعضهم : ” هذه اذن الطريقة التى يربى بها المجتمع الجديد الشباب . لأن الوالد فى السجن فان الابن لم يعد يريد . ” ولم يسعنى الا ان اذكر كيف قال تشن باو تشن ان الشيوعيين قساة غير عادلين . وكان لاو ليو ، وهو جنرال سابق آخر فى نفس زنزانة بوجيه ، مولعا جدا بابطته ، وكان شديد القلق على ان تكون قد اصبحت ضحية للمعاملة السيئة . وكان فى السابق كثير التشكك بخصوص الصين الجديدة ، ولكنه

قرأ الآن في رسالة جاءتة منها انها تعال اعالة جيدة وانها قبلت في عصابة الشيبية . وان منظمتها تعتني بها عناية جيدة ، ولها كثير من الصديقات ، وقد ارسلتها الدولة الى مدرسة فنية ، وذلك تحقيقا لطموحها السابق . وهز لاو ليو رأسه الاشيب وقال : ” حتى اذا كانت كل كلمة فيها صحيحة ، فاني لن اصدق ما لم اراها بأأم عيني . “ ومنذ عام ١٩٥٦ صرنا نجد الجواب لكل اسئلتنا ، وعلمت ان القضايا التي عواجت لم تكن فقط قضايا عوائل بمفردها ، بل قضايا الامة بكاملها والجيل الناشئ بكامله .

في ١٠ مارس ، بعد زيارتنا بثلاثة ايام ، طاب السجان منى ومن بو جيه وزوجى شقيقتي وابناء اشقائى الثلاثة ان نذهب الى مكتب مدير السجن . ودخلنا الى غرفة الاستقبال ، فرأينا لشدة دهشتنا عمى تساي تاو وشقيقتي الثالثة والخامسة . وكنا قد فصلنا عن بعض منذ اكثر من عشر سنوات . وعندما رأيت عمى يبدو معافى كالسابق وشقيقتي في ملابسها المحشوة بالقطن شعرت كأننى في حلم .

كان تساي تاو القريب الوحيد من بين اقربائى من الجيل السابق الذى ما يزال على قيد الحياة . في عام ١٩٥٤ تم انتخابه للمجلس الوطنى لنواب الشعب مندوبا عن قومية المانتشو البالغ عددها مليونين . وكان كذلك عضوا في اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى . واخبرنى انه قابل الرئيس ماو قبل بضعة ايام في الاجتماع الثانى للمجلس ، حيث قدمه رئيس مجلس الدولة شو ان لاي الى الرئيس ماو على انه السيد تساي تاو عم بو يى . فصافحه الرئيس ماو قائلا : ” لقد سمعت ان دراسة بو يى تجري على نحو جيد تماما ؛ يمكن ان تذهب لزيارته . “

واختلج صوت عمى بالعاطفة الشديدة وهو يحدثنا حتى انه لم يكذب . ولم اقا على كبح دموعى . وبكىنا جميعا ، وفي النهاية شرع ابن شقيقى روى الصغير يتعجب بصوت عال .

وتعلمت في هذا اللقاء مع اقربائي اننى لست الوحيد الذى انقذ بل عشيرة آيشين — جيولوه وقومية المانتشو كلها ايضا .

واخبرنى عمى ان عدد قومية المانتشو الذى كان قبل التحرير ٨٠ الف نسمة فقط قد بلغ ثلاثين ضعفا في الوقت الحاضر . وفهمت مغزى هذا التغير . وعرفت حالة البؤس التى عاشها حملة الراية تحت حكم امراء الحرب من زمرة بيبانغ وحكومة الكومينتانغ ، عندما وجدوا صعوبة كبيرة في الحصول على عمل اذا لم يتظاهروا بأنهم من قومية الهان . فغير كثير من ابناء عشيرة آيشين — جيولوه اسما عوائلهم الى جين او تشاو او لوه . اسرة والدى في تيانجين مثلا اتخذت اسم جين . وبعد التحرير اعترف الكثير من ابناء قومية المانتشو بقوميتهم ، وعندما سجلوا جميعا بعد اعلان الدستور دهش حتى المانتشويون انفسهم لعدددهم الاجمالى البالغ ٢٤٠٠٠٠٠ نسمة . وتذكرت غضبى عند سرقة المدفن الشرقى والعهد الذى قطعته على نفسى امام لوحات اسلافي اننى سأنتقم لهم . ولكن الذى فعلته في الواقع قد عجل في تدمير ابناء قومي وعشيرتي ، الذين لم يجدوا مستقبلا مأمونا الا بعد انهيار زمرتي وانهيار اليابانيين الذين ادعوا انهم يدعمونني . والبرهان على ذلك هو التغير من ٨٠ الف نسمة الى ٢٤٠٠٠٠٠ نسمة .

ان هذا التغير التاريخي لم يؤثر فحسب في الشباب من عشيرة آيشين — جيولوه بل في الـ ”بى — له“ (١٨) تساي تاو وفي شقيقتي ايضا . كان عمى حينذاك في التاسعة والستين لكنى لم ار فيه علامة شيخوخة وهو بهذه الحيوية في الجسم والعقل . ولاحظت ان طريقته التقليدية في التحدث معى لم تتغير . وقد حدثني انه عمل بعد التحرير في ادارة لجيش التحرير الشعبى كانت مسؤولة عن الخيل ، وشعر بنشوة كبيرة وهو يخبرنى كيف امضى بعض الوقت في حضاب الشمال الغربى . وكان حينذاك يخطط للقيام برحلة تفتيشية عن اوضاع الاقليات القومية باعتبار ذلك جزءا من مهماته كعضو في المجلس

الوطني لنواب الشعب :

عند دخول جيش التحرير الى بكين قلق العديد من ابناء المانتشو لاسيما افراد عشيرة آيشين - جيولوه ولم تذهب مخاوفهم حتى بعد اصدار بيان جيش التحرير الذى تضمن ميثاقا من ثمانية بنود لضمان ارواح وممتلكات ابناء الشعب على اختلاف انتماءاتهم من غير اعداء الثورة والمخربين . وكان معظم المقيمين فى بكين من هؤلاء اشخاصا عاديين ليسوا اعضاء فى " طبقة النبلاء الجديدة " لـ " امبراطورية منشوريا " او فى نظام وانغ جينغ وي العميل . ولكن بعضهم لم يفقد ، بعد ، احترامه المخزافى الشخصى ، وقد ذعروا اكثر عندما سمعوا انى سجين . وزد عليه ، لم تكن لدى ابناء قومية المانتشو المفقرين ، والمتناقصى العدد ، اوهام ازاء جيش التحرير الشعبى . وكانت دهشتهم الاولى عندما علموا ان الحكومة الشعبية فى الشمال الشرقى قد فتحت مدرسة خاصة لأبناء المانتشو . وفيما بعد رأوا مندوبين عن القومية يشتركون مع مندوبين من جميع الاوساط الاخرى فى اجتماعات المؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى الذى ناقش المنهاج المشترك ( ١٩ ) وقد زار كوادر من الحكومة الشعبية بيوت البعض منهم ليتحدثوا معهم حول مندوبيتهم الى المؤتمرات الاستشارية السياسية المحلية . وحشهم الكوادر على تقديم اقتراحاتهم بشأن الامور المتعلقة بقوميتهم وان يسهموا بجهودهم فى بناء مجتمع جديد .

كانت اعمار جميع ابناء جيلى فى بكين من سلالة والد جدى الامبراطور داو قوانغ والامير دون والامير قوانغ والامير تشون فوق الستين ، ما عدا قلة من ابناء عمومتى كانوا اصغر سنا . وكان ابن عمى الثانى بو جين ( معروف ايضا باسم بو شيويه تشاى ) ، رساما بارزا وخطاطا وعازفا على الـ " قو تشنغ " ( اداة وترية صينية قديمة ) ، وكان حينذاك قد تجاوز الستين . وقد دهش حين وجد نفسه قادرا على انزال اداته الموسيقية عن الجدار مرة ثانية والذهاب

مرة كل اسبوع الى ضفاف بحيرة بيهاي في بكين ليطاق العنان لعاطفته بهذا الفن القديم مع اصدقائه القدامى والجدد ، حيث رأى مستقبلا مشرقا للموسيقى الكلاسيكية الصينية لدى الشباب الذين كانوا طلابه . والاكثر من ذلك انه انتخب نائب رئيس لجمعية البحث في آلة ” فو تشينغ “ ورئيسا لجمعية دراسة الخط ؛ ودعى الى حضور المؤتمر الاستشارى السياسى على مستوى المنطقة ؛ واصبح معلما في اكااديمية الرسم الصينى . وكان شقيقه بو جيان يعلم الرسم الصينى ايضا . وكان ابن عمه بو شيو ” دليل بوابة تشيان تشينغ “ داخل المدينة المحرمة وهو الذى اعتنى بممتلكاتى في تيانجين عندما كنت في تشانغتشون ، ولكنه منذ فقد بصره اصبح غير قادر على كسب معيشته . وبعد التحرير قدرت السلطة الجديدة تقديرا عاليا لخبراته ومعلوماته التاريخية وعيته عضوا في احد معاهد الادب والتاريخ . وكانت هذه المعاهد قد اسست في جميع انحاء البلاد وضمت علماء كانوا قد اجتازوا الامتحانات الامبراطورية في عهد اسرة تشينغ ، واعضاء شهدوا احداث فترتى امراء الحرب وتشيانغ كاي شيك ، واعضاء اشتركوا في ثورة ١٩١١ ، واعضاء من المنظمة الثورية المبكرة – تونغ منغ هوى ، وحتى من الذين كانوا مغمورين في اسرار البلاط الاقطاعى الاخير . فأفعم بو شيو بالثقة في الحياة ، واعاد سرد ما تذكره عن تاريخ اسرة تشينغ للآخرين ليكتبوا نيابة عنه .

هذه الظواهر التى بدت طبيعية بالنسبة للمجتمع الجديد كانت جديدة كل الجدة بالنسبة لى فجعلتنى متأثر تأثرا عميقا . ولكن الشئ الذى ترك عندى اعظم الانطباع هو التغيير الذى رأيته في شقيقى .

قبل ستة اشهر تقريبا تبادلنا الرسائل مع اخوتى واخواتى في بكين . فأدركت مما كتبوه ان تغييرات كبيرة قد طرأت على اسرتى ، ولكننى لم افكر في هذه المسألة تفكيريا جادا . خلال ايام ” امبراطورية منشوريا “ كان جميع اخوتى واخواتى ، ما عدا اخى الرابع واخوتى السادسة والسابعة ، يقيمون



معى فى تشانقتشون ، وقد رافقونى فى هربى الى تونغهوا . وبعد ان اسرت قلقت خشية ان يعاملوا على انهم خونة . كان زوج اختى الثانية هو حفيد رئيس وزراء ” امبراطورية منشوريا “ تشنغ شياو شيوى ، بينما زوجت الاخت الثالثة الى شقيق زوجتى الاولى الاصغر ؛ وتزوجت الاخت الخامسة ابن رئيس اركان تشانغ شيون ، الجنرال الماكي الذى اعادنى الى العرش عام ١٩١٧ . وكان هذان الزوجان كلاهما برتبة مقدم فى جيش ” امبراطورية منشوريا “ . وكان والد زوج اختى الرابعة هو الموظف الرسمى لأسرة تشينغ الذى ساءت سمعته لقتله امرأة ثورية بارزة تدعى تشيو جين عام ١٩٠٧ . وكان جميع ازواج اخواتى اما ضباطا واما موظفين لدى النظام الحميل . وكان زوجا اختى السادسة والسابعة وحدهما طالبين منتظمين ، ولكننى كنت ما ازال قلقا على هاذين الاختين من ان تكونا قد تعرضتا لسوء بسبب ان شقيقتهم الاكبر هو كبير الخونة . وقد عمت هذه المخاوف جميع المساجين ، ولكن مخاوفى كانت اشد بكثير مما لدى الآخرين . ثم اظهر لى تبادل الرسائل بينى وبين اسرتى ان قلقى لم يكن له مسوغ . فأشقاى وشقيقتاى قد تمتعوا بنفس الحق فى العمل كآخرين ، وامكن لأبنائهم ان يدخلوا المدارس ويلقوا المنح الدراسية المعتادة . وكان شقيقى الرابع واختى السابعة ما يزالان معلمين فى مدارس ابتدائية ، وكانت اختى السادسة رسامة واختى الخامسة خياطة ، وكانت اختى الثالثة نشيطة اجتماعيا فاخترها جيرانها عضوة فى لجنة الزقاق مسؤولة عن الامن . وعلى الرغم من انهن كن يطبخن ويعتنين بأولادهن ، الا ان رسائلهن قد اظهرت انهن راضيات مسرورات . فلم اعد قلقا عليهن . والآن ، وقد رأيت هاتين الشقيقتين مرة ثانية وسمعت ما قالتاه لزوجيهما ، بدأت افكر فيهما اكثر فأكثر .

وما ازال اتذكر كيف حملت لاول وان زوج الاخت الخامسة وسألها :  
” أأستطيعين حقا ان تركبى دراجة ؟ أ أستطيعين ان تخيطى ايضا ؟ “ هذه

كانت الاشياء التى اذهلته فى رسائلها ، فأراد ان يسألها عن ذلك شخصا . وكان لديه السبب الكافى الذى يجعله مندهشا . فعندما كانت طفلة لم تكن تجرؤ حتى على الجرى ، وعندما كبرت احاطت بها الرصيفات والخدمات ، فلم تدخل مطبخا قط كما لم تلمس مقصا ؛ فكيف امكنها الآن ان تركب دراجة الى العمل وان تستخدم مقصا لتفصيل الثياب ؟ وهل هى خياطة تغيل نفسها حقا ؟

وكان الاشد اثارا للعجب هو الطريقة التى اجابت بها على اسئلتنا :  
” وما الغريب فى ذلك ؟ هذا شىء لا يستحق الذكر . “

وكانت الاخت الثالثة قد مرت بامتحانات اصعب . فنظرا الى ان ابنها كان مريضا فانها لم تعد الى بكين مباشرة بعد استسلام اليابانيين ، بل مكثت فى تونغخوا مع مريبتين . لم يكن لديها ممتلكات وخافت من لفت الانظار بسبب اصلها ومجوهراتها وثيابها الفاخرة ففتحت كشكا لبيع السجائر فى تونغخوا وكادت ان تقع فى فخ عملاء الكومينتانغ كما خدعها تاجر باعها كبريت (شخاط) لا يشتعل . وبعد بضع سنوات من هذه الحياة غير الآمنة عادت الى بكين عام ١٩٤٩ . ونظرا الى انها عرفت شيئا عن سياسات الحكومة خلال احتكاكها بجيش التحرير الشعبى والحكومة الشعبية فى الشمال الشرقى ، وكذلك لما تمتعت به من ثقة جيرانها ، تم اختيارها لعضوية لجنة الزقاق . وكان جزء من عملها الذى تحدثت عنه بحماسة عظيمة هو شرح قانون الزواج الجديد .

لن يكون هذا مندهشا لأناس آخرين كما هو لى . لقد كانت هذه الاخت اكثر دلعا من الاخت الخامسة فى الماضى ، وكانت تسألنى دائما عن الهدايا التى اقدمها للناس وتريدها لنفسها . من كان يتوقع ان هذه الفتاة الكسولة المدللة التى لم تكن قادرة الا على طلب الاشياء ستصبح نشيطة اجتماعيا ؟ كان ذلك مما يصعب تصديقه وفهمه . . . لكنها كانت واعية للأسباب والحوافز

التي جعلتها داعية متحمسة لقانون الزواج الجديد والتي دذعتها احيانا الى ان تنفجر بالدموع وهي تقرأ الصحف .

فعلى الرغم من انها كانت مثقفة ثقافة جيدة وامرأة من النبيلات ، الا ان حياتها في الماضي كانت تافهة عديمة المعنى . وعندما كانت مقيمة مع زوجها في اليابان كتبت اليها مرة اطلب منها ان تخبرني بالحياة اليومية في تلك البلاد . فكان جوابها كما يلي : ” انني اجلس في غرفتي مع خادمتي وهي تكوي لي ثيابي بجانبى . وخارج النافذة خادم عجوز يسقى الازهار ، وكلب صغير يرنو ، وهو رابض ، الى صندوق الحلوى . . . هذا كل ما استرعى انتباهي . ” لكنها الآن تحيا حياة ذات معنى وعندما تجلس في الزقاق لتقرأ الجرائد لجيرانها وهم يصغون اليها بانتباه فانها تستعيد الشعور بوجودها . وقد علقت وهي تقص على ذلك : ” في الماضي لم اكن الا حلية . ”

وحدثني عن تجربتها يوم كانت في تونغخوا بعد استسلام اليابانيين : ” ذات يوم جاءت الميليشيا الشعبية الى وقالت ان ابناء الشعب يعقدون اجتماعا ويريدونني ان احدثهم فيه عن الماضي الذي عشته . وكنت مدعوة من اجتماعات النضال ضد الخونة وكنت مستعدة لأن افعل ما يريدون اذا عذوا عني . وفي ذلك الوقت رأيت بعض الكوادر ممن اخبروني بألا اكون خائفة حيث ان الجماهير متعلقة تماما . وتوجهت الى المنصة وانا ارتعش خوفا ، وحدثتهم عن حياتي . وكانت هناك حشود ضخمة من الناس فيهم من جاؤوا لمجرد رؤية الاميرة . وعندما انتهيت من كلامي بدأ نقاش هامس . ثم نهض احدهم وقال : ” انها لم تتصرف هي نفسها اى تصرف سيئ ، لذلك ليس لدينا اى شىء ضدها . ” فوافق كل من هناك على هذا الرأى وانتهى الاجتماع . وعندها ادركت ان الشعب متعقل جدا . ”

وهذه النقطة الاخيرة هي ما فهمت انا كذلك ولو بعد حين .

وفي اليوم التالي من لقائي بالاسرة صادف ان استلمت رسالة من الشقيقة الثانية ، قالت فيها ان ابنتها الكبرى في السنة الثانية من كلية الرياضة البدنية وانها اصبحت مدربة غير متفرغة بارزة للسائقين . ولقد سافرت مؤخرا على دراجة نارية من تيانجين الى هانكو وكتبت اختي بكل سرور عن ان ابنتها التي كانت آنسة ارستقراطية قبل اثنتي عشرة سنة قد اصبحت الآن لاعبة ممتازة وان ابناءها الآخرين مجدودون في المدرسة كذلك . وعندما ذكرت هذا للاختين الخامسة والثالثة مسحنا الدمع من عيونهما وحدثتاني عن ابنائهما حديثا مماثلا . واقنعني ذلك بأن قدر عشيرة آيشين - جيولوه قد تغير حقا .

قمت ذات مرة بحساب على اساس " السجل اليشبي " للاسرة الامبراطورية الذي اعيد تصنيفه عام ١٩٣٧ والمعلومات التي زودني بها اخوتي واخواتي حول معدل عدد الوفيات بين اطفال فرعي في عشيرة آيشين - جيولوه . فتبين ان ٣٤ في المائة من الاطفال ماتوا في عهد اواخر اسرة تشينغ ، و ١٠ في المائة خلال فترة الجمهورية ، ولا احد من الاطفال مات خلال السنوات العشر التي تلت التحرير . اما ارقام العشيرة في جملتها فهي اعجب من ذلك حيث ان حوالي ٤٥ في المائة من الاولاد والبنات من جيلي وجيل والدي ماتوا في طفولتهم - دون الثانية من العمر في الغالب .

هذه الحسابات لم اقم بها عندما قابلت عمي واختي ولو انها ذكرتني الموت المبكر لعدد كبير من اطفال اسرتي في الماضي . في ذلك الوقت لم تكن مواهب وقدرات الجيل الاكبر تزيد على حمل اقفاص الطيور . ولم يكن لديهم ما يفعلون غير الانسلال من البوابة الخلفية واقفاص الطيور في ايديهم ، او الجلوس لشرب الشاي من الفجر الى الغداء حيث تصف عشرة اطباق من الطعام لأجل العرض . فاذا انتهى الغداء اخذوا بالعربة على اهل الدار .

اما الصغار فنادرا ما كانوا يدركون الحاجة الى تعلم اي شيء غير خدمة

ذويهم الكبار ومحاكاتهم . وعندما حل بهم الفقر عجز بعضهم عن مواصلة  
اى عمل لاعالة انفسهم وفشل آخرون فى ايجاد عمل لاطهار مواهبهم . وقد  
حدثت حالات كثيرة كهذه بعد جمهورية ١٩١١ .

لكن الامور تغيرت تماما الآن . فصغار الاسرة قد ضمنت حياتهم  
ومستقبلهم بشكل غير متوقع فى الماضى . ان لدى شقيقى وشقيقاتى الست  
فى بكنين سبعة وعشرين ولدا جميعهم فى المدارس والجامعات عدا من هم  
دون سن الدراسة ، ولدى عمى تساي تاو ستة عشر حفيد او ابن حفيد يعمل  
احدهم فنيا فى محطة كهربائية وواحدة منهم من المتطوعين الشعبين وقد  
ابلت بلاء حسنا فى كوريا ، والاخرى شغيلة ثقافة فى الجيش والبقية ( ما عدا  
من هم دون سن الدراسة ) يدرسون او يشتغلون . واصبحت حياة الماضى  
فى نظرهم مجرد مهزلة .

ولقى احد افراد هذا الجيل الاصغر مصيرا مختلفا . فقد كتبت زوجة اخى  
يو جيه الى زوجها من اليابان تقول له ان ابنتها الكبيرة ، وهى فى الثامنة  
عشرة من عمرها ، قد انتحرت مع صديقها الشاب بسبب قضية حب ،  
وقد سمعت منذ ذلك الحين كثيرا من الروايات المختلفة لهذه القصة ، وانا  
على قناعة بأن الشاب كان سيئ الحظ مثل ابنة اخى . هكذا كان التباين  
فى مصير الشباب فى فترات ومجتمعات مختلفة .

منذ تلك السنة والزيارات العائلية الى السجن مستمرة . ومما يستحق الذكر  
ذلك اللقاء الذى تم بين لاو ليو ، الاكثر تشككا ، وبين ابنته التى كانت  
تدرس لتصبح فنانة . فقد زارته مع زوجها المقبل . وسألته :

— ألا تصدق ذلك يا والدى ؟ اننى فى مدرسة فنية . وهذا هو خطيبى .

فأجابها والدها قائلا :

— نعم اصدق الآن .

— هل تعرف اننى ما كنت لأستطيع دخول المدرسة الفنية لو لا قيادة

ماو تسي تونغ ؟

— اعرف ذلك :

— ما دمت تعرف هذا فعليك ان تدرس جيدا وتصلح نفسك .  
ان لاو تشانغ كاد في السابق يفقد عقله عندما تسلم رسالة خاطبه فيها  
ابنه بكلمة ” السيد “ . ولكن ابنته الآن جاءت لتزوره ومعها رسالة من شقيقها .  
وقد اطلع تشانغ كل واحد في السجن تقريبا على هذه الرسالة ، وفيما يلي  
نصها :

والدى العزيز :

اننى ارى الآن اننى كنت ” يساريا “ متطرفا . ان التعليم الذى تلقيته  
من عصابة الشيبة ونقد رفاقى لى صحیحان تماما : كان ينبغي لى ألا اتخذ منك  
موقفا كهذا . . . ما هى الصعوبات التى تعترضك فى دراسائك ؟ اظن انك  
تستخدم القلم فى دراسائك ، لذلك اشتريت قلما وطلبت من اختى ان تجلبه  
لك . . .

## مجرمو الحرب اليابانيون

فى يونيو ويوليو ذهبت انا وبعض السجناء بصففتنا شهودا الى شينانغ  
لحضور المحكمة العسكرية التى تحقق فى قضايا مجرمى الحرب اليابانيين .  
وقد قرأت فى الصحافة ان اكثر من الف مجرم حرب يابانى قد اعتقلوا  
فى الصين ، بعضهم فى فوشون وآخرون فى تايوان . وجميعهم ممن ارتكبوا  
جرائم خلال الغزو اليابانى للصين . وفى يونيو ويوليو عام ١٩٥٦ حكم على  
خمسة واربعين منهم فى شينانغ وتايوان ، بينما لم تقدم البقية الى المحكمة بل  
اعيدوا الى بلدهم بمساعدة الصليب الاحمر الصينى . وهناك ستة وثلاثون  
سجيناً من مجموعة فوشون قد حكم عليهم فى شينانغ على دفعتين . وكنت

اعرف احوال بعضهم ايام "امبراطورية منشوريا" ، وسمعت آخرين منهم يتحدثون في اجتماع في سجن فوشون . واحدهم كان فورومي تادايوكي ، نائب رئيس سابق له "مكتب الشؤون العامة في مجالس الدولة لامبراطورية منشوريا" . وكنت انا واربعة وزراء عملاء سابقين سندي بشهادة ضده وضد رئيسه تاكيب روكوزو . وكان فورومي هو الذي سيحاكم اولاً ، وقد حكم عليه فيما بعد بالسجن ثمانية عشر عاماً (٢٠) .

ولدى دخولي قاعة المحكمة فكرت في الانتصار في الحرب الكورية والتوقيع المظفر لاتفاقية جنيف ومركز الصين في العالم منذ تأسيس الجمهورية الشعبية . ان محاكمة مجرمي الحرب اليابانيين على الاراضى الصينية امر ليس له نظير من قبل .

عندما انتصر متطوعو الشعب الصيني والجيش الشعبى الكورى في كوريا ظننت انه لا امل لى ما لم اعترف بذنبى واضع نفسى تحت رحمة الشعب الصينى . ومع جلب مجرمي الحرب اليابانيين الى المحكمة الآن لم اعد قلقاً على مستقبلى ، بل ملئت بدلاً من ذلك بالزهو الوطنى . وفكرت بالاضافة الى ذلك في مشكلات اخرى كثيرة .

في القسم الاخير من الخطاب الذى القاه فورومي قبل الحكم عليه قال شيئاً كهذا :

ليس هناك انش مربع من الارض في الشمال الشرقى بأكمله الا ويحمل اثر الهجمة الامبريالية اليابانية ، وجرائم الامبريالية كانت جرائمى . اننى اعترف من اعماقى بأئنى مجرم حرب انتهكت القانون الدولى والمبادئ الانسانية انتهاكاً صريحاً بارتكابى اشنع الجرائم ضد الشعب الصينى ، واننى اعترف للشعب صادقاً عن جرائمى هذه . طوال السنوات الست الماضية عاملنى الشعب الصينى معاملة انسانية على الرغم من اننى مجرم مرعب ، واتاح لى فرصة لافكر ملياً في جرائمى . وبفضل هذا استعدت وعيى وعقلى ، وتعلمت

اى طريق يجب ان يسلكه الناس . اننى لا اعرف كيف يمكننى ان ارد هذا  
العطاء الكريم الذى منحنى اياه الشعب الصينى .

واذكر اننى بعد ان ادليت بشهادتى سأله القضاة عما يريد تقديمه من  
الملاحظات . فانحنى انحناءة شديدة وقال ان كل كلمة من شهادتى صحيحة .  
وعادت بى افكارى الى المحكمة العسكرية الدولية فى طوكيو . فهناك  
استخدم مجرمو الحرب اليابانيون محامين لاثارة المتاعب ومهاجمة الشهود .  
واتبعوا ، املا فى تخفيف احكامهم ، كل وسيلة ممكنة لتغطية جرائمهم .  
ولكن فى هذه المحكمة اعترف جميع مجرمى الحرب بذنبهم وخضعوا  
للعقوبة .

وقد اخبرنى شقيقى وزوجا شقيقتى الشىء الكثير عن السجناء اليابانيين .  
وكانوا قد ساعدوا فى ترجمة اعترافات هؤلاء السجناء والرسائل التى ابردها  
بعضهم من اليابان بعد ان اعيدوا الى بلدهم . وعندما اطلق سراح زوجى  
شقيقتى كان بو جيه ولاو بانغ وآخرون هم الذين قاموا بهذا العمل . ومنذ  
عام ١٩٥٦ وأنا اسمع العديد من القصص عن مجرمى الحرب اليابانيين .  
كان احدهم قائدا عسكريا ، وعندما بدأ جهاز التحقيق عمله عام ١٩٥٤  
لم يخبرهم بشىء تقريبا . ولكنه اعترف فى هذه المحكمة بأنه قد وجه رجاله  
لارتكاب ست مذابح جماعية للمدنيين فى خبى وخنان . وفى اكتوبر  
١٩٤٢ قامت على سبيل المثال وحدة تحت قيادته بذبح اكثر من ١٢٨٠  
مواطن من سكان قرية بانجيداي واحرق نحو الف بيت . وبعد ان حكم  
عليه بالسجن عشرين عاما قال للصحفى انه يستحق ان يحكم عليه بالاعدام ،  
واخبره كيف استجوب وحوكم على نحو منصف . ولقد زود ايضا بمحامى .  
” عندما اتذكر كم قتلت من ابناء الشعب الصينى وكم جعلت الحياة صعبة  
ليالهم يتفطر قلبى ألما وأنا ارى اقرباءهم بالذات هم الذين يعتنون بى



الآن . “

وقابل الصحفيون عقيدا يابانيا سابقا على المركب اليابانى الذى كان عائدا به الى بلده دون ان يحاكم . ونظرا الى انه كان غاضبا جدا عندما سأله مرؤوسوه فى السجن عن جرائمه ، فقد املوا انه سيقول شيئا ما ضد الصين . وعندما لم يقل ما ارادوا ، سأله احدهم :

— لماذا تستمر فى التحدث على هذا النحو ؟ أما تزال خائفا من الصين ؟  
فأجاب :

— اننى على متن مركب يابانى ، فلماذا اكون خائفا من الصين ؟  
انا اقول لكم الحقيقة ، هذا كل شيء .

كان زوج اختى الثالثة مسئول المرضى فى احدى ردهات التمريض . وكان هناك مجرم حرب يابانى يشير المتاعب دائما للممرضات والسجانين ولا يحترم لوائح السجن ؛ ولكنه فى حفلة وداع اقيمت بعد اعلان اطلاق سراحه انفجر بالدموع والقى خطابا تحدث فيه عن اخطائه . وكان هناك مريض آخر ليس متعبا كالسابق ، الا انه رفض ان يعترف بذنبه . وقد ارسل الى المستشفى لاجراء عمليتين طارئتين لسرطان مميت فى المستقيم ، وتبرع الطبيب له بشيء من دمه لانقاذ حياته . وبعد ان غادر المستشفى تحدث فى اجتماع كبير كيف ذبح وعذب ابناء الشعب الصينى فى الماضى ، وقارن هذا بالطريقة التى اتبعها ابناء الشعب الصينى لانقاذ حياته عندما كان يحضر . وطوال تحدثه وهو مستمعوه يندفون الدموع .

وذات مرة ، عندما كنا نسوى ارض الملعب لبنى احواض ازهار ، استخرجنا هيكلا عظيما ، قحفه مثقوب برصاصة . فقال لاو يوان ولاو شيان اللذان درسا شيئا من الطب الحديث انه لفتاة . وفيما بعد ترجم زوج شقيقتى ، لاو وان ، مقالة لمجرم حرب يابانى كان مدير هذا السجن فى الماضى ، يصف فيها الحياة الجهنمية للسجناء الذين كانوا محتجزين هناك . كان

المكان يضح بصرخات المعذبين وصدى قعقعة السلاسل . وكان متعفنا قدرا تكتسى جدرانها في الشتاء بالجليد ، وفي الصيف يمتلئ بالذباب والبعوض . وكان السجناء لا يعطون فيه الا طاسا صغيرا من الذرة الرفيعة كل يوم ويتعين عاينهم ان يقوموا بالاعمال الشاقة من الفجر الى الغروب . وكثير منهم ضربوا واجهدوا في عملهم حتى الموت . ومضت هذه المقالة تصف التغييرات التي طرأت على السجن منذ ذلك الحين والتباين الحاد بين الظروف في الماضي والظروف التي عاشها هو نفسه سجيننا .

وكتب كثير من مجرمي الحرب رسائل ومقالات قالوا فيها انهم شعروا بالخوف والكراهية عندما اعادهم الاتحاد السوفياتي الى الصين . وبعضهم ، مثلى انا ، حاول ان يفهم الامور على ضوء ايدولوجيته القديمة ، واخفق في ان يرى لماذا عامله الشعب الصينى هذه المعاملة الكريمة . وعندما رأوا المرحل يبنى تخيلوا انه سيكون غرفة للقتل ، وعندما رأوا التسهيلات الطيبة يزود بها السجن قدروا انهم سيخضعون للتجارب كما كان يحدث للسجناء ايام حكمهم ؛ وآخرون رأوا في هذه المعاملة اللينة والانسانية علامة ضعف ، ولكن انتصارات متطوعى الشعب الصينى في كوريا بينت لهم ان الشعب الذى عاملهم بهذه الحكمة لم يكن ضعيفا قط . وفي الحقيقة ان علامة الضعف هى القسوة والهمجية .

لقد شاع الكثير عن التغييرات التي طرأت على مجرمي الحرب اليابانيين قبل ان اسمع بها ، اذ كنت منهمكا في مشكلاتي الخاصة مما منعنى من ان افكر فيهم . والواقع ان هذه التغيرات قد اصبحت اكثر فأكثر وضوحا منذ عام ١٩٥٤ او نحو ذلك ، وقد كتب بوجيه في يومياته لعام ١٩٥٥ يصف المسرحيات وعزف الموسيقى والرقص التي اداها السجناء اليابانيون . واحدى المسرحيات كانت حول الآثار المرعبة التي خلفتها القنبلة الذرية التي القيت على ناغازاكي . وذكر ايضا اللقاءات الرياضية التي اقامها السجناء اليابانيون

على ارض الملعب الذى مهدوه بأيديهم .

والآن ، عندما استرجع ذكريات التغيير الذى طرأ عليهم ، اراه واضحا جدا . لماذا اصبح هؤلاء السجناء سعداء جدا ومنشرجى الاساير ؟ لماذا اخذوا معهم بعد اطلاق سراحهم الادوات الموسيقية التى كانت سلطات السجن قد اعطتهم اياها وعزفوا والدموع فى اعينهم وهم ينظرون الى الصين من على متن المركب اليابانى الذى كان يأخذهم الى وطنهم ؟ لماذا كانوا مولعين بغناء ” طوكيو — بكين “ ؟ لماذا قال حتى اولئك الذين حكم عليهم : ” اننا متشكرون للشعب الصينى ونشعر بالخجل من . . . “

ان الرسائل التى ارسلها مجرمو الحرب اليابانيون الذين اعيدوا الى بلدهم غالبا ما احتوت عبارات كهذه : ” لقد تعلمت فى الصين كيف ينبغي للمرء ان يعيش “ ؛ ” الآن اصبحت اعرف ما معنى الحياة “ ؛ و ” عندما خطوات الخطوة الاولى فى طريق الحياة الانسانية اود ان اقول ايها السيد المدير اننى لن انسى ابدا دفء مصافحتك وانت ترجو لى صحة جيدة . “

وقرأ بعض السجناء فى الصحف اليابانية عن فتيات صاحبن القوات الامريكية على غرار ” فتيات الجيب “ (٢١) قبل تحرير الصين ، وادانوا مثل هذه النسوة بشدة . فكتب احد السجناء رسالة الى زوجته يسألها ان كانت هى ايضا قد فعلت ذلك . وعندما فحصت سلطات السجن هذه الرسالة ارجعوها الى كاتبها وطلبوا منه بصبر عظيم ان يعيد النظر فيها . ” هل من الملائم ان تكتب الى زوجتك رسالة كهذه ؟ حتى وان كان لديك اى مسوغ لطرح مثل هذا السؤال — وليس لديك هذا المسوغ — فغلاظة من ستكون هذه ؟ ليست غلاظتها بالتأكيد . “ فلم يقل السجنين شيئا بل كور الرسالة والقاهها على الارض . ثم وضع رأسه بين يديه وشرع يبكى .

لقد كانوا ممتنين للشعب الصينى الذى علمهم كيف يكونون صادقين والذى عاماهم باللين . ومثلما تعلمت كيف ومن هم الاباطرة عرفوا هم حقيقة

العسكرية وحقيقة اليابان . وفي رسائلهم التي ارسلوها من اليابان وصفوا الازدياد المرعب في جنوح الاحداث . وشاروا الى القواعد الامريكية في اليابان وكيف ان الدبابات تسير على ارضهم ؛ والطائرات العسكرية الامريكية تغطي سماءهم ؛ والجنود الامريكان يعتدون على نساءهم . وكانت احدى الرسائل التي جاءت من رجل عاد الى قريته مملأ بالحديث عن التغييرات التي طرأت على الشباب هناك . ” بعضهم قد اصبحوا قطاع طرق ، وآخرون يقتلون بسبب النساء ، وبعضهم انضم الى قوة الدفاع الذاتي ويعيش حياة متفسخة منصرفة للشرب والنساء . “ وقال ان الشباب لا يطعمون والديهم ، وان الثقافة اليابانية قد انحطت وصارت اليابان مسرحا للانتهاكات .

وتحدث السجناء الذين اطلق سراحهم عن الصين الجديدة وعن العسكرية اليابانية ، معارضين اعادتها ومطالبين بالاستقلال والسلم والديمقراطية . وقد كتبوا ذلك وسط المراقبة والقيود التي تجنبوها ببراعة كبيرة . وكان يعجبهم اداء الرقص الصيني بأنفسهم فتمنعهم الرجعية من ذلك ؛ فأخذوا يعلمونه للراقصين المحترفين الذين نشروا الرقصات الصينية في كافة انحاء اليابان . وطلب منهم ان يتحدثوا عن حياتهم في السجن وعن الصين الجديدة ، فتحدثوا عن الصداقة التي يكتنحها ابناء الشعب الصيني لشعب اليابان ، وعن موقفهم من الحرب الآن بعد ان اصبحوا اقوياء ، وعن آمالهم ومثلهم . بعض الناس متشككون ، وبعضهم له تحفظاته ، والآخرون مقتنعون . وقالوا ان الحكومة الموالية لامريكا تكرهمهم للغاية ، بينما ايمان الشعب بما قالوه يزداد . وقد نشروا كتابا بعنوان « سياسة التدميرات الثلاثة » ( ٢٢ ) وصفوا فيه الاعمال الوحشية التي ارتكبها الجيش الياباني في الصين كيف ابادوا السكان في بعض المناطق ، وكيف استخدموا ابناء الشعب الصيني كمواد للتجارب في الحرب البكتيرية ، وكيف شرحوا الناس احياء ، وما الى ذلك . وقد طبع من هذا الكتاب خمسون الف نسخة نفدت كلها في اسبوع .

وعندما سمع عدد من الجنرالات المتقاعدين احد زملائهم السابقين يصف تجربته فى الصين ، ظاوا صامتين وقتا طويلا قبل ان يقول احدهم :  
” ان فطرتنا وما عرفناه منكم تكفى لاقناعنا بحقيقة كل كلمة قلتموها لنا .  
ولكننا لا نستطيع ان نقول ذلك الا من خلف ابواب مغلقة . “

وعندما عاد عسكري سابق الى قريته ، جاء اهالى قريته لاستقباله حاملين راية كتب عليها ” نصر ابدى “ . ولكن عندما نزل من القطار القى خطابا مؤثرا اعمق التأثير ، فهم اهالى القرية منه بعد ذلك اسباب كارثة هيروشيما وبكوا . وسقطت الراية على الارض .

ان كثيرا من اهالى مجرمى الحرب كانوا من ابناء الشعب العامل البسطاء ومن الناس ذوى المشاعر الودية . وقد كتب عدد ليس قليلا منهم الى الحكومة الصينية فى الماضى يطلبون اطلاق سراح ازواجهم وابنائهم ” الابرياء “ .  
وسمح لبعضهم فيما بعد بالمعجىء الى الصين لزيارة اقربائهم المسجونين .  
وعندما سمع هؤلاء ما قاله اقرباؤهم واستمعوا الى تساجيل الاتهامات التى وجهها ابناء الشعب الصينى امام المحكمة بكوا مع السجناء . وفهموا الآن ان هؤلاء السجناء مذنبون وان العسكرية قد غررت بهم .

ان التغيرات التى طرأت على مجرمى الحرب اليابانيين ، شأنها شأن التغيرات التى حدثت فى اسرتى ، قد هزتنى من الاعماق . وبرزت فى ذهنى حقيقة واضحة كل الوضوح : ان الحزب الشيوعى قد استخدم العقل فكسب قلوب الناس .

## ” المجد العالمى “

منذ النصف الثانى لعام ١٩٥٦ دأب الصحفيون على زيارتى والاجانب يكتبون الى يطلبون صورتي . وفى فبراير ١٩٥٧ استلمت رسالة من فرنسى يطلب

متى فيها ان اوقع له على صورة لى ، وقد ارفقها بمقالة لا اعرف ما الغاية منها .  
هذه المقالة تقول :

### امبراطور الصين السجين

ان المجد العالمى لا قيمة له : هذا يلخص حياة سجين سياسى ينتظر  
الآن الحكم عليه فى سجن فوشون فى الصين الحمراء . لقد لبس الحرير الثمين  
وهو طفل ، ولكنه الآن يلبس ثيابا رثة محشوة بالقطن فيما يمشى وحيدا فى  
باحة السجن . اسم هذا الرجل هنرى بوىسى . قبل ٥٠ عاما اعان عن ولادته  
بعرض حيوى من الالعب النارية ؛ والآن يعيش فى سجن . عندما كان هنرى  
فى الثانية من عمره اصبح امبراطورا للصين ، ولكن ست سنوات من الحرب  
الاهلية اطاحت به عن عرشه الامبراطورى . وكان عام ١٩٣٢ عاما هاما  
له " ابن السماء " هذا : فبدعم من اليابانيين اصبح امبراطورا لامبراطورية  
منشوريا . وبعد الحرب العالمية الثانية لم يعد احد يسمع به الى الوقت الحاضر ،  
عندما كشفت صورته اللافتة للنظر مصيره المأساوى . . .

لو ان كاتب هذه المقالة ارسلها الى قبل سنتين لأمكن ان اذرف عليها  
قليلًا من الدموع ، ولكنها جاءت متأخرة جدا . وفى جوابى اليه كتبت اقول :  
" اننى آسف ، فأنا لا يمكن ان اوافقك على رأيك . ولا استطيع كذلك ان  
اوقع على الصورة . "

قبل مدة غير طويلة وجه الى بعض الصحفيين الاجانب فى مقابلات  
معهم عددا من الاسئلة " المتعاطفة " الشبيهة بما ورد فى المقالة : " هل  
تشعر بالحزن لكونك آخر امبراطور فى اسرة تشينغ ؟ " " هل تشعر بأن من  
غير العدل انك لم تحاكم بعد كل هذه المدة الطويلة ؟ ألا تجد هذا مدهشا ؟ "  
فأجبت بأن ما كان محزنا هو حياتى الماضية وانا امبراطور لأسرة تشينغ  
وامبراطور عميل . اما بخصوص الاشياء المدهشة ، فلقد اذهلنى اللين الذى  
عوملت به . وبدا ان الصحفيين لم يفهمونى ، وتخيلت ان السيد الفرنسى الذى

كتب الى سيشاركهم دون شك في عدم فهمهم عندما يقرأ جوابى .  
ان ما كان مجيدا حقا في نظرى هو شهامة فانغ سو رونغ ، البنت التى  
نجت من المذبحة ، والكلمات البسيطة التى قالها فلاحو تاي شانباو ، والتغيرات  
الكبيرة التى طرأت على شباب عشيرة آيشين - جيواو ، ولهيبي موقد الغاز  
في مطابخ عمال مناجم فوشون ، والمخاطر الصينية التى حلت محل المخاطر  
اليابانية في مدرسة الصنائع التى زرتها ، والحياة الآمنة التى يجيها العمال  
المتقاعدون في مأوى العجزة . أ كان هذا كله " لا قيمة له " بالنسبة لى ؟  
أ كان امرا لا قيمة له ان وضع الآخرون آمالهم وثقتهم في تحولى الى انسان  
حقيقى ؟ أ لم يكن هذا اهم الاحكام التى يمكن ان تصدر بحقى ؟  
انى مقتنع بأن مشاعرى هذه يشاركنى فيها كثير من السجناء الآخرين ،  
وان بعضهم قد توصل الى هذه النتيجة قبلى . ان الكثير منا مصممون حقا  
على اعادة بناء انفسهم من خلال جهودهم الخاصة بحيث كانت سنة ١٩٥٧  
الجديد مختلفة تماما عن السنوات السابقة .

لقد كنا نقيم في عيد رأس السنة وغيره من الاعياد حفلات يؤدى فيها  
ذوو المواهب منا بعض العروض . وكانت الممرات التى تقام فيها الحفلات  
عادة تتبدل منها المصاييح واشربة الزينة ، ويأتى هذا مع الطعام الجيد الذى  
يقدم الينا في تلك المناسبة فيعطينا شعورا زائدا بالسعادة . ولكن قبل رأس  
سنة ١٩٥٧ بوقت قصير شعرنا ان تلك الاحتفالات غير كافية ، وعزمنا على  
اقامة حفلة كبيرة في القاعة كما كان يفعل مجرمو الحرب اليابانيون . فأخبرت  
سلطات السجن ليجتنا الدراسية بأننا اذا كنا نظن ان بوسعنا ترتيب مثل هذه  
الحفلة فيمكننا ان نباشر ، ويمكننا ان ندعو مجرمى الحرب التابعين لتشيانغ  
كاى شيك الذين وصلوا مؤخرا ليكونوا متفرجين . وعندما نقلت لجنة الدراسة  
هذا الخبر الى الزنانات انطلقنا جميعنا بحماسة كبيرة .

لقد سررنا نحن السجناء سرورا عظيما لأننا قدرنا اننا ستقضى عيد رأس

سنة مسرورين . ودعمتنا سلطات السجن لأن هذه الوسيلة التي تمكن السجناء من تثقيف انفسهم قد نجحت نجاحا كبيرا لدى مجرمي الحرب اليابانيين : لقد كتب السجناء اليابانيون المسرحيات بأنفسهم ، وقد بنوها على اساس ما قرأوه في الصحف اليابانية . وكانت احدى هذه المسرحيات تتناول المخاوف الناجمة عن التفجيرات النووية في اليابان والجرائم التي ارتكبتها العسكرية اليابانية ضد شعب اليابان وبقيّة شعوب العالم . وقد تركت هذه المسرحيات تأثيرا تثقيفيا عميقا على الكتاب والممثلين والمتفرجين على السواء . لذلك قررت لجنتنا الدراسية ان تدرج في عرضنا مسرحيات من هذا الغرار . وقد لقي هذا الاقتراح دعما عاما ، وسرعان ما وضع الهيكل العام لتمثيليتين احدهما كانت " صحيفة حية " تدعى « هزيمة المعتدين » حول صد العدوان البريطاني على مصر ( عام ١٩٥٦ ) ؛ وكانت الاخرى حول التحول الذي طرأ على خائن من " امبراطورية منشوريا " وقد كتب التمثيليتين بو جيه وموظف سابق في حكومة وانغ جينغ وي العميلة .

ومع مضي العمل في التمثيليتين جرى اعداد جميع اشكال العروض الاخرى . فقد اعلن مشعوذنا لاو لونغ مثلا انه سيقوم بحيلة اكبر من اخراج البيض من قبة او ابتلاع كرات الطاولة . وكان اكثرا انشغالا لاو وان ، رئيس لجنة الدراسة الذي كان مسؤولا عن جميع الترتيبات . وكان روى الصغير مسؤولا عن التزيينات ، ولى الكبير الذى اصبح عامل كهرباء بارعا هو الذى تعهد بالانارة .

اننى لم اشترك في السنوات السابقة في العروض التي كانت تتم في الممرات ، ورأيت ان من غير الملائم ان اكون ذا نفع في تلك الاستعدادات . وهذه المرة ايضا توقعت ان لا يطلبنى الآخرون لأية مهمة ، ولكنى دهشت دهشة كبيرة حين اكتشف رئيس زنارتنا لاو تشو اننى استطيع ان اغنى على نهو مقبول ، وعينى في الجوقة . فتأثرت تأثرا عميقا ، وغنيت بمتهى الحيوية .



وبعد ان تعلمت اداء اغنيائى ، استدعانى لاو وان رئيس اللجنة الدراسية  
وقال لى :

— يا بوى هناك دور لك فى التمثيلية الاولى . انه ليس صعبا جدا ،  
وليس فيه اسطر كثيرة تستدعى الحفظ . وعلى اية حال يمكنك ان ترتجل  
اذا اردت ذلك . وهذا عمل ذو شأن وجزء من التثقيف المتبادل . . .  
— لا داعى الى ان تقنعنى . ما دمت ترى اننى ملائم لهذا الدور فاننى  
على استعداد لتأديته .

فقال لاو وان مبتسما :

— بالطبع تستطيع ذلك . انك ملائم لهذا الدور بالتأكيد . ان لك  
صوتا واضحا قويا . انك . . .

— هون عليك . اى دور تريدنى ان اؤديه ؟

— لقد سمينا المسرحية « هزيمة المعتدين » ، وانها تدور حول الغزو  
البريطانى لمصر والاهتياج الذى سببه هذا الغزو . وهى مبنية على اخبار  
الصحف . وسيقوم لاو رون بالدور الرئيسى — بوصفه وزير الخارجية البريطانى  
سلوين لويڊ . وانت ستمثل نائبا عماليا من الجناح اليسارى .

وذهبت لأرى بوجيه واقرأ النص واسمع شرحه لهذا النص واسجل الاسطر  
التي سأقولها . ثم تعين على ان اختار بدلتي . ونظرا الى اننى كنت اقوم  
بدور اجنبى فمن الطبيعى ان البس بدلة من الثياب الغربية التى لم يكن السجن  
يفتقر اليها حيث كانت كثير من ثياب السجناء محفوظة فيه . وعدت الى  
زنزانتى بالبدلة الزرقاء التى لبستها فى المحكمة العسكرية الدولية فى طوكيو ، وهى  
عبارة عن قميص وربطة عنق وثياب اخرى . نظرا الى عدم وجود اناس غيرى فى  
الزنزانة فقد لبست بمفردى . وعندما لبست قميصا ابيض دخل لاو يون  
وسألنى مندهشا عما افعل .

ونظرا الى اننى كنت مهتاجا وطوق قميصى ضيق جدا فاننى لم استطع

الاجابة فى البداية . واخيرا قلت لاهثا : ” اننى سأقوم بأداء دور فى مسرحية .  
تعال وفك لى الحزام الذى فى مؤخر صدرتى . “

ففعل ذلك ولكن الصدرية ظلت ضيقة جدا . فأدركت اننى قد ازدادت  
وزنا . ولقد ضغط حذائى الجلدى المستورد من انكلترا قدمى ، لذلك سألت  
لاو يوان فى تردد ان كانت هناك حاجة للبس حذاء جلدى لتأدية دور نائب  
من حزب العمال البريطانى .

— ستحتاج الى ذلك بالتأكيد . ان نواب حزب العمال البريطانى يستخدمون  
حتى العطور ، لذلك لا يمكنك بالطبع ان تلبس الحذاء القماشى المحشو  
بالقطن . لا تلتقى ، ان حذاءك الجلدى لن يؤذى قدميك اذا واصلت على لبسه  
بعض الوقت ، والصدرة يمكن ان تعدل . اذهب وتعلم الاسطر التى ستقولها .  
انه لخبر عظيم ان تقوم بالتمثيل .

وانهى كلامه بضحكة ظلت ترن فى اذنى وانا خارج امشى فى الممر .  
كنت منشراح الاسارير : لقد قال لاو وان ان هذا سيكون تثقيفا ذاتيا ونوعا من  
المساعدة المتبادلة . وكانت هذه هى المرة الاولى التى اساعد فيها الآخرين  
بدلا من ان اكون انا الذى احصل على مساعدتهم . وفوق هذا كله اصبحت  
لدى قدراتى كأتى انسان آخر تماما ، واصبحت على علاقة مساواة بالآخرين  
عندما طلب منا مساعدة بعضنا بعضا .

ومنذ ذلك الوقت رحت اتلو اسطرى دون انقطاع . وكانت هذه الاسطر ،  
كما قال لاو وان ، قصيرة جدا . وكان دورى من اصغر الادوار فى المسرحية .  
وفى نهاية المسرحية القى سلوين لويد خطابا فى مجلس العموم ليبرر اخفاق  
الغزو ، فبدأ بعض نواب المعارضة يسأله ، ثم اشترك الجميع فى الهجوم  
عليه . وعند هذه النقطة كان على ان اقف فى وسطهم واقول مخاطبا سلوين  
لويد : ” لا حاجة الى ان تستمر فى الدفاع عن تصرفاتك . انها تصرفات  
مخزية ، مخزية ، واقول ثانية مخزية . “ ويفترض ان تموج القاعة حينذاك

بالشتائم الغاضبة وبمطالبة لويد بالاستقالة ، وخلال ذلك اصبحت انا : ” اخرج !  
اخرج ! “ كان لهذه التمثيلية عقدة بسيطة جدا ، اهم عنصر فيها تلك  
المناظرة البرلمانية التي تستمر خمس عشرة دقيقة فقط . وقد افضت اضعاف  
هذا الوقت استعد لدورى مخافة ان انسى اسطرى او اخطئ فيها مخيبا  
بذلك الآمال المعقودة على . لقد عانيت فى الماضى من الارق او كنت اتحدث  
فى نومى ، ولذلك لأننى كنت قلقا او خائفا . اما الآن فأنا اعانى الارق للمرة  
الاولى بسبب الاثارة والاهتياج التى سببتها لى هذه التجربة الجديدة .

وعندما حل عيد رأس السنة وذهبت الى القاعة من اجل الحفلة انساني الجور  
المهرجاني والمسرح الرائع ما كان عندي من توتر . وبدا عرضنا جيدا بالقياس  
الى حفلات مجرمي الحرب اليابانيين : غناء جوقة وغناء منفرد ، واغان  
ورقصات منغولية ، وحديث متداخل ، وقصائد مصحوبة بالمخشخشات ،  
والعاب سحرية ، ومسرحية الصحيفة الحية « هزيمة المعتدين » ، ومسرحية  
« من الظلمة الى الضياء » . وعندما رأينا مدى التأثير على مجرمي الحرب من  
اتباع تشيانغ كاي شيك تغامزنا فى انفعال .

واذيت الفصول الاخرى اداء ناجحا استدعت الكثير من التصفيق .  
وكانت المادة الاولى بعد الاستراحة هى مسرحية الصحيفة الحية . وبدأت  
المناظرة . وظهر لاو رون بملابس سلوين لويد . ونظرا الى انه كان يملك  
انفا كبيرا فقد كان الوحيد الذى بدا كانكليزى ، وكان تمثيله بارزا : لقد كان  
فى غضبه وخوفه ويأسه وغطرسته الصورة الحية لوزير الخارجية المهزوم .  
وبعد عشر دقائق تقريبا همس الى لاو يوان ( وهو تصرف كان ضمن النص ) :  
” لا تكن متخشبا جدا . قم بحركة ما . “ وحدقت الى الامام ناظرا الى  
المتفرجين . وتماكنى شعور بأن اهتمام الجميع قد تركز على ، عضو البرلمان  
اليسارى من حزب العمال ، فجعلنى ذلك شديد التوتر . لم ينتبه الى احد  
عندما كنت اغنى فى الجوقة ، اما الآن فأعين الجميع نظرت الى . وقبل ان

استرد هدوئي استحقني لاو يون قائلا : ” قل شيئا ما ، قل شيئا ما لتدحضه . “  
فوقفت متوترا والتفت الى لاو رون الذى كان ما يزال مسترسلا فى الحديث ،  
وكنت قد نسيت كلماتي . ولكن جاءني الالهام فى اللحظة الحرجة فصحت  
بالانكليزية ” لا ! لا ! لا ! “ واسكتت صيحاتي هذه لاو رون ، وتذكرت  
اسطري . وبعد ان قاتلها سمعت دوى التصفيق من المتفرجين وصيحات  
” اخرج ! اخرج ! “ تبعث من المسرح . وغادر وزير الخارجية خشبة  
المسرح وهو يعدو مضطربا .

وكان لاو يون اول من هنأني بعد انتهاء العرض قائلا : ” انك لم تخطئ  
التصرف مطلقا . وعلى الرغم من انك كنت متوترا بعض الشيء ، الا انك  
لم تخطئ قط . “ ثم عبر الآخرون عن رضاهم وجعلوا بالضحك للكلمات  
التي ارتجلتها .

وهذأت القاعة تدريجيا ، وبدأت تمثيلية « من الظلمة الى الضياء » التي  
نقلتنا الى عالم مختلف . فأظهر المشهد الاول كيف ان اثنين من موظفي  
الشمال الشرقى السابقين اصبحا خائنين قياديين . وفى المشهد الثانى حاولا  
التواطؤ مع الكومينتانغ بعد استسلام اليابانيين ، ولكن الجيش الاحمر السوفياتى  
اسرهما . وفى المشهد الثالث حاولا خداع السلطات بعد ان اعيدا الى الصين ،  
ولكنهما لم ينجحوا فى ذلك ، وفى النهاية استجبا للثقيف الذى تلقياه من  
الحكومة ولسياسة اللين التي اتبعتها ، فاعترفا بذنوبهما وقبلا اعادة البناء .  
وعلى الرغم من ان التمثيلية لم تكن ممتازة فى تأليفها ، الا اننا نحن مجرؤى  
الحرب استطعنا ان نرى انفسنا فيها . لقد ذكرتنا بماضينا ، وشدت انتباهنا ،  
وجعلتنا نشعر المزيد من الخجل من انفسنا . وقد تضمن احد فصول التمثيلية  
كيف اجبر بعض الخونة ابناء الشعب على بناء معبد الامبراطور جيمو .  
وعرف ” الفم الكبير “ ان هذه قصته ، وسمعه الآخرون يغمغم : ” ما  
الغاية من اظهار ذلك العمل المخزى ؟ “ وفى مشهد آخر ظهرت مجموعة

اخرى من الخونة يجلسون فى غرفة ويتملقون اليابانيين ، مقترحين عليهم وسائل لسلب المحبوب من ابناء الشعب فى الشمال الشرقى . وسمعت شخصا بجانبى يزفر قائلا : ” ما اقدر هذا التصرف ! “ اما انا فشعرت ان اقدر شىء ليس ايا من هذه الشخصيات فى المسرحية بل المشكاة المغطاة بستارة فى زاوية القاعة والتي علقت فيها ” الصورة الامبراطورية الحقيقية “ للامبراطور الخائن . وعندما انحنى لها الممثلون فى المسرحية فى كل مرة ظهوروا فيها على المسرح ايقنت ان هذا هو اقدر شىء فى العالم .

وجاءت ذروة الحفلة فى المشهد الاخير عندما شرح موظفو الحكومة سياسة اعادة بناء المجرمين . ودوى التصفيق وترديد الشعارات اعلى من اى شىء آخر كان يسمع من قبل . وهذا لم يكن راجعا الى المسرحية نفسها بقدر ما كان راجعا الى التأثيرات الموحدة التى خلفتها الرسائل والزيارات العائلية ورحلاتنا الى خارج السجن واعترافات مجرمى الحرب اليابانيين فى المحكمة العسكرية وعوامل اخرى . ووسط الهتاف والتصفيق للذين صكوا الآذان امكن سماع نحيب مكبوت . لاو ليو الذى لم يكن يصدق ان ابنته تلقت عناية جيدة الا بعد ان رآها بأمر عينيه كان يهتز بالنحيب ؛ ولاو تشانغ الذى اصبح ثانية على علاقة جيدة بابنته كان يجأ بالبكاء وقلم الحبر يلتصع فى الجيب الذى على صدره .

ان العواطف التى اثيرت فى هذه الحفلة قد اظهرت لنا اى نوع من ” المجد “ كان ما يزال ممكنا بالنسبة لنا فى هذا العالم الحالى ، ” المجد “ الذى كان يزداد اشراقا وضوحا على الدوام . وبعد رأس السنة مباشرة اطلق سراح ثلاثة عشر سجيناً دون محاكمة ، وكان من بينهم ابناء اشقائى الثلاثة ولى الكبير . وبعد ان ودعناهم اقمنا حفلة اكبر من هذه تخللتها مسرحية عن قرية فى الشمال الشرقى فى فترة ” امبراطورية منشوريا “ وبعد التحرير . ومن ثم اطلق سراح اربعة سجناء آخرين ، من بينهم زوجا شقيقتي . وهذا

كان فى الوقت الذى استلمت فيه رسالة الفرنسى التى يتحدث فيها عن  
”المجد العالمى“ .

## زيارة اخرى

فى النصف الثانى من عام ١٩٥٧ خرجنا فى جولة اخرى ، وهذه المرة  
الى شنيانغ وآشان وتشانغتشن وهاربين . ورأينا مشروع خزان مياه فى داهوفانغ  
بالقرب من شنيانغ وثمانية عشر مصنعا وست وحدات علمية ومدارس  
وثلاث مستشفيات ومعروضين وقصرا لرياضة . وفى هاربين زرنا المنطقة التى  
عانت من النكبة التى انزلتها بها وحدة البكتريا اليابانية ٧٣١ وقاعة شهداء  
الشمال الشرقى . وتركنا فى نفوسنا هذه الجولة انطبعا اعمق مما تركته  
الجولة السابقة .

ان معظم المؤسسات التى زرناها قد بنيت حديثا باستثناء عدد ضئيل من  
المؤسسات الموروثة من اليابانيين . فالمصانع اليابانية كانت قد حطمت  
تخطيطا كاملا تقريبا عند الاستسلام . كما كان اليابانيون والكومييتانغ قد  
خربوا مصنع آشان للحديد والصلب ومصنع الآلات فى شنيانغ . وبعد ان  
تسلمتهما الحكومة الشعبية اعيد بناؤهما ، وسعا الى حجمهما الحالى الضخم .  
وقد ذهل كثير من وزراء ”امبراطورية منشوريا“ السابقين الذين كانوا  
قد رأوا هذه المصانع فى الماضى بهذا النمو الذى اصبحت عليه . واكثر  
ما ادهشنى هو كمية المعدات التى تحمل العلامات التجارية والمواصفات  
باللغة الصينية . لقد فكرت ، على ضئالة خبرتى ، كم من المعدات سيكون  
مكتوبا عليها ”مصنوع فى امريكا“ او ”مصنوع فى المانيا“ عندما  
ذكرت لنا الآلات ، اما الآن فقد رأيت مجموعات كاملة من المعدات  
كتب عليها ”صنع فى الصين“ . وكانت هذه المصانع قد بدأت تنتج

للتصدير ايضا . ومما جعلنى بالفخر تلك المنتجات التى رأيتها تخرج من المصانع تحمل الكلمات التالية : ” صنع فى جمهورية الصين الشعبية “ . وفى مصنع آئشان للحديد والصلب وقفت امام البنايات الهائلة من الحديد والصلب وحاولت عبثا ان افكر كيف تولد كل هذا من ركام معدنى مهمل . ولكن هذا ما قد حدث فعلا . عندما ترك اليابانيون آئشان قالوا : ” اتركوا آئشان للصينيين كى يزرعوا فيها الذرة الرفيعة . فحتى لو ارادوا ان يبدأوا فى تشغيل هذا المصنع ثانية ، فانهم يحتاجون الى عشرين سنة على اقل تقدير . “ ولكن الشعب الصينى لم يستغرق عشرين سنة بل ثلاث سنوات فقط ليستأنف تشغيلها ويحقق انتاجا سنويا يبلغ ١٣٥٠.٠٠٠ طن ، وهذا اعلى بكثير من الرقم الذى سبق ان تم التوصل اليه فى فترة ” امبراطورية منشوريا “ . وبعد خمس سنوات ارتفع الانتاج السنوى الى ٥٣٥٠.٠٠٠ طن ، وذلك اكثر من مجمل الانتاج خلال واحدة وثلاثين سنة منذ تأسيس مصنع شوى للصلب على يد اليابانيين عام ١٩١٧ حتى الانسحاب النهائى للكومينتانغ عام ١٩٤٧ . ورأيت اشياء كثيرة كهذه فى الجولة ، بينت لى بأن الشعب الصينى قد نهض . فالشعب لم يحقق انتصارات عسكرية فحسب ، بل استطاع ان يتنصر على الجبهة الاقتصادية ايضا . ولو اننى لم اشهد هذا بعينى ، او لو ان احدا تنبأ به قبل عشر سنوات ، لكنت متشككا كاليابانيين الذين نصحوا الصينيين بأن يزرعوا الذرة الرفيعة .

لقد نسيت خلال السنوات الاربعين الماضية اننى صينى ايضا . فقد انضممت الى اليابانيين فى الاشادة بأمتهم كأرواح على وجه الارض ، وشاركت تشنغ شياو شيوى اوهامه فيما يتعاق باستخدام ” موظفين اجانب “ و ” قوة اجنبية “ للاستفادة من موارد الصين ، وكثيرا ما تأففت مع بوجيه من غباء الصينيين اذا قورنوا بأبناء العرق الابيض الاذكياء . وحتى بعد دخولى السجن ظلت ارفض تصديق ان الصين الجديدة ستكون قادرة على الاحتفاظ

بمكانتها في العالم . وبدلاً من ان اكون مذهباً بالقوات الشعبية الصينية والكورية في معارك كوريا كنت مدعواً من ان يلتقى الأمريكيون قنابل ذرية عليا . ولم اكن قادراً على فهم السبب الذي جعل الحزب الشيوعي الصيني يتجراً على فضح الامبريالية الأمريكية على منبر الامم المتحدة او السبب الذي جعل وفود الجانب الصيني - الكورى تتجراً على تحذير الأمريكان في محادثات " بان مون جوم " من انهم لن يكونوا قادرين على ان يكسبوا على مائدة المفاوضات ما اخفقوا في كسبه في ميدان المعركة . وباختصار ، كنت مصاباً بحالة سيئة جداً من " داء العظم الطرى " .

وبعد ان وقعت الهدنة الكورية ولعبت الصين دوراً جديداً في الشؤون العالمية في مؤتمر جنيف ، فكرت في علاقات الصين الدولية منذ حروب الافيون : منذ عهد والد جدى الامبراطور داو قوانغ الى الكوميتانغ وتشيانغ كاي شيك ، كانت الصين مصابة بهذا الداء " داء العظم الطرى " . وخلال تلك السنوات المائة والتسع جاء حملة المدافع والافيون والمبشرون المزيّفون - الاجانب الذين ظنوا انفسهم اعلى حضارة ومنزلة - الى الصين وحرقوا وقتلوا وسلبوا واحتالوا . لقد ركز الغزاة الاجانب قواتهم في عاصمة الصين وموانئها ومدنها الكبيرة وطرقها الحيوية وحصونها الهامة . واعتبروا الصينيين عبيداً وبدائين وجعلوا منهم دريعة لهم . وسبوا للصين كثيراً من ايام الخزي الوطنى ، واجبروها على توقيع المعاهدات التى حولت شعبها الى عبيد . ان تعابير مذلة كثيرة قد ظهرت في التاريخ الدبلوماسى لتلك الحقبة : تساوى الفرص ، الباب المفتوح ، الدولة الاكثر حظوة ، الاراضى المؤجرة ، التعرفة الموهونة ، الساطة القضائية القنصلية ، حقوق الحماية العسكرية ، حقوق المهرنة ، الساطة القنصلية ، حقوق النقل النهري ، حقوق النقل الجوى ، وما الى ذلك . هذا مع ما تمتعوا به من الامتيازات الخاصة حيث كان الاجنبى غير خاضع لاختصاص المحاكم الصينية عن جرائمه التى يرتكبها



ضد الصينيين كاختصاب النساء وكانت دية الصينى اذا قتله اجنبى ثمانين دولار وهى اقل بعشرين دولار من دية الحمار .

ولكن هذه الحقبة المعززة قد ولت الى الابد . فلقد نهض الشعب الصينى وشرع الآن يبنى بلاده بكل ثقة ، جاعلا الاجانب الذين ضحكوا استهانة منا يعلقون افواههم .

لقد سمعت عند زيارتى مصنع السيارات فى تشانغتشون ان تلاميذ احدى المدارس الابتدائية ارادوا زيارته عند بدء الانتاج فيه . فرتب المصنع ان يرسل لهم باصا مستوردا لاجضارهم ، ولكنهم اصرروا على الذهاب فى شاحنة صينية الصنع .

ان الوطن الام قد حل منزلة سامية فى نفوس الاطفال ولكنه ظل اربعين عاما لا يعنى شيئا بالنسبة لى .

ان بوسع اى صينى اليوم ان يفخر بأنه صينى اينما كان ومهما كان . لقد كنت فى الماضى دائم الفضول بخصوص كيفية معيشة الآخرين — باستثناء فترة ”امبراطورية منشوريا“ الاخيرة وكانت اول مرة خرجت فيها لاشباع هذا الفضول هى عندما زرت قصر والدى ، والمرة الثانية كانت عندما تذرعت بمرض تشن باو تشن وذهبت لرؤيته . ولقد تأثرت تأثرا عميقا بالحرية فى حياتهما . وعندما انتقلت الى تيانجين شعرت ان ”الصينيين ذوى المنزلة العالية“ الذين رأيتهم فى المطاعم الغربية وحداثق التسلية الاجنبية كانوا اكثر منى حرية مع انهم ليسوا من اصل عريق ؛ ولهذا السبب لم اعجب بهم كثيرا ، ولكننى ظلمت فضوليا بشأنهم . وفى ايام ”امبراطورية منشوريا“ كنت شديد القلق على مركزى فلم تكن امامى فرصة للشعور بالفضول الشديد . وبعد اعادتى الى الصين لم اظهر اهتماما بمسائل كهذه فى البداية ، شاعرا ان حياة الآخرين ليست مهمة بالنسبة لى ، ولكن عندما نظرت الى مستقبلى نظرة تفاؤلية اصبحت هذه الاشياء تعنى الكثير عندى . وفى هذه الجولة ابدت

اهتماما كبيرا بالطريقة التي يعيشها الناس ، وما اكتشفته اثار في نفسى الذكريات  
وسبب لى ألما شديدا .

لقد تركت هارين فى نفسى اعمق الانطباع . فخط الاطفال الحديدى  
فى منتزه الاطفال هناك ذكرنى كيف كنت العب مع النمال فى طفولتى ونسبة  
العائشين من المواليد الجدد فى مستشفى الاطفال ، والمستوى الصحى العام  
بندان عن تخيل اسرة تشينغ الامبراطورية . وعندما جلست على مقعد فى  
جزيرة الشمس فى هارين ، انظر الى قوارب المتعة فى النهر واستمع الى  
الشباب يغنون ويعزفون الاكوردونات ، استعدت ذكرى النصف الاول من  
حياتى . اننى لم يسبق لى ان غنيت مستمتعا ، او لم يسبق لى ان عرفت متعة  
الجلوس على العشب تحت الشمس بمفردى ، ناهيك عن تمكنى من التمشى  
كما يحلو لى . لقد كنت فى تلك الايام قلقا اخشى ان يخدعنى الطباخ ،  
واخاف ان يقتلنى اليابانيون . اما هنا فقد بدا الناس متحررين من الهم والقاق .  
لقد كان على مقربة منى فنان شاب يرسم الطبيعة ووراءه حقيبته واشياؤه وهو  
مستغرق فى الرسم ، لم يلتفت اليها مرة واحدة ليتفقددها . لقد بدا واثقا كل  
الثقة بأنه فى امان . وهذا كان شيئا لا يمكن تصوره فى زماننا .

وقد رأيت فى المنتزه صندوق خشبى داخل كشك للهاتف لصقت عليه  
ورقة كتب عليها : ” الرجاء ان تضع اربعة فئات فى الصندوق مقابل كل  
مكالمة . “ واخبرنى احد زملائى من السجناء انه كان هناك ناد فى جزيرة  
الشمس فى الماضى . كان المرء يدفع فيه بقشيشا حتى حين دخل المرحاض .  
ولكن الرسائل التى تأتينا من الاهل اليوم تخبرنا ان العاملين فى اى .مطعم او  
فندق او حمام او اى مكان من هذه الامكنة سوف يشعرون بالاهانة اذا  
ما حاولت اعطاءهم بقشيشا .

لقد قمنا بزيارة لمكانين فى الايام الاخيرة من وجودنا فى هارين ، فأظهرتا  
لى هاتان الزيارتان الفرق بين نوعين من الناس فى هذا العالم . زرنا اولاً المكان

الذى ارتكبت فيه وحدة البكتريا اليابانية رقم ٧٣١ اعمالها الوحشية ، ثم  
زرنا قاعة شهداء الشمال الشرقى .

هناك كتاب يدعى « وحدة البكتريا رقم ٧٣١ » نشره في اليابان بعد الحرب  
العالمية الثانية رجل يدعى اكياما هيروشى كان عضوا في هذه الوحدة . ووفقا  
لهذا الكتاب كانت هناك مجموعة من المباني يبلغ محيطها اربعة كياومترا  
تقريبا ، وكان المبنى الرئيسى بينها يبلغ حجمه اربعة اضعاف حجم مبنى  
مارونوتشى في اليابان . وكان فيها حوالى ٣ آلاف شخص . وفي هذا المبنى  
ربوا عشرات الآلاف من الجرذان . وبالإضافة الى ذلك كان لديهم ٥٠٠  
محضن من طراز اشى ربوا فيها اعدادا فلكية من البراغيث وانتجوا ٣٠٠  
كيلوغرام من جراثيم الطاعون الدبلى شهريا . وكان هناك سجن اعتقل فيه  
اربع او خمسمائة من اسرى الحرب او الوطنيين المعادين لليابان لاستخدامهم  
في التجارب . وكان الاسرى من ابناء الصين والاتحاد السوفياتى وجمهورية  
منغوليا الشعبية . ولم يكن يشار اليهم على انهم اناس بل ” زناد خشب “ .  
وستماتة منهم على الاقل كانوا يعذبون حتى الموت كل سنة ، وكانت التجارب  
التي تطبق عليهم على درجة من القسوة لا توصف . فيوضع بعضهم عاريا  
في ثلاجة التجارب حتى يتجمدوا ثم ينتزع اللحم من عظام ايديهم وهى تهتز ؛  
وآخرون كانوا يمددون على طاولة العمليات مثل الضفادع بينما يقوم عاملون  
يلبسون المآزر البيضاء بتشريحهم ؛ وغيرهم كانوا يربطون بجذوع الشجر عراة  
الا من سراويلهم الداخلية ثم تفجر امامهم القنابل الجرثومية ؛ وغيرهم كانوا  
يطعمون جيادا ثم يحققون بالجراثيم ، واذا لم تقتلهم هذه التجربة فانها تكرر  
الى ان يموتوا .

وعندما كان مؤلف الكتاب يشتغل في هذه الوحدة سمع ان الجراثيم التى  
كانت تتكاثر هناك اقتلك من اى سلاح آخر ويمكنها ان تقتل ١٠٠ مليون  
انسان ، وهذا ما فآخر به الجيش اليابانى نفسه .

وعندما كان الجيش الاحمر السوفياتى يقترب من هاربين حاولت هذه الوحدة ان تغطى كل اثر لجرائمها . فسمم اليابانيون جميع السجناء الباقين ، مخططين لاحراقهم وتحويلهم الى رماد ثم دفنهم بعد ذلك فى حفرة كبيرة . ونظرا الى ان الجلادين كانوا فى ذعر وهلع ، فانهم لم يحرقوا الجثث احراقا تاما ولم يستطيعوا نقلها كليا الى الحفرة . فسحبوا منها الجثث نصف المحروقة وفصلوا اللحم عن العظم ، ثم احرقوا اللحم الى ان اصبح رمادا ووضعت العظام فى مساحن لسحقها . وفى النهاية دمرت المباني الرئيسية بالمفجرات .

وبعد مدة غير طويلة كان شخص من قرية مجاورة يمر بجانب ركام تلك المباني فرأى بعض البراغيث تتقافز داخل جرة خزفية مكسورة . وقد عضه احد هذه البراغيث . ولم يدرك انه قد اصاب بعدوى الطاعون الدبلى الذى خلفه المجرمون عندما غادروا . وانتشر الوباء فى القرية وعلى الفور ارسلت الحكومة الشعبية جيشا من العاملين فى الطب لمعالجة هذا الوباء ولكن على الرغم من كل ما بذلوه من جهود مات ١٤٢ شخصا فى هذه القرية التى تعد حوالى مائة اسرة فقط .

وقد شهدت هذه الحادثة المروعة جيانغ شو تشينغ ، عضوة تعاونية وعاملة نموذجية كنا قد زرتها . وبعد ان اخبرتنا بهذه الجرائم التى ارتكبت ضد هذه القرية فى ايام ”امبراطورية منشوريا“ قالت : ” لقد استسلم اليابانيون وتركوا اسلحتهم وهيأت لنا الحكومة الشعبية ان نعيش سعداء . فلدينا ارضنا ، واننا نحفظ لانفسنا بالمحاصيل التى نحصدنا . ونحن فى غاية السعادة ونقول ان كل شىء رائع تماما لأن الحياة سائرة نحو الافضل ونحن تحت قيادة الحكومة الشعبية . لم نكن نعرف ان شرور اليابانيين لا نهاية لها وانهم تركوا هذا خلفهم عندما غادروا . يا للقساة ! “

ولاحظت شيئا متشابها فى بيت جيانغ شو تشينغ الصغير الانيق وفى المكاتب الواسعة التابعة للتعاونية الزراعية : كلما تحدث اعضاء تعاونية النجم

الذهبي عن الماضي تكلموا قليلا وفي تودة ، ولكن في اللحظة التي يتحول فيها الموضوع الى الحديث عن الحاضر او المستقبل فان الجو يختلف تماما . فعندما تحدثوا عن القطاف الذي كانوا يقومون به في ذلك الوقت ، ولا سيما لمحصول الخضار ، تكلموا بكل تباه ودخاوا في ادق التفاصيل . ولتأيد ما قالوه اخذونا لمشاهدة دفيئاتهم والاشياء الجديدة التي اشتروها : معدات للرى والبزل ، وشاحنات ثقيلة واصناف متعددة من الاسمدة الكيماوية . ورأينا مدرسة وعيادة حديثتى البناء وكبلات كهربائية جديدة . وعندما تحدثوا عن اهداف السنة القادمة اصبحوا اكثر تحمسا . فقد اشار مسئول التعاونية الى صفوف من البيوت القرميدية الجديدة واختار كلماته بحذر شديد : ” بعد الخريف القادم سنكون قادرين فيما اظن على بناء بضعة بيوت اخرى . “ فلم يصدق اى منا ان كلمة ” بضعة “ تعنى عشرة او بضعة عشر بيتا فقط .

ولدى مغادرتنا هذه القرية جاب اعضاء التعاونية سلالا مألئ بالخيار والفجل ليقدموها لنا قائلين : ” خذوا هذه معكم . لقد جئناها لكم الآن ، وعلى الرغم من انها لا تستحق الذكر الا انها طازجة تماما . “ وتجاهل مسئول التعاونية اعتراضاتنا والقاهها في عربتنا .

حدثت من النوافذ الى السطوح القرميدية التي كانت تتراجع امام عيني بسرعة في تعاونية النجم الذهبي وفكرت في الانطباع العميق الخارق للعادة الذي تركته في نفسي كلمات مسئول التعاونية التي خرجت من فمه عادية جدا ” بعد الخريف القادم فيما اظن . . . “ ان هؤلاء الناس العاديين الذين احتقرتهم في الماضي لكونهم غير متحضرين نهائيا قد عملوا بأيديهم بكل كد واجتهاد مؤدين عملا عاديا وعظيما في آن واحد . لقد حولوا اكواخهم القشية الى بيوت قرميدية ليؤمنوا للناس حياة افضل . كان الامبرياليون اليابانيون الذين كنت اعتبرهم مع الخوف والتبجيل ممثلين لأمة بارزة ، قد استخدموا العلوم والتكنولوجيا الحديثة لايجاد الوباء ونشر الموت . وهم ايضا

كانت لهم مثلهم : استعباد وابادة امة مضطهدة .  
ان ركام مصنع الجراثيم قد اظهر معنى الشر ، بينما اظهر كل شيء  
باق للشهداء في قاعة شهداء الشمال الشرقي ماذا تعنى كلمة ”خير“ . كل  
معروض يحدثنا كيف ضحى صاحبه بآخر قطرة من دمه من اجل مثل انسانية  
اسمى ومن اجل حياة اكثر بهاء . لقد كانت آثار مصنع الجراثيم والملابس  
المالطخة بالدم ورسائل الشهداء الاخيرة مرايا استطعنا ان نرى فيها نحن السجناء  
ماضينا الكريه .

ان قاعة شهداء الشمال الشرقي هى مبنى مهيب على الطراز الرومانى كان  
مستخدما كمقر البوليس الرئيسى فى هارين خلال سنوات ”امبراطورية  
منشوريا“ الاربعة عشرة ، حيث استجوب اعداد لا تحصى من الصينيين  
الشجعان وعذبوا او سيقوا الى ساحة الاعدام فى ذلك العهد الدموى .

ان صور الشهداء ومخلفاتهم المعروضة هنا ليست الا غيضا من فيض .  
وجميع هذه المعروضات والتفاصيل المتعلقة بالازمنة والامكنة قد اعادت الى  
الذكريات المخجلة . فى ٢١ سبتمبر ١٩٣١ ، بعد ثلاثة ايام من نشوب  
القتال فى شنيانغ ، عقدت لجنة مقاطعة منشوريا للحزب الشيوعى الصينى  
اجتماعا طارئا دعت فيه جميع اعضاء الحزب وجميع الجنود الوطنيين فى  
الشمال الشرقى لحمل السلاح وخوض القتال ضد العدو . وقد ذكرتى صور هذا  
القرار والبيت الذى كان مقرا رئيسيا للجنة بالفرق الشاسع بين ذلك وبين ايامى  
فى الحديقة الهادئة بتيانجين قبل عشرين سنة . فمن اجل انقاذ الوطن فى  
ساعة الخطر هب شعب الشمال الشرقى تحت قيادة الحزب وقاتل غير مبال  
بالعقبات التى وضعها تشيانغ كاي شيك فى طريقه . اما انا فقد كثفت خيانتى .  
لقد تذكرت دويهارا واتاجاكى وتشنغ شياو شيوى وابنه ولوه تشن يوى ؛  
وتذكرت ايضا اقامتى فى تانغنانغتنسى وليويشون .

وعندما حدثنا الدليل عن حياة يانغ جينغ يوى ، تذكرت ”جولاتى

الامبراطورية “ المتعددة الى دونغبياندواو — المنطقة التي تمت فيها عمليات الجيش الاول المتحالف ضد اليابانيين تحت قيادة يانغ جينغ يوى ولى هونغ قوانغ وغيرهما من القواد . كنت قد رأيت قمم جبال تشانغباي والشمس ترتفع فوق ضباب الصباح . ولكننى لم اكن اثار بجمال وطنى الام حيث كان اهتمامى مشدودا الى رجال الدرك اليابانيين والقوات العميلة والبوليس العميل على جانبي الخط الحديدي . كانت الصحف التي يديرها اليابانيون تقول دائما ان ” قطاع الطرق “ فى هذه المنطقة قد ابيدوا عن آخرهم ، ولكن عندما ذهبت الى هناك وجدت اليابانيين قلقين ومظهرهم يدل على انهم يواجهون خصما قويا . وعندما هربت الى تونغهوا وداليتسيقو فى نهاية ” امبراطورية منشوريا “ مباشرة ابلغت ان هذه المنطقة غير ” آمنة “ . لقد ظلت الجيوش المتحالفة ضد اليابانيين تشق طريقها فى القتال الى ان تم استسلام اليابانيين ، وعندها لم يكونوا هم الذين ابيدوا بل الجيش اليابانى الامبراطورى الذى كان غالبا ما يعلن عن نفسه انه منتصر . لقد جابهت القوات المعادية لليابان جيش قوانغدونغ القوى وقوات ” امبراطورية منشوريا “ التي كانت افضل منهم من حيث العتاد ، وكانت الصعوبات التي احاطت بهم لا يمكن تخيلها تقريبا ؛ ولكن لدى نظرى الى القدور واوعية الماء والفؤوس المصنوعة بأنفسهم وآلات الخياطة البالية التي استخدمها المقاتلون المقاومون بدا لى اننى ارى وجوه اصحابها الباسمة ، وجوها كوجه ذلك المدير الشاب فى منجم لونغفنغ ، مشرقة بالابتسامات التي لا تنبثق الا من الثقة والتصميم . وعندما نظرت الى حذاء مصنوع من لحاء البتولا تردد فى اذنى صدى هذه الاغنية :

احذية لحاء البتولا ،

بضائع صينية ،

صنعناها بأنفسنا من موادنا ،

الاشربة من القنب البرى ،

والنعل من لجاء الشجر .

أحذية لجاء البتولا ،

أحذية الدرجة العالية ،

يتسلق الجنود قمم الجبال .

الفتيات الانبيقات لا يستطعن شراءها .

والعجائز الثريات لم يسعفن الحظ بلبسها .

أحذية لجاء البتولا

أحذية جيدة حقاً .

يركض الجنود بها عبر التلال ،

متعقبين الشاحنات وهى تصيح مدعورة ،

حيث يفقد الشياطين صوابهم من الذعر .

لقد اضطرني اليابانيون الى الموافقة على دفعة اثر دفعة من القوانين التى مكنتهم من ان يحشروا اهل القرى ويفرضوا السيطرة على الحبوب ، ويحاصروا المناطق الجبلية ، ويستخدموا كل وسيلة لا يمكن تخيلها لقطع الروابط الاقتصادية بين المقاتلين المقاومين والعالم الخارجى . وبهذه الطريقة نجحوا فى تطويق الجنرال يانغ جينغ يوى وبعض القوات المعادية لليابانيين ، ولكن على الرغم من نقص التموينات لدى هذه القوات الا انها ظلت ماضية فى فى القتال — وقتاً طويلاً جعل اليابانيين يبدؤون فى الشك فى تقارير مخبراتهم وفى معارف الناس العاديين . كيف استطاع هؤلاء الرجال ان يواصلوا القتال من دون حبوب ؟ ماذا كانوا يأكلون ؟ بعد ان استشهد الجنرال يانغ جينغ يوى فتح اليابانيون معدته ليحلوا هذا اللغز ، فكان كل ما وجدوه عشبا واوراق شجر .

وتذكرت زفرات يوشيوكا ” المامحق الامبراطورى ” : ” ان الشيوعيين



مرعون . “ فحتى العشب في نظر الجيش الياباني الامبراطوري المسلح بالطائرات والدبابات كان مرعبا .

عندما كان الجنرال يانغ جينغ يوى ورفاقه في السلاح يغنون تلك الاغنية حول احذية لحاء البتولا كنت انا مدعورا من ان يتركنى اليابانيون ومرعوبا من احلامى ؛ وفيما كانوا يأكلون العشب كنت متخما حتى سئمت من اكل اللحم وامضى ايامى كلها اقوم بالعرافة واتلو المحاورات البوذية .

وماجت امام عينى الخرائط والاختام والثياب الملطخة بالدم وكتابات الطفولة ، التى خلفها يانغ جينغ يوى . ومن خلفى انبعث نحيب زملائى السجناء الصينيين واليابانيين ، ثم اخذ يرتفع اعلى فأعلى . وعندما نظرنا الى صورة الشهيد تشاو يى مان شق احدهم طريقه الى الامام وركع امام الصورة منتحبا بمرارة وسجد لها .

” لقد كنت رئيس البوليس العميل . . . “

كان هذا الشخص هو يوى جينغ تاو وقد عمل رئيس بوليس هاربين قبل ان يصبح وزير العمل فى ” امبراطورية منشوريا “ . وعندما تم ايقاف تشاو يى مان فى هذا المقر الرئيسى للبوليس واستجوبت فى هذه الغرفة بالذات كان يوى جينغ تاو احد مستنطقيها . ولكن المستنطق قد حكم عليه التاريخ الآن وسجن . وغنى عن البيان ان يوى جينغ تاو لم يكن الانسان الوحيد الذى ينبغي له ان يبكى .

## عمل وتفاوض

بعد هذه الزيارة اقتنعت تمام القناعة بأن الابواب الى المجتمع الجديد مفتوحة امامى على مصاريعها وان المشكلات الوحيدة المتبقية تكمن فى داخلى :

وبدأت عام ١٩٥٨ مفعما بالامل . وقد كشف هذا الموقف التفاضلى عن نفسه اول مرة عندما كنا ننقل الفحم فى خريف عام ١٩٥٧ . كانت سلطات السجن تنقل كل خريف مقادير ضخمة من الفحم ، بعضها للمحافظة على تدفئتنا وبعضها لصنع قوالب فحم للدفئيات التى كنا نزرع فيها خضارنا الشوى .

وكانت هذه هى السنة الاولى التى نشترك فيها فى نقل الفحم وصنع القوالب الفحمية . وكنت حينذاك قد اصبحت اكثر قدرة مما انا عليه فى الماضى . وفى ززانتنا كنا اربعة اشخاص اصغر سنا نسبيا ، نقوم بأثقل الاعمال : لاو وانغ ولاو تشنغ المنغولى وانا وجنرال شاب سابق لدى ”امبراطورية منشوريا“ . وكان هذا العمل نافعا جدا لى . فقد ازدادت قوة واختفت امراضى السابقة . وعندما كنا نقوم بصنع القوالب الفحمية اخذت بنفسى العمل الثقيل نوعاما المتمثل فى حمل الفحم . ونظرا الى ان مدير السجن وبضعة كوادر آخرين كانوا يساعدون فى ذلك فقد مضى العمل فى نشاط . وقبيل ان ننتهى جلبت انا ولاو شيان ثلاث سلال ملى .

وبينما نحن نسلم ادواتنا سمعت السجنان وانغ يقول لأحد زملائه : ”ارى بو يى يعمل بجهد . ولا يسعى للفت الانظار بعمله .“

ووضعت انا ولاو شيان سلة الفحم التى كنا نحملها بعارضة كتف على اكتافنا ، واخذنا ملابسنا من الشجرة التى كنا قد علقناها عليها . فسألنى مدير السجن عن حالة كتفى مبتسما فنظرت الى كتفى واجبت :

- لم يصب بأذى ولم يتورم . بل احمر قليلا وهذا كل ما فى الامر .
- كيف شهيتك للطعام فى هذه الايام ؟
- ثلاث طاسات كبيرة من الارز او ثلاثين حبة كبيرة من جياوتسى .
- والارق ؟
- استسلم للنوم حالما يلامس رأسى الوسادة . وليس عندى اى مرض

اشكو منه مطلقا .

فضحك الآخرون جميعا ، ولكن ليس ضحك السخرية كما كان في الماضي . اننى لم اعد اسمع ذلك التضاحك مطلقا .

ولقد احرزت كذلك تقدما فى مجالات اخرى . فلم اعد اجد اننى بحاجة الى ان ابذل جهدا كبيرا فى دراسة « الاقتصاد السياسى » و« المادية التاريخية » كما كنت افعل فى الماضى ، واصبحت ملابسى الآن نظيفة تقريبا كملابسى اى شخص آخر . ولكن الشئ الذى كنت فى غاية الثقة ازاءه هو العمل الجسمانى . فما دمت لا يطلب منى تأدية اعمال دقيقة مثل صنع الازهار الورقية ، فقد كنت دائما فى الطليعة ، وحتى اولئك الذين كانوا ممتازين فى الدراسة النظرية اضطروا الى ان يشهدوا لى بالتفوق عليهم فى هذا الخصوص .

ان اعجاب رفاقى بى وتزايد ثقته بنفسى لم يكونا ناجمين الى حد كبير عن ترسيخ موقف سديد من العمل بقدر ما كانا ناجمين عن الحماسة الجديدة للعمل التى توفرت فى كافة اوساط المجتمع . فعند اواخر عام ١٩٥٧ ونحن نلاحظ ذلك من الصحافة ورسائل الاهل وموظفى السجن انفسهم . لقد بدا ان كل واحد كان يتسابق الى الاشتراك فى العمل الجسمانى الذى رأوا فيه شيئا باعثا على الاعتزاز . فعشرات الآلاف من موظفى الحكومة ذهبوا الى الريف ، و اضافت المدارس الى برامجها فترات للعمل الجسمانى ، وظهرت جميع اشكال فرق العمل الطوعى القصير الامد . وفى السجن نفسه ساعد الموظفون فى صنع القوالب الفخمية ، واعدوا الخضار فى المطبخ ، واعتنوا بفرن المطبخ ، بل جلبوا الطعام الى زناياتنا . وقبل ان تغادر فراشنا فى الصباح كنا نسمع اصوات عجالات العربات وقعقة المعاول والمجارف المحملة فوقها ، فنعرف ان مدير السجن والموظفين قد توجهوا لاستصلاح الارض المقفرة خارج السجن . وهذا كله بين لنا ان العمل فى المجتمع الجديد هو المقياس الذى

يقاس به الناس . واولئك الذين كانوا قيد اعادة بناء انفسهم ليسوا استثناء . ولقد نسيت من الذى اخبرنى بأن كثيرا من الناس كانوا متوهمين بأن العمل عقوبة فرضها الاله على النوع البشرى وان الشيوعيين وحدهم هم الذين رأوا فيه حقا من حقوق الانسان . وكنت فى ذلك الحين قد فقدت كل اهتمام لى بالآلهة او ببوذا ، فلم افاج فى ملاحظة اية علاقة بين الاله والعمل . واستطعنا جميعا ان نرى ان العمل من وجهة النظر الشيوعية شىء طبعى . واذكر مرة اننا كنا نزيل كومة من الفضلات ومر بنا الموظف المهدب لى . فتناول معجرفة وشرع يعمل بأكثر منا سرعة وفاعلية ، غير معتبر ان هناك شيئا غريبا فيما كان يفعل .

ان الاهمية المنوطة بالعمل والتعجس له عام ١٩٥٨ قد تركا فى انفسنا انطبعا اعمق . لقد علمت كثيرا من الاشياء الجديدة المذهلة من الرسائل التى جاءتنى من بكين . فالأخت الثانية التى كان من عاداتها ان تمكث فى البيت غير مانتفتة الى شىء قد اشتركت الآن فى نشاطات لجنة الشارع ، وذلك بالمساعدة فى انشاء روضة لاطفال الامهات العاملات . والأخت الرابعة التى عملت فى القصر الامبراطورى السابق قد اشتركت فى مشروع طوعى لاعادة انشاء بحيرة خارج بوابة ده شنغ فى بكين وقد اعطيت لقب : ” النشطة الخماسية المزيا ” والأخت الثالثة وزوجها اشتركا فى الدراسات السياسية التى نظمتها لجنة المؤتمر الاستشارى السياسى الشعبى فى منطقتهم . ولأورون عمل فى خزان اضرحة اسرة مينغ للمياه سويا مع مسنين آخرين من المؤتمر الاستشارى السياسى الشعبى فى منطقتهم ، ولقد اشيد بهم على ابتكار فنى قاموا به . والأخت الخامسة وزوجها لاو وان اخبرانى مفتخرين ان ابنهما الاكبر الذى كان يدرس الجيولوجيا فى الجامعة يقوم الآن ببحث حول الاستفادة من الثلج والجليد وانه الآن مع بعثة استكشاف فى جبال الشمال الغربى . وكان بعض ابناء اشقائى ولى الكبير يعماون قادة فرق فى مزرعة للدولة فى ضواحي

العاصمة . ففى كل مكان كان هناك عمل وحماسة ، كما لو كانت طبول الحرب تدق ايدانا بالهجوم على الطبيعة . وفى هذه الحملة التاريخية للارتفاع بالبلاد عن تخلفها كان كل فرد يقوم بأداء نصيبه من العمل . ولقد خرج جميع زملائى السجناء من رسائلهم العائلية بنفس الانطباع . وعندما سمعنا ان الرئيس ماو ورئيس مجلس الدولة شو ان لاي والوزراء قد اشتركوا جميعا فى بناء خزان اضرحة اسرة مينغ للمياه لم يعد من الممكن ان تتمالك انفسنا عن الاندفاع الى العمل. وطلبنا من لجنة الدراسة وسلطات السجن ان ينظمونا فى القيام بعمل انتاجى .

واستجابت سلطات السجن لطلبنا . فأقاموا اولاً معملًا لصنع المحركات الكهربائية ، ولكن نظرًا الى اننا كنا قليلين جدا فقد اسند هذا العمل الى مجرمى الحرب من اتباع تشيانغ كاي شيك فى اقسام اخرى من السجن . وقمنا بدلا من ذلك بالتدرب على تحقيق مهارات انتاجية ، فقسمنا الى خمس مجموعات بحسب كفاءتنا : مجموعة لتربية المواشى ، واخرى لمعالجة الاطعمة ، وثالثة للبستنة ، ورابعة لزراعة الخضار ، بما فيها الدفيئات ، وخامسة للعمل الطبى وشكأت انا مع اربعة آخرين المجموعة الطبية . وربطنا العمل بالدراسة . فكان علينا ان ننظف العيادة كل يوم ، ونقوم بجميع الخدمات غير الطبية ، ونشترك فى العمل الطبى المساعد ؛ وكنا كذلك نمضى ساعتين يوميا فى قراءة الطب وعقد مناقشات بتوجيه من الطبيب ون ، احد موظفى السجن . وكان زملائى الاربعة اطباء قبل ذلك ، فأخذ ثلاثة منهم بمراجعة الطب الحديث بينما درس الآخر معى الطب الصينى التقليدى . وبالإضافة الى ذلك درسنا جميعا فن العلاج الوخزى والعلاج بالشيخ المضطرب . وهذه الفترة من العمل فى مجموعة صغيرة اعطتني ثقة بالنفس جديدة .

على انى لم اكن ماهرا كالأخرين فى هذا المضمار فى البداية . فمماسح القطن الطبى الجراحية التى صنعتها بدت مثل كتل من خشب القطن ؛ وعندما

أخذت قياس ضغط الدم كنت اركز نظرى على المضغط وانسى ان اصغى الى السماع ، او اصغى وانسى ان انظر ؛ وعندما كنت اتعلم استخدام الجهاز الكهربائى لمعالجة ضغط الدم كنت دائما ما اصاب بتشوش ولا اتمكن من القيام بهذا العمل على نحو صحيح . ولم اكن افوق الآخرين الا فى الاعمال غير الطبية او العمل العصبى . فصصمت على اتقان العمل الطبى . وعندما كان الطبيب او الممرضة يعلماننى شيئا كنت اطلب من زملائى الطبية ان يشرحوه لى ثانية ، ومن ثم امارسه بنفسى دون انقطاع . وهكذا تعلمت تدريجيا اتقان مهنتى مساعدا طبيا . وكان احد مجرمى الحرب اليابانيين يأتى كل يوم لأخذ معالجة كهربائية ، وكان ينحنى لى بعد ذلك انحناءة شديدة ويقول : ” شكرا ايها الطبيب “ ، فأسر لذلك بالغ السرور . ونظرا الى اننى البس متزرا ابيض ونظارات لم يكن امرا غريبا ان يخطئ هذا الخطأ ؛ وقد اظهر ذلك ان مهارتى كانت كافية لكسب ثقة المريض . وفى نهاية الدورة الاولى اجرى لنا الطبيب ون امتحانا فنلت الدرجات التامة كالأخرين . عندما كنا نقوم بانتاج محركات كهربائية انتاجا تجريبيا خابت محاولتى للاضطلاع بأى عمل سوى الاعمال البالغة السهولة التى كانت تسند الى ، وقد اعتبرت هذا اجحافا بحتى . ولكننى الآن تعلمت ان اكون مساعدا طبيا ، وقد اخطأ الآخرون فظنوني طبيبا مكتمل الخبرة ، وحصلت على الدرجات الكاملة فى امتحانى الاول . لقد اصبحت على ثقة بأننى لست بليدا تماما بل سأكون قادرا على اتقان هذه المهارة ؛ ولن اعود بحاجة الى مجوهراتى البالغة ٤٦٨ قطعة لاعالة نفسى .

وذات يوم طلبت ان ارى مدير السجن . وكان المدير السابق قد نقل الى وظيفة جديدة ، اصبحت من خلالها مضطلعا بمسؤوليات اخرى عدا سجننا ، فلم يعد يأتى بانتظام ، لذلك رأيت نائبا له يدعى جين الذى اصبحت الآن مسؤولا عن السجن . فقلت :

- يجب ان تقبل الحكومة تلك المجوهرات رسميا ، وعلى اية حال  
لقد فقدت الوصل الخاص بها منذ زمن طويل جدا .  
وظننت اننى يجب ان اشرح لنائب المدير موضوع المجوهرات ، ولكننى  
دهشت حين اجابنى على الفور مبتسما :  
- اننى اعرف كل شىء عنها . حسنا اذن ، هل انت واثق من انك  
ستكون قادرا على اعادة نفسك من خلال عملك ؟  
وامضيت بقية ذلك اليوم اقدم معلومات عن كل قطعة من الـ ٤٦٨ قطعة  
من المجوهرات وسكرتير يسجل ذلك كله . وعندما انتهيت من ذلك خرجت  
الى الفناء شاعرا بالاطمئنان ، ظانا ان كلمات نائب المدير كانت دليلا على  
اننى احرزت تقدما ملحوظا . ترى هل اطل اليوم الذى سأغدو فيه انسانا  
حقيقيا ؟

## الاختبار

قدرت نفسى تقديرا اعلى مما ينبغى ، وقد اكتشفت ذلك عندما ووجهت  
باختبار .  
ففى الوقت الذى كانت تجرى فيه القفزة الكبرى الى الامام فى كافة  
انحاء البلاد اوضح لنا مدير السجن اننا بحاجة الى مراجعة افكارنا لنزيل بذلك  
العقبات الايديولوجية من طريق تقدمنا . وكانت الوسيلة التى اتبعت مع كل  
مناهى القيام فى اجتماعاتنا الدراسية بمناقشة التغيرات التى طرأت على تفكيرنا  
والمسائل التى لم نفهمها بعد .  
وحين جاء دورى وقعت فى اضطراب . فبعد ان تحدثت عن ايديولوجيتى  
القديمة والتغيرات فى مواقفى سألتنى احدهم :  
- شخص بخلفيتك يجب ان تكون له روابط وثيقة بالامبريالية اليابانية ،

وربما تكون الى الآن توقا اليها في افكارك ومشاعرك الخاصة . ان صلاتك بها لم تكن اوهى من صلاتنا بها ، فلماذا انت الوحيد الذى لم تذكر هذا ؟ لا تقل لى ليس عندك مشاعر كهذه .  
— ليس عندى مشاعر نحو اليابانيين سوى الكراهية . اننى اختلف عنك في هذه الناحية .

واثار هذا عاصفة من الاعتراض : ” لماذا لا تكون اكثر تواضعا ؟ انك ما تزال ترى نفسك اعلى منا منزلة ، أليس كذلك ؟ “ ” اية مشاعر لديك الآن ازاءهم ؟ هل انت اكثر تقدما منا نحن البقية ؟ “ وضرب احدهم امثلة كثيرة من حياتى الماضية ، مثل القصائد التى نظمتها عندما ذهبت الى اليابان والطريقة التى ساعدت بها ام الامبراطور اليابانى فى رقى بعض درجات السام ليوضح اننى كنت فى تلك الايام ممثنا لليابانيين اكثر من اى شخص آخر ؛ ووجد ان من الصعب قبول انكارى التام هذا . فأجبت اننى واليابانيين كنا نستفيد من بعضنا فى الماضى ، فلم يكن هناك مسألة مشاعر . اننى لم احاول طعن الآخرين عندما عبرت عن هذا الانكار الذى كان صحيحا تماما ، ولكن لم يكن احد مستعدا لقبول توضيحي . وعندما وصفت رعبى اثناء هروبى الى داليتسيفو سئلت :

— عندما كان اليابانيون عازمين على ارسالك الى طوكيو ارسدوا فيها باسمك ثلاثمائة مليون ين لتغطية نفقاتك التمهيدية . أ لم يجعلك هذا ممثنا للامبريالية اليابانية ؟

فقلت مندهشا :

— ثلاثمائة مليون ين ؟ اننى لا اعرف اى شيء عن ذلك .  
ولم يكن هذا فى الواقع سرا كبيرا . فعندما اخذ جيش قواندونغ احتياطات الذهب الاخيرة من خزينته ” امبراطورية منشوريا “ اعان للعالم انها ستقل الى اليابان لـ ” امبراطور منشوريا “ . ولكننى لم ار فنا واحدا من هذه النقود ،



وكل شخص عرف ذلك ، ولهذا السبب لم توجه هذه المسألة ضدى . ان السبب الوحيد الذى اثار هذه المشكلة هو انهم ارادوا معرفة شىء عن حالتى الفكرية فى ذلك الوقت . ولو اننى رجعت بفكرى الى الوراء بهدوء او استمعت بتواضع لما قاله الآخرون لكنت قادرا على تذكر ذلك ؛ ولكننى بدلا من ذلك اكدت لكل ثقة اننى لا اعرف شيئا عن الامر . فبدأ كثير من الذين يعرفون هذا الامر يصيحون :

— انت لا تعرف شيئا عن ذلك ؟ هذا الامر قد عالجه تشانغ جينغ هوى وتاكيب روكوزو . هل تحاول التكرار لمسؤوليتك لأن تشانغ جينغ هوى قد مات مؤخرا ؟

وسألنى شخص آخر :

— أ لم تكتب عن هذا الامر فى اعترافك ؟

وعندما قلت اننى لم اكتب اصبحوا اكثر اندهاشا ، وقالوا :

— ولكن كل واحد يعرف هذا الامر .

— هذه ليست مسألة ثلاثمائة او ثلاثة آلاف بل ثلاثمائة مليون .

وفى ذلك المساء عدت بتفكيرى الى الوراء ، فتذكرت ان شىء تشيا قد اخبرنى فى داليتسيكو بأن اليابانيين قد اخذوا الذهب كله من ” مصرف امبراطورية منشوريا “ معهم بحجة انه سيستخدم لنفقتى فى اليابان . فهذه يجب ان تكون الثلاثمائة مليون ين التى جرى الحديث بشأنها . ولكننى فى ذلك الوقت كنت فى غاية القلق بسبب التهديد المباشر لحياتى بحيث لم اعر هذه المسألة اى اهتمام . وفى اليوم التالى سألت ان كانت تلك هى النقود المعنية ، فقالوا لى انها هى المعنية . لذلك اخبرت مجموعتى الدراسية بشأنها . فسألنى عدد منهم بصوت واحد :

— لماذا اخفيت هذا من قبل ؟

— لم اخفه ، بل نسيت .

- أ ما تزال تصر على انك نسيته ؟
- لقد تذكرته الآن .
- لماذا لم تذكره فى السابق ؟
- قلت لكم : اننى نسيته . ان من الطبيعى ان انسى اشياء فى بعض الاحيان ، أ ليس كذلك ؟

فأثار هذا عاصفة اخرى من الاعتراضات : ”كلما تعمقت فى رجوعك الى الورا اصبحت ذاكرتك افضل مما هى عليه ، وكلما كانت الاشياء اقرب ازددت بخصوصها نسيانا . وهذا غريب حقا . “ ” من الواضح انك خائف من شر مرتقب ، ولكنك لا تجرؤ على الاعتراف بذلك . “ ” اذا لم تكن لديك الشجاعة على الاعتراف بأخطائك ، فانك لن تتمكن ابدا من إعادة بناء نفسك . “ ” لا احد منا يصدقك . اننى اضمن ان الحكومة لن تتخضع بقصصك ثائية . “ ” انك مراوغ وكذاب . “ ” كيف يمكن لمخادع مثلك ان يعيد بناء نفسه ؟ “

وكلما اكثرت من محاولة الدفاع عن نفسى قل تصديق الآخرين لى ، فأصبحت قلقا : من الواضح انهم جميعا يرون اننى كاذب . فاذا اجمعوا كلهم على ذلك ، فهل سيصدقنى مدير السجن ويقف ضدهم ؟ غزت هذه الافكار ذهنى ، وتملكتنى كالشياطين ، فغدوت كالابله . اننى لم اقلق بصدد ذلك من قبل ، ولكننى قلقته الآن . ولدى تفكيرى فى انه من المحتمل ألا يصدق مدير السجن كلمتى ويقف ضد الآخرين جميعا خارت عزيمتى وعدت الى سابق طريقي التعمسة ؛ واعدت نفسى لنسيان مبادئى ما دمت استطيع اجتياز هذه العاصفة . أ لن اكون قادرا على تلمس طريقي وسط هذه الازمة اذا انا قمت بالاعتراف ؟ حسن جدا اذن . وقلت اننى لم اجرؤ على ذكر هذا من قبل لأننى كنت اخاف ان تعاقبنى الحكومة ، ولكنهم الآن قد اقنعونى بالتغلب على مخاوفى .

وعلى الرغم من اننى قد نسيت حقاً موضوع الثلاثمائة مليون ين ، الا انه بدا لى كأن شيئاً كان يختفى فى اعماق نفسى ثم انكشف الآن .

لم يعد اعضاء مجموعتى يبدون المزيد من الاهتمام بمشكلاتى هذه بعد ذلك ، ولكننى لم استطع ان انحى هذا الامر من ذهنى . وكلما ازدادت تفكيراً فيه اصبحت اكثر اضطراباً ، واقتنعت اننى قد افسدت حالى كله . ومع انه لم يكن هناك ظل لشك فى اننى قد نسيت امر النقود ، الا اننى قلت اننى اخفيت الحقيقة . وخوفاً من ان تظننى الحكومة مخادعا كذبت عليها . وسببت لى هذه المسألة شعوراً بتأنيب الضمير ، واخذت اعانى مما فعلت .

لقد كنت فى الماضى ، عندما شككت فى ان كل تصرف لموظفى السجن يبطن عداوتهم لى ، احس بالهلع الشديد من الاعداء . اما الآن فقد عرفت ان الحكومة لا تريد قتلى ، بل تقوم بمساعدتى لكى اصبحت انساناً جديداً . ولكن فى اللحظة التى اصبحت فيها مفعماً بالامل واجهتنى هذه المحنة الجديدة ، وكلما ازداد التشجيع الذى لقيته من موظفى السجن ازدادت شعوراً بالاضطراب . وذات يوم اخبرنى سجان بأن مدير السجن يريد ان يرانى . فظننت فى الحال ان هذا اللقاء سيكون حول الثلاثمائة مليون ين ، وقدرت انه قد يكون غاضباً منى لاستمرارى فى محاولة اخفاء جرائمى على الرغم من الطريقة التى يعاملونى بها . وكان الاحتمال الآخر الذى وضعته انه ربما سر منى لاعترافى بجرائمى وكتابتى اعترافاً بذلك ؛ وربما يمدحنى على هذا التصرف ، وهذا سيكون اسوأ . وذهبت الى غرفة الاستقبال الخاصة بمدير السجن خائفاً مذعوراً ، ولكننى اكتشفت انه طلبنى ليتحدث معى فى شىء آخر مختلف تماماً .

وبعثت هذه المقابلة فى نفسى المزيد من الاكتئاب . ان مدير السجن السابق لم يحضر الى السجن منذ وقت طويل ، واليوم كان معه موظف آخر اعلى منه . وبعد ان سألانى عن دراساتى وعملى الجسمانى سألانى كذلك عما افعله اثناء حملة اباداة الحشرات . وقال المدير انه قد ابلغ بأننى قد احرزت بعض

التقدم فى قتل الذباب وقمت بواجبى ، ولكنه لم يعرف مدى نجاحى فى الحملة الحالية ضد الفئران . فأجبت بأننى لم اضع خطة بعد ، ولكننى رأيت ان كل واحد فى زنرانتا سيقول واحد على الاقل منها . فقال الموظف الاعلى والجالس بجانب المدير :

— وماذا بخصوصك ؟

واصبحت بالرعب حين عرفت انه الرجل الذى سألتنى فى هاربين عن سبب عدم اعتراضى على المجازر التى ارتكبتها اليابانيون . ودون ان ينتظر اجابتي سألتنى سؤالاً آخر :

— أ ما تزال ضد القتل ؟

ثم جلجل صوته بالضحك مما بعث الاطمئنان فى نفسى . واجبت بأننى قد تخليت عن هذه الافكار منذ فترة طويلة واننى مخطط لقتل فأر واحد على الاقل خلال هذه الحملة . فhez رأسه قائلاً :

— ان خطتك هذه شديدة التحفظ . فحتى الاطفال فى المدارس الابتدائية يخطط كل منهم لقتل اكثر من فأر .

— سأبدل كل ما فى وسعى لقتل اثنين على الاقل .

فقاطعتنى المدير قائلاً انه لن يضع حداً لى بل سيدعى اقتل اكثر ما استطع . ثم صرطنى الى زنرانتى بعد ذلك مباشرة .

وعدت الى زنرانتى مثقل النفس . ولم يكن ذلك بسبب ذعرى من خبر اصطيد الفئران ، ذلك الشئ الذى لم افعله فى حياتى قط ، بل بسبب الافكار التى اثارها هذه المحادثة . وتذكرت كيف فتش المدير عن خطئى على نحو خاص خلال حملة قتل ذباب وكيف شجعنى عندما تعلمت غسل ملابسى . لقد خصصت سلطات السجن جهداً كبيراً جداً لتعلمنى كيف اصبح انساناً ؛ ولكننى شعرت الآن اننى لو قتلت حتى مائة فأر لن اكون قادراً على التكفير عن خطئى .

وعندما رآنى السجان جيانغ الذى كان قد انتهى لتوه من نوبته اجلس فى النادى وحدى ، سألتنى ان كنت قد توصلت الى طريقة ما لاصطياد الفئران وعرض مساعدته لى فى صنع فخ . ولكننى من خلال جهلى المطبق لكيفية اصطياد الفئران لم اعرف كذلك اين تعيش . لذلك قبلت عرضه بسرور ، وفيما كنت اتعلم صنع افخاخ الفئران عاودنى القلق من جديد .

وتحدثنا ونحن نقوم بصنع الافخاخ فاستعرض لى السجان جيانغ طفولته ، فأتاح لى فرصة الاستماع الى معاناته التى مر بها . لم اكن اتخيل قط ان هذا الشاب الهادئ اللطيف قد عانى من الظلم الشديد فى ايام ”امبراطورية منشوريا“ . لقد كان ضحية نموذجية لسياسة دمج العوائل والقرى . فبعد ان اكراهت اسرته على الانتقال عدة مرات امضوا الشتاء فى كوخ ، واصيبوا جميعا بالتيفوئيد . فمات اخوته السبعة جميعا ، ولم يبق حيا الا هو . واضطروا الى دفن الاخوة السبعة عراة .

وانتهت قصته مع انتهاء صنع الافخاخ . واخذنى لبحث عن جحور الفئران ، وتبعته فى صمت ، اتساءل كيف امكن لشاب قتل اخوته السبعة على ايدى نظام ”امبراطورية منشوريا“ ان يساعدنى اليوم . هل جميع السجانين الآخرين اللطيفين جدا فى معاملتهم لنا قد عانوا مثله فى الماضى ؟ وسألته :

— هل عانى السجان وانغ والسجان ليو مثل هذا الظلم من نظام ”امبراطورية منشوريا“ ؟

— كل واحد عانى فى تلك الايام . فالسجان وانغ اخذ الى العمل الالزامى ثلاث مرات ، والسجان ليو لم يبق امامه من خيار الا ان ينضم الى الجيش المتحالف المعادى لليابانيين .

وادركت دونما حاجة الى ان اسأله ثانية ان جميع موظفى السجن من اهل الشمال الشرقى قد اصطلوا ببنيران ”امبراطورية منشوريا“ .

وتمكنت بارشاد السجان جيانغ من قتل ستة فئران . وعندما سمع السجانان وانغ وليو اننى اصطدت بعض الفئران جاءا لرؤية " اسراى " كأنما ذلك انجاز معجز ، واشادا بى على تقدمى . ولكن تهنئتهما لى جعلتنى فى غاية الاضطراب : فبينما هؤلاء الناس من ضحايا نظام " امبراطورية منشوريا " ، يعلقون اهمية كبيرة على تقدمى كنت ما ازال اخدعهم .

وظفقت اذهب الى العيادة كل يوم كالمعتاد ، اكنس الغرفة ، واقيس ضغط الدم ، واقوم بالمعالجة الكهربائية ، وادرس الطب الصينى التقليدى ، واستمر مجرم الحرب اليابانى القصير ينحنى لى . ولكننى الآن لم اسمع ما كان يقوله ، واصبح من الصعب فهم « الخطوط العريضة فى الطب الصينى التقليدى » ، وكنت اضطر غالبا الى قياس ضغط الدم للمرضى عدة مرات . وكتبت لى اخواتى وازواجهن عن نجاحاتهم الجديدة ، وعبروا فى رسائلهم عن امليهم فى ان اعيد بناء نفسى بسرعة واتمكن من مشاركتهم حياتهم السعيدة . وقد قرأت هذه الكلمات على انها توبيخ .

وعندما جاء الخريف قمنا بالمهمة الثقيلة المتمثلة فى صنع القوالب الفحمية وساعدنا نائب مدير السجن والكوادر فى اعداد الوقود الذى سيستخدم فى الدفئيات شتاء . وبذلت كل طاقاتى فى نقل الفحم متجنبنا لفت انتباه المدير . انه اذا امتدحنى فسيكون ذلك اسوأ على من توبيخى .

و ذات يوم انشغلت بأمر آخر ، وعند الوقت الذى كنت سأقوم فيه بمعالجة كهربائية كان هناك اثنان ينتظران . احدهما اليابانى الذى كان ينحنى لى دائما ، وحيث انه مريض مواظب قررت ان اعالجه اولاً . ولكنى دهشت حين رأيته يشير الى الرجل الآخر ويقول بالصينية :  
— ارجوك تفضل انت اولاً . وانا لست مستعجلاً .

فقال الرجل الآخر وكان مجرم حرب من اتباع تشيانغ كاي شيك :  
— انت نجئت اولاً ، لذلك يجب ان تعالج انت اولاً .

واضاف شارحا :

— شكرا جزيلًا ، ولكننى لست مستعجلا . يمكننى ان اجلس هنا وانتظر .  
ولسوف يطلق سراحى قريبا .

لم اكن اعرف من قبل انه يتكلم الصينية على هذا النحو الجيد . ونظرا الى اننى رتبته للجهاز لمعالجة مجرم الحرب الكومينتانغى ، القيت فى اتجاهه عدة نظرات . كان ينظر فى اتجاه الجدار بجدية . وبعد لحظة اتجهت نظره الى السقف وقال بصوت خافت ، لم اعرف معه أكان يتحدث مع نفسه ام معنا : ” لقد كانت هذه الغرفة حجرة تعذيب فى ايام ’ امبراطورية منشوريا ’ ، من يدري كم صينيا وطنيا عذب هنا ؟ “

وبعد لحظة صمت اشار الى السقف قائلا : ” فى تلك الايام كانت السلاسل تعاقب من هنا ، وكانت الجدران مغطاة بالدم . “ وطاف بصره بالجدران ثم استقر على الخزانة ذات الواجهة الزجاجية . وبعد فترة صمت اخرى قال ثانية : ” عندما كان الاسياد الصينيون يصلحون هذا المبنى ظننا انه سيعاد من جديد حجرة للتعذيب حيث ينتقمون منا فيها . وفيما بعد ، عندما رأينا اطباء بمآزر بيضاء ظننا انهم سيجرون علينا تجارب تشريحية . ولم نتخيل قط انه ستقام فيه عيادة لشفاثنا من امراضنا . “ واختلط صوته بالنحيب .  
وانصرف مجرم الحرب الكومينتانغى ، فطلبت من اليابانى ان يأتى لتلقى علاجه . فوقف وقال باحترام :

— لا ، شكرا . لقد جئت لأنظر الى هذه الغرفة . ونظرا الى اننى لم ار الطبيب ون فهل لك ان تخبره اننى ما دمت لا املك الحق فى ان اشكره فأود ان اشكره باسم امى . وشكرا لك انت ايضا ايها الطبيب .

— انا لست طبيبًا ؛ انا بوى .

ولم اعرف ان كان سمع او لا . ثم انحنى واستدار خارجا من الغرفة .  
لم اعد اطبق الاحتمال اكثر من ذلك . يجب ان اضع حدا لكذبى

مهما كان من الصعب على مدير السجن ان يفهم ذلك .  
وصادف ان كان مدير السجن السابق فى السجن فى ذلك الوقت فطلب  
منى ان اذهب من اجل التحدث معه . وفتحت باب غرفة الاستقبال التى  
يجاس فيها فرأيت الشخص المألوف الاشيب يجلس خلف مكتب وينظر  
الى رزمة من الاوراق . فطلب منى ان اجلس وبعد لحظة وضع الاوراق جانبا  
ونظر الى قائلا :

— كنت اقرأ محاضر اجتماعات زنراتك . كيف امورك ؟ هل لديك  
مؤخرا اية مشكلات ايديولوجية ؟

وترددت الآن وقد جاءت اللحظة الحاسمة . ونظرت الى محاضر جلسات  
اجتماعات زنراتنا وفكرت فى الهجوم الاجماعى الذى شنه على الآخرون .  
ولم يسعنى الا ان اتساءل ان كان هناك مجال للبوح بالحقيقة حيث ان كلمتى  
ستكون ضدهم جميعا . ولكنى لم استطع ان اظل متمسكا بالخداع اكثر من  
ذلك .

— قل لى كيف كانت اجتماعات مجموعتكم .

— جيدة . لقد لخصت تفكيرنا تلخيصا صحيحا .

فرفع المدير حاجبيه وقال :

— حدثنى بمزيد من التفصيل .

وادركت اننى اتنفس غير طبيعى ، واجبت :

— لقد قلت الحقيقة عندما اخبرتك بذلك . ان الاستنتاج الذى يملئ

على بأن اكون قلقا جدا فلا اذكر الاشياء صحيح تماما . ولكن هناك حالة  
او حالتان . . .

— تابع . انت تعرف مدى رغبتى فى ان افهم تفكيرك .

وعرفت اننى لا بد ان اصرح الآن بما فى داخلى ، فأدليت ، وقلبى

يخفق ، بوصف عاجل للمشكلة بكاملها . واصغى المدير بانتباه شديد .



وعندما انتهيت من حديثي قال :

— لماذا كان من الصعب جدا ان تقول ذلك ؟ مم كنت خائفا ؟

— كنت مذعورا لأن كلمتي هذه ضدهم جميعا .

فقال المدير بمنتهى الجدية :

— ما دمت تقول الحقيقة فليس هناك ما تخافه . هل تظن ان الحكومة

لا تستطيع ان تستقصي هذه المسألة بنفسها وتصل الى حكمها الخاص ؟ انك ما

تزال لا تدرك حقا انك تحتاج الى الشجاعة كي تصبح انسانا حقيقيا . يجب

ان تكون لديك الشجاعة لقول الحقيقة .

فبكيت ولم اتخيل انه سيكون قادرا على رؤية كل شيء بوضوح كبير .

وما الشيء الآخر الذى كان امامى كى اقلوه ؟

## عفو خاص

اقتراح من اللجنة المركزية

للحزب الشيوعى الصينى

الى

اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى لنواب الشعب

تقترح اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى على اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى لنواب الشعب انه فى الاحتفال بالذكرى السنوية العاشرة لتأسيس جمهورية الصين الشعبية العظيمة يجب ان يمنح عفو خاص لعدد من مجرمى الحرب والمعادين للثورة والمجرمين الجنائيين العاديين الذين تم اصلاحهم حقا .

لقد حققنا انتصارا عظيما فى الثورة الاشتراكية والبناء الاشتراكى فى بلادنا . ان وطننا الام فى ازدهار ، والانتاج والبناء ماضيان قدما ، ومستوى معيشة ابناء الشعب يرتفع فى اطراد . ان السلطة السياسية لديمقراطية الشعب

الديمقراطية راسخة وقوية على نحو لم يسبق له مثيل . والشعب في كافة انحاء البلاد اكثر وعيا على الصعيد السياسى وافضل تنظيما من السابق . والوضع السياسى والاقتصادى لوطنا رائع جدا . وسياسة الحزب والحكومة الشعبية في الربط بين العقوبة واللين وسياسة ربط الاصلاح من خلال العمل الجسمانى بالثقيف الايديولوجى في معاملة المعادين للثورة والمجرمين الآخرين قد حققتا نجاحا عظيما . ان غالبية السجناء المحتجزين الآن قد اعيد بناؤهم على درجات متفاوتة ، والعدد غير القليل منهم قد تم اصلاحهم على نحو حقيقى .

وفى هذه الظروف تعتقد اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى انه فى الوقت الذى نحتفل فيه بالذكرى السنوية العاشرة لتأسيس جمهورية الصين الشعبية العظيمة سيكون من الملائم ان نعلن ونضع موضع التنفيذ عفوا خاصا لعدد من مجرمى الحرب والمعادين للثورة والمجرمين الجنائيين العاديين الذين تم اصلاحهم حقا . ان اتخاذ هذا الاجراء سيساعد على تحويل العوامل السلبية الى عوامل ايجابية وسيلعب دورا تثقيفيا هاما فى اصلاحهم المستمر ، وكذلك فى اصلاح المجرمين الآخرين الذين ما يزالون محتجزين . انه سيمكنهم من ان يدركوا ان مستقبلهم فى ظل نظامنا الاشتراكى العظيم يكمن فى الاصلاح . وتطلب اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى من اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى لنواب الشعب ان تنظر فى هذا الاقتراح وتصل الى قرار ملائم .

ماو تسى تونغ  
رئيس اللجنة المركزية للحزب  
الشيوعى الصينى

١٤ سبتمبر - ايلول - ١٩٥٩

وصدر قرار بشأن هذا الاقتراح عن اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى لنواب الشعب ، وفى ١٧ سبتمبر اعلن الرئيس ليو شاو تشى العفو الخاص . ان الابتهاج باقتراح الرئيس ماو وامر الرئيس ليو اللذين هلا لهما فى

السجن لا يمكن ان ينسى . فبعد ان قرأ المذيع الجملة الاخيرة سادت لحظة صمت حول الراديو تبعها انفجار من الهتافات والشعارات والتصفيق . وكان ذلك شبيها بانفجار عشرة آلاف خيط من المفرقات (٢٣) فورا ، وقد استمر وقتا طويلا .

ومنذ تلك اللحظة من صباح ١٨ سبتمبر عمت البهجة والهياج السجن كله . وتوالى التعبير عن كافة الآراء وجهات النظر : ان الحزب والحكومة صادقان دائما مثل كلمتهما ؛ ان لنا الآن مستقبلا ولن يمضى وقت طويل على خروجنا ؛ سوف يتم العفو عنا على دفعات ؛ سوف يسمح لنا جميعا بالخروج دفعة واحدة . من سيكون فى المجموعة الاولى التى سيطاق سراحها ؟ وادرك معظمنا ان العفو سيعتمد على اصلاح السجن او عدم اصلاحه ، وندم بعضنا على التوانى الذى اظهره مؤخرا . وكان هناك من قالوا بتواضع انهم لم يصلوا الى المستوى المطاوب بينما اخذوا فى الخفاء بحزم ملابسهم واحرقوا مذكراتهم المنبوذة والقاء جواربهم المهترئة .

واصبح الفناء يضح بالصحف فى فترة الاستراحة وسمعت لايوان يسأل لايوان شيان :

— من سيكون فى الدفعة الاولى ؟

— من المؤكد انهم الذين اتقنوا دراساتهم مؤخرا . فأمامك فرصة جيدة .

— لا ، انا لست جيدا بما فيه الكفاية ؛ ولكننى متأكد من انك انت

جيد تماما .

— انا ؟ اذا سمعوا لى بالخروج فسأذهب الى بكين وارسل اليك بعض منتجات بكين المحلية . اننى احلم بيلح بكين (٢٤) .

وسمعت صوت الفم الكبير من ناحية اخرى فى الفناء :

— عليهم اما ان يطلقوا سراحنا جميعا واما ألا يخرجوا احدا .

فقال له احدهم :

— انك لست واثقا بنفسك . انك خائف من ان تترك في السجن :  
— اترك في السجن ؟ انهم ما لم يحتفظوا ببوي هنا لن يحتفظوا بي :  
وحتى انا كنت متأكدا تماما من انه يجب ان يكون مصيبا . وفي اليوم  
التالي ، على ما اظن ، سألني نائب مدير السجن عن رأيي في العفو الخاص .  
فقلت :

— اظن انني سأكون حتما آخر من يخرج — هذا اذا استطعت ان اعيد  
بناء نفسي . ومع ذلك سأحاول بذل أقصى جهدي .

ان العفو والافراج قد عنيا بالنسبة لمعظم السجناء اجتماع شملهم مع  
عوائلهم من جديد ، ولكن هذا لم يكن له في نفسي اثر . فأمرى قد ماتت منذ  
زمن طويل وابي مات عام ١٩٥١ وزوجتي الاخيرة طلقته عام ١٩٥٦ .  
وحتى لو كانوا ما يزالون احياء فلا احد منهم سيفهمني كما يفهمني الناس هنا .  
لا احد ممن عرفتهم سابقا يمكن ان يعلمني كيف اصبح انسانا حقيقيا كما  
فعل موظفو السجن هنا . يمكن للمرء ان يقول ان الافراج يعني استعادة الحرية  
والنور ، ولكن هنا داخل السجن وجدت نور الحقيقة ، وكسبت حرية الاطلاع  
على العالم . فالعفو من وجهة نظري يعني انني قد اهلت لأكون انسانا واستطعت  
ان ابدأ حياة جديدة يكون لها مغزى حقيقي .

تسلمت رسالة من لاو وان مؤخرا ، اخبرني فيها ان ابنه الذي كان يدرس  
الجيولوجيا قد قاد فرقة من متسلقي الجبال لارتياح جبال تشيليان . وبعد ذلك  
ذهب الى التبت في نفس الوقت الذي تمرد فيه ملاك الاقنان ، حيث قاتل هو  
وزملاؤه الطلبة الى جانب الاقنان . وبعد انحداد التمرد مضوا في اقتحام قمم  
جديدة . وكثيرا ما ذكر لاو وان في رسالته هذه الملامى بالفخر والسعادة مدى  
سروره بأن ابنه قد نشأ في هذا الوقت الحاضر وليس في الماضي البغيض .  
ان لابنه اليوم مستقبلا مشرقا . فلو لا فضل هذا اليوم لما كان له ابن كهذا ،  
ولما كان هو نفسه يعمل جنبا الى جنب مع المواطنين الصينيين الحقيقيين

الأخريين مترجما وبانيا للاشتراكية . وعبر عن امله في ان اشاركه قريبا هذه السعادة التي لم نعرفها من قبل وعن اعتقاده بأننى ماض في هذا الطريق .

بعد شهر من اعلان العفو الخاص ذهبنا في زيارة اخرى ، وهذه المرة الى خزان داهوفانغ للمياه بالقرب من شنيانغ . عندما جئنا الى هنا في المرة الماضية عام ١٩٥٧ رأينا حشدا لا يحصى من الناس يعملون في هذا الوادى ، وعلمت من نموذج محطوط على الطاولة انه ستكون له سعة ٢١١٠ ملايين متر مكعب - تكفى لايفاف فيضان يمكن ان يحدث مرة كل الف سنة - وسيروى ٨٠ الف هكتار من الاراضى . وعندما قمنا بزيارتنا الثانية كان هذا المشروع العظيم قد مضى على اتمامه سنة ، وظهر امام اعيننا بحر واسع من صنع الانسان ، محاط بسد ارتفاعه ٤٨ مترا وعرضه ٨ امتار من الاعلى و ٣٣٠ مترا من الاسفل وطوله ١٣٦٧ مترا . وبعد ان عاد فوروى تادايوكى ، مجرم الحرب اليابانى الذى كان نائب رئيس مكتب الشؤون العامة في "مجلس الدولة لامبراطورية منشوريا" من زيارته حدثنا جميعا عن انطباعاته في النادى . وجاء قسم من حديثه على النحو التالى :

"عندما وقفت على السد عند خزان داهوفانغ اخذت بعظمته وجماله وهدوئه . واحسست ان هذا انتصار على الطبيعة ومصدر فخر وابتهاج للشعب الصينى وهو يواصل فتوحاته في الطبيعة . . . ان مشهد هذا الخزان قد ذكرنى بوقوفى على سد خزان شويفنغ للمياه في الماضى بوصفى رئيسا لقسم التخطيط في مكتب الشؤون العامة ونائب وزير للاقتصاديات ، ونائب رئيس لمكتب الشؤون العامة في "امبراطورية منشوريا" . لقد ظننت في تلك الايام بكل كبرياء ان الشعب الوحيد في آسيا الذى يستطيع ان يشن النضالات ضد الطبيعة ويبنى مشروعا كبيرا هو الشعب اليابانى ؛ واحتقرت الصينيين ورأيت انهم عاجزون تماما عن تحقيق شىء كهذا . كان العمال الصينيون يلبسون اسمالا بالية ، واعتبرت نفسى نوعا من البشر مختلفا عنهم كل الاختلاف . ونظرت

اليهم في عجرفة كأنما انا عظيم والمعنى وعلى الشأن .  
”ولكن الناس الذين عملوا في خزان داهوفانغ قد اصبحت لهم اليوم طاقة هائلة لأنهم مفعمون بالثقة . لقد كدحوا بنكران ذات . وكانوا مفعمين بالحيوية ، وكانت وجوههم مشرقة بالزهر والسعادة . وكنت ، وانا اقف عند زاوية من السد اتملى هذا المشهد ، مجرم حرب قد ارتكب اشد الجرائم خطورة ضد الشعب الصينى . من كان مصيبا ؟“

على احد الجانبين كان الشعب الصينى ، ”وجوههم مشرقة بالزهر والسعادة“ ، وعلى الجانب الآخر مجرم حرب . وفى ذهنى كنت اغادر احد الجانبين واعبر الى الجانب الآخر ، الجانب المصيب . وهذا كان الحل الوحيد الذى وجدته بعد عشر سنوات من التفكير فيه .

ان السنوات العشر الماضية قد علمتنى كيف افرق بين الحق والباطل . وان الانتصار فى الحرب الكورية ، واعترافات مجرمى الحرب اليابانيين ؛ ونجاحات الصين الدبلوماسية ومكانتها التى ليس لها نظير من قبل لدى الرأى العام العالمى ؛ والتغيرات التى طرأت على البلاد والمجتمع وقوميتى وعشيرتى ونفسى ، كل هذه قد حدثت تحت قيادة الحزب الشيوعى الذى كنت انظر اليه بعين الكراهية والتحامل والخوف قبل عشر سنوات . ان احداث هذه السنوات العشر وتاريخ القرن الماضى او نحو ذلك قد علمانى ان القوة الحاسمة فى التاريخ هى الشعب العادى الذى كنت فى السابق احتقره اشد الاحتقار . لقد كان من المحتوم ان ينتهى القسم الاول من حياتى بكارثة ، وان تنهار الامبريالية وسلطة ببيانغ الرجعية اللتان اعتمدت عليهما . لقد ادركت الآن ان تشن باو تشن وتشنغ شياو شيوى ويوشيوكا والآلهة وبوذا غير قادرين على اخبارى بحقيقة مصيرى . فمصيرى هو ان اكون انسانا يعيل نفسه من خلال عمله ويقدم نفعا للبشرية . ان افضل مصير هو ذلك الذى يرتغن بمصير الشعب .  
”على المرء ان يأخذ الجانب الذى يكون مصيبا .“

وهذا يتطلب الشجاعة ، وعلان العفو الخاص قد زودنى بالشجاعة ، كما حصل بالنسبة للآخرين .

وبذلنا جهدا اكبر فى عملنا ودراستنا ، واخذ الكثير منا ينتظرون بكل تشوق التقييم القادم لدراساتنا . واصبحت فرقة معالجة الاطعمة تصنع الآن جينة فول الصويا طرية وبيضاء ، وفرقة تربية المواشى توصلت الى انتاج خنازير سمينة بحيث اصبحت افضل من السابق وفى فرقة العمل الطبى توقفنا عن ارتكاب الاخطاء . وحتى الفم الكبير قد بدأ يتصرف على نحو ملائم ، ولم يعد يتشاجر مع الآخرين .

ومضى شهر آخر . وذات مساء جاء نائب مدير السجن ليحدثنى عن العفو الخاص . فسألنى :

— بم كنت تفكر خلال الشهرين الماضيين ؟

فأخبرته بما ذكرته آنفا ، وقلت له ايضا ان بعض الناس على ما يبدو لى قد اعاد بناء نفسه على نحو جيد . وذكرت فرقة معالجة الاطعمة وفرقة تربية المواشى وبعض الافراد الذين اشيد مؤخرًا بجهودهم فى الدراسة . فقال نائب المدير مبتسما :

— انك تجد الآن من السهل تماما ان تفكر فى النقاط الايجابية لدى الآخرين . فما رأيت اذا كنت مشمولا بينهم بالعفو الخاص ؟ فأجبته ضاحكا :

— هذا غير ممكن .

غير ممكن . هذا كان ما فكرت فيه وانا عائد الى ززانتي . ” ولكن اذا . . . ؟ “ وجعلتنى هذه الفكرة اتوتر . وفيما بعد استنتجت ان من الممكن ان يعنى عنى فى المستقبل ، ولكن من المحتمل ان يكون ذلك بعد وقت طويل . ولم يكن مستقبلى غائما جدا . وتخيلت نفسى مع لاو وان وروى الصغير والآخرين نأخذ مكاننا بين الناس العاديين ونقوم بأشياء عادية . وفى هذه الاحلام

رأيت نفسى احصل على عمل كمساعد طبى فى مستشفى ، ذلك النوع من العمل الذى قرأت عنه فى الصحف . ولكننى تأكدت من انه سيمضى وقت طويل حتى يعطينى الشعب موافقته ويقبل بى واحدا بين ابنائه . ولدى تفكيرى فى سعادة المستقبل كدت لا استطيع النوم .

فى اليوم التالى امرتنا الادارة بالاحتشاد فى النادى . وكان يواجهنا شريط عريض من قماش قرمزى ممتد عبر المسرح الذى جعانى الهث . وقد كتب على هذا الشريط ” اجتماع عفوى خاص لسجن فوشون الخاص بمجرى الحرب “ .

كان يجلس على المنصة ممثل عن المحكمة الشعبية العليا ، ومدير السجن واشخاص آخرون . وتحت المنصة كان الجميع صامتين ما عدا الوجيب فى قلبى .

وبعد بضع كلمات من مدير السجن اتجه ممثل المحكمة الشعبية العليا الى وسط المسرح وقرأ من ورقة فى يده : ” آيشين - جيولوه بوى “ .  
ووثب قلبى . فذهبت ووقفت امام المسرح وسمعت شيئا يتلى :

#### مذكرة عفوى خاص من المحكمة الشعبية العليا فى جمهورية الصين الشعبية

وفقا لأمر العفو الخاص الصادر عن رئيس جمهورية الصين الشعبية فى ١٧ سبتمبر ١٩٥٩ تقصت هذه المحكمة حالة مجرم الحرب لامبراطورية منشوريا العميلة آيشين - جيولوه بوى .

ان مجرم الحرب آيشين - جيولوه بوى ، ذكر ، عمره ٥٤ سنة ، من قومية المانتشر ، ومن بكين ، قد امضى حتى الآن عشر سنوات من الاحتجاز . ونتيجة لاعادة تكوين نفسه عن طريق العمل الجسمانى والتثقيف الايديولوجى خلال احتجازه فقد اظهر انه قد اصلح اصلاحا اصيلا . ووفقا لشروط المادة ١



من امر العفو الخاص يطلق سراحه .

المحكمة الشعبية العليا في

جمهورية الصين الشعبية

٤ ديسمبر ١٩٥٩

وقبل الفراغ من قراءة القرار انفجرت بالبكاء . لقد حولني وطني الام  
الى انسان حقيقي .

## فصل جديد

وركبت القطار وفي الخارج كان منتشرا امام عيني سهل يغطيه الثلج ،  
واسع مشرق كمستقبلي . وداخل القطار كنت محاطا بعمال عاديين . هذه  
كانت المرة الاولى في حياتي التي اركب فيها معهم وشاركهم القطار . وانا  
في طريقى لأعيش معهم وابني معهم ؛ في طريقى لأصبح - لا ، فقد اصبحت  
لتوى - واحدا منهم .

وفور ركوبى القطار في فوشون حدث شىء اظهر لى في الحال صفة المجتمع  
الذى كنت قادما اليه والشعب الذى كنت بين ابنائه . فقد جاء واحد من عمال  
القطار ومعه امرأة الى عربتنا يبحثان عن مكان لبنت صغيرة كانا يحملانها .  
وكان هناك مقعد فارغ خلفى كما اخلى مسافر يجلس ورائى مقعده لهما  
ايضا . فقادت المرأة البنت الى المقعد ووقفت هى بجانبها وقد بان عليها قلق  
شديد . وسألها راكب آخر ان كانت الطفلة مريضة ، واذا كانت كذلك فلماذا  
هى خارج البيت . فأذهلنى جواب المرأة . كانت معلمة فى مدرسة ابتدائية  
بالقرب من المحطة ، والبنت تلميذة عندها ، شعرت فجأة بالهم شديد فى  
بطنها خلال الدرس . وقد شك الموظف الصحى فى المدرسة انها مصابة بالتهاب

الزائدة الدودية واوصى بوجوب اخذها الى المستشفى فورا . ونظرا الى ان والدى البنت يعملان فى منجم بعيد ، لم يكن هناك وقت لمطالبتهما بالمجىء واخذ البنت الى المستشفى ، كما ان اخذها الى مستشفى المنجم سيستغرق وقتا طويلا فقررت المعلمة ان تأخذها مباشرة بقطار شنيانغ . وسمح لها مسؤول الرصيف ان تدفع ثمن التذاكر فى القطار نفسه وقال لها انهم سيخبرون شنيانغ هاتفيا ويطلبون منهم العناية بهما . لقد جعلتنى هذه الحادثة افكر فى كلمات تاو يوان مينغ ( ٢٥ ) : ” منذ ولادتنا ونحن اخوة ، لسنا بحاجة الى آصرة اللحم . “ ان هذا التفكير يشترك فيه اليوم اناس كثيرون . ثم خطر لى ان ما قاله منشيوس ( ٢٦ ) بخصوص العناية بمسنى وصغار الاسر الاخرى كما يعنى المرء بأسرة نفسه قد تحقق فى الوقت الحاضر . ولقد اوضح لى هذا المثال ان المجتمع الذى كنت منتقلا اليه اروع مما تخيلته .

فى ٩ ديسمبر وصات الى بكين ، مسقط رأسى الذى تركته منذ خمس وثلاثين سنة . وعلى رصيف محطة القطار الرائعة رأيت الاخت الخامسة والاخ الرابع اللذين لم اقابل الاولى منهما منذ اكثر من ثلاث سنوات ، ولم اقابل الثانى منذ اكثر من عشرين سنة . وفيما كنت اصافحهما سمعتهما يخاطباني بعبارة ” الاخ الكبير “ تلك الصيغة المألوفة للمخاطبة ، التى لم يستخدمها اخوتى واخواتى قط فى التحدث معى سابقا . وشعرت ان حياة جديدة قد بدأت فى اسرتنا .

وودعت المرظف لى الذى جاء معنا وكذلك لاو منغ . لقد كان منغ واحدا من مجرمى الحرب الكومينتانغيين الثمانية فى سجننا الذين تسلموا عقوا خاصا ، مع قوه ون لين وهو جنرال مانشوى عميل سابق وانا . وذهب مع زوجته التى جاءت للقائه . وحمل الشقيق الرابع حقيبتى الجادية السوداء وانطأقت امشى مغادرا الرصيف مع شقيقتى الخامسة وزوجها لاو وان ، احدهما عن يمينى والاخر عن يسارى . وعندما غادرنا الرصيف نظرت الى ساعة المحطة

واخرجت ساعة جيبي . قبل ان اغادر فوشون اختار مدير السجن هذه الساعة من كومة الاشياء التى قدمتها الى الحكومة فى السجن وطلب منى ان احتفظ بها . فاعترضت قائلا انها قد اشتريت بنقود تم الحصول عايتها بالاستغلال ولذلك لا اريدها . ولكن المدير اجاب بأن الشعب قد قدمها لى الآن ، لذلك يجب ان احتفظ بها . وكانت هذه الساعة هى الساعة الفرنسية التى اشتريتها من المتجر الذى فى طرف حى المفوضيات فى بكين عندما كنت احاول التخلص من قهرمان والدى الرئيسى وانا فى طريقى الى المفوضيات الاجنبية عام ١٩٢٤ . وفى ذلك اليوم بدأ سجلي المخزى . ولكن هذه الساعة نفسها تحدد الآن بداية حياتى الجديدة بعد ان ضبطتها وفقا لتوقيت بكين .

لقد قال مدير السجن فى ذلك اليوم الذى اعطاني فيه هذه الساعة لنا نحن العشرة الذين اطلق سراحنا انه عندما نعود الى بيوتنا يجب ان نعتذر لأهلنا وجيراننا عن الاخطاء التى ارتكبتها فى الماضى . واضاف : ” واعتقد ان جيرانكم واقاربكم سيصفحون عنكم شريطة ان تتصرفوا جيدا وتخدموا الشعب باخلاص . “ ولقد تأكدت هذه الكلمات تماما عندما ذهبت الى بيت الاخت الخامسة ولاو وان . اذ كان كل واحد فى مربيهم السكنى لطيفا معى . وفى الصباح التالى اردت ان افعل شيئا للجيران ، وعندما رأيت بعض الناس يكنس الممر اخذت مكنسة وانضممت اليهم فى العمل . وبعد ان كنسنا من المدخل الى نهاية الممر لم استطع ان استدل طريقى لأعود الى البيت ، فدخلت الى بيت غريب . فحزروا ما حدث واخذوني الى بيتى . وقالوا انه ليست هناك حاجة الى ان اشكرهم حيث اننا جميعا من زقاق واحد ، وحتى اذا لم نكن فى نفس الزقاق ، فلا غرابة فى ان يساعد الناس بعضهم بعضا فى المجتمع الجديد .

وذهبت لرؤية عمى تساي تاو واسرته ، حيث عرفت ان عشيرتنا قد ازدهرت . وقد تحدث هو فى المجلس الوطنى لثواب الشعب عن نتائج بحثه خلال رحلته

الى انحاء الاقليات القومية . وسمعت ابن عمى بو جين يعزف على ادااته الموسيقية "قو تشين" ، وراقبته وهو يخطط لى كلمات بدت افضل من السابق . ورأيت كذلك رسوما للارهار والطيور رسمها بو جيان مؤخرا . وذهبت لزيارة الاخت الثانية فوجدتها تدير روضة للاطفال . واخبرنى زوجها ، وهو مهندس بريد ، بأنها مشغولة جدا بحيث اختفى الصداع الذى كانت تشكو منه دائما . وزرت كذلك كلا من الاخت الرابعة والثالثة والسادسة والسابعة وازواجهن . فوجدت الاخت الرابعة تعمل فى ارشيف القصر السابق ، والاخت الثالثة وزوجها يشتركان فى دورة دراسية لدى المؤتمر الاستشارى السياسى للمنطقة والاخت السادسة وزوجها يعملان فى الرسم ، والاخت السابعة وزوجها معلمين .

ودهشت اكثر من ذلك بالجيل الثانى . ففى يوم عيد الربيع احتشد عدد لا حصر له من الاولاد والبنات ، وحول اعناقهم ربطات حمراء ، فى منزل عمى . ومن بين افراد هذا الجيل الذين شبوا للتو قابلت واحدة من متطوعى الشعب ابلت فى القتال بلاء حسنا ، وبطلة الدراجات النارية للنساء فى بكين ، وقائد فرقة متسلقى الجبال ، وطبىبا ومدرسة ومعلمنا وسائق سيارة . اما الصغار فمعظمهم كانوا يقومون بتدريب مهنى او يدرسون فى المدرسة المتوسطة . وقد انضم بعضهم الى الحزب الشيوعى وعصبة الشبيبة ، وبعضهم يواصلون جهودهم لاحراز هذا الشرف .

وقابلت ايضا كثيرا من اصدقاء الماضى . فوجدت شانغ يان ينج عضوا فى معهد الادب والتاريخ . وعند لقائى معه كان مضطجعا على اريكة . فقد كان طاعنا فى السن ومريضا بحيث لم يعد قادرا على التكلم بوضوح . لكن قسماته عبرت عند رؤيتى عن اهتمام شديد ، وقد حاول ان ينهض ، فأخذت يده وقلت : "انك مسن ومريض ، لذلك يجب ان تستريح . اننا الآن افراد فى المجتمع الجديد ، وبوسعنا ان نتمتع بعلاقة طبيعية . وعندما تتحسن حالتك ستخدم الشعب سويا . " فاخترت التعبير الرسمى من وجهه وهز رأسه لى مبتسما

ابتسامة خفيفة ، وقال : ” سأذهب معك . “ فأجبت : ” انا ماض مع الحزب الشيوعي . “ فأجاب : ” وانا كذلك . “ وقابلت بعض اصدقائي ممن كانوا خصيانا فى القصر ، واستطلعت احوالهم . لقد اقامت لهم الساطات المحلية بيتا خاصا يمشون فيه بقية سنواتهم فى اطمئنان .

ان كل واحد قابلته فى اليوم الاول قال : ” الآن وقد عدت ينبغى لك ان تلقى على ما حولك نظرة متفحصه – انك لم تكن قادرا على التجول فى بكين سابقا . “ فأخبرتهم بأن الشىء الاول الذى اريد رؤيته هو تيان آن من ، بوابة السلام السماوى .

وكنت قد عرفت ساحة تيان آن من من الافلام والصحف والرسائل . فعلى الشاشة رأيت المواكب التى استعرضها الرئيس ماو ، وشاهدت الاحتفالات بالاعياد . ورأيت صورا فى الصحف لشرطة المرور يقومون بمساعدة الاطفال على عبور الطرق ، وصورا لسيارات ” العلم الاحمر “ و ” الريح الشرقية “ الصينية الصنع الرابضة هناك . وعرفت ان قاعة الشعب الكبرى قد بنيت فى عشرة اشهر ، وسمعت عن انطباعات الضيوف الاجانب من كافة انحاء العالم عن هذه الساحة . واخيرا وجدت نفسى فى المكان الذى كنت احلم به منذ وقت طويل .

كانت بوابة تيان آن من المهمة التى انتصبت امامى شاهدا على التغييرات التى طرأت على الوطن الام من البؤس الى السعادة ، والتغير من بو يى القديم الى بو يى الجديد . على يسارى قاعة الشعب الكبرى الفخمة التى تقرر فيها شؤون الوطن ، بما فى ذلك العفو الخاص الذى سمح لى بموجبه ان ابدأ حياة جديدة . وعلى يمينى المتحف الثورى وخلفى النصب التذكارى للابطال الثوريين . وقد اخبرتنى كل هذه الاشياء بالنضال المر الذى خاضه كثير من الابطال والشهداء عبر قرن من الزمان لتحقيق ازدهار اليوم الذى استفدت منه انا ايضا .

وفى ساحة تيان آن من هذه قمت بأول جولة لى شاعرا بالحرية والامن والسعادة والافتخار . واخذنا انا وشقيقتى الخامسة وشقيقى السادس نتمشى ببطء نحو الغرب . وعندما وصلنا قصر الثقافة للأقليات القومية بجدرانها البيضاء وسطحه الازرق سألتنى اختى باهتمام : ” ايها الاخ الكبير ، هل تعبت ؟ هل هذه هى المرة الاولى التى تمشى فيها مسافة طويلة جدا ؟ “ فأجبته قائلا : ” لست متعبا ، والسبب فى ذلك ان هذه هى المرة الاولى حقا . “

” المرة الاولى “ كانتا الكلمتين اللتين برزتا على نحو دائم مع شرعى فى حياتى الجديدة . ” المرة الاولى “ كانت صعبة دائما ، ولكننى كنت فى غاية الانفعال بحيث لم اشعر بأى اضطراب بخصوصها .

وذهبت الى الحلاق للمرة الاولى ، او على وجه التحديد ، للمرة الثانية ، حيث ذهبت مرة الى شركة تشونغيان لقص شعرى قبل ثلاثين سنة فى تيانجين . وعلى ايه حال فان ما حدث لى الآن قد حدث للمرة الاولى . وجلست فى الكرسي فرأيت شيئا غامضا كنت قد لاحظته فى متجر منوعات فى هاربين . وكان هذه المرة يحدث نعيما عند المقعد الثانى فسألت عنه الحلاق ، فقال لى انه مجفف شعر . وسألته : ” أتجفف الشعر اولا ام تقصه ؟ “ فدهش لسؤالى وقال : ” أ لم يسبق لك ان قصصت شعرك ؟ “ وظن اننى احاول ممازحته ، فانفجرت ضاحكا ، وحين سمعت مجفف الشعر ينعر فوق رأسى شعرت بالسرور اكثر من السابق .

وفى المرة الاولى التى ركبت فيها الباص العمومى افزعنت شقيقى السادس . فبينما كنت انتظر داخل طابور المنتظرين رأيت اناسا يقفون جانبا ليصعد المسنون والاطفال اولا فأفسحت مجالا لامرأة كانت تقف بجانبى كى تصعد الباص قبلى . ولم اتحقق من انها قاطعة التذاكر . ولما رأتنى واقفا قفزت الى الباص ؛ ثم اغلق الباب خلفها وتحرك الباص . وبعد بضع لحظات رأيت شقيقى عائدا بسرعة من وقفة الباص التالية ، وشرعنا نقهقه من بعضنا بأعلى

اصواتنا وهو ما يزال بعيدا عنى بعض الشيء . وقلت له بثقة تامة : ” لا تقلق ، لا شيء يمكن ان يحدث . “ فما دام الناس يهتمون ببعضهم فما الداعي للقلق ؟ وفى ذلك الصباح نفسه استرددت محفظة جيب جلدية من دكان بجانب منزل الاخت الثالثة كنت تركتها هناك سهوا . وكان من غير الممكن بالنسبة لى ان اضيع .

ونظمت سلطات بكين عددا من الزيارات لنا نحن اللذين خرجنا من السجن بموجب عفو خاص ، ومن بيننا جنرالات الكوميتانغ السابقون دو يوى مينغ ووانغ ياو وو وسونغ شى ليان وغيرهم . وكان هذا من اجل مساعدتنا على معرفة بكين معرفة افضل وتعود الحياة اليومية . فرأينا بعض المصانع الجديدة ، وجميع اصناف المرافق العامة التى اخذت تتوسع منذ التحرير ، وبعض الكومونات الشعبية داخل المدينة واماكن اخرى ؛ واستمرت هذه الزيارات قرابة شهرين . وفى النهاية اصر الآخرون على ان نذهب الى القصر السابق واكون انا دليلهم الموقت .

واكثر ما ادهشنى هناك ان سيماء البلاء والانهيال التى عرفتها عند مغادرتى قد اختفت . وتمت اعادة الدهن فى كل مكان . فستائر الابواب والنوافذ والاسرة ، والارائك ، واغطية الطاولات ، وكل شيء آخر كانت جديدة . وسمعت فيما بعد ان هذه الاشياء كلها قد صنعت فى معمل متحف القصر تقايدا للنماذج الاصالية . ولم يكن قد بقى من مجموعة تحف القصر الا القليل من الشب والخزف والكتابات الخطية والرسومات وبعض الاشياء الاخرى بعد اعمال السلب التى قامت بها حكومة امراء الحرب التابعين لزمرة بيبانغ وحكومة الكوميتانغ وانا كذلك . ووجدت مع ذلك مجموعة لا بأس بها من الاشياء التى استردها المتحف عن طريق شرائها او التى قدمها جامعو التحف . فرسم ” مشهد شاطئ النهر فى عيد تشينغ مينغ “ للفنان تشانغ تسه دوان من اسرة سونغ ، مثلا ، والذي كنت قد سرقته انا وبو جيه ، قد استعيد الآن بالشراء .

وفى الحديقة الامبراطورية رأيت اطفالا يلعبون تحت اشعة الشمس ومسنين يرشفون الشاي . واستنشقت شذا الربيع المنبعث من اشجار السرو القديمة ، وشعرت ان الشمس تشع هنا اكثر مما كانت تشع من قبل ، وكنت على يقين بأن القصر السابق قد فتح صفحة جديدة فى تاريخه .

فى مارس ١٩٦٠ نسبت الى حديقة بكين للنباتات ، التابعة لمعهد النباتات التابع لأكاديمية العلوم الصينية . وهناك امضيت نصف وقتى اعمل ونصفه الآخر ادرس . وكانت هذه مرحلة تمهيدية لتسلمى الوظيفة التى سأخدم الشعب من خلالها . وتحت ارشاد الفنيين تعلمت غرس البلور والعناية بالشتلات وغير ذلك . وكنت امضى النصف الثانى من اليوم اما فى الدراسة واما فى كتابة هذا الكتاب .

لم اكن فى الشطر الاول من حياتى اعرف ماذا تعنى ” الاسرة “ ، ولم تتكون لى بعض المشاعر العائلية الا خلال سنواتى الاخيرة فى فوشون . وبعد مجيئى الى مشاتل بكين بوقت قصير كنت اشعر ان لى بيتا ثانيا ، اذ كنت اعيش فى جو ودى وتعاونى . وذات مرة تبينت ، وانا عائد من نزهة ، اننى فقدت ساعتى وحسبت انى قد ابتعدت كثيرا فلم اتشجع على العودة للبحث عنها . وتخليت عنها مغموما . وعندما سمع لائو ليو ، زميلى فى غرفتى ، بذلك سألتنى بالتفصيل عن الطريق الذى سلكته ، ومشى فى الحال على الرغم من انه كان فى وقت استراحة من العمل . ولقد وقعت فى حيرة كبيرة عندما علمت ان كثيرا من الناس قد اكتشفوا ايضا ما حدث ، وان جميع الذين كانوا فى الاستراحة خرجوا يبحثون عن الساعة . وفى النهاية وجدها لائو ليو امام مطعم تابع لفيلاق انتاج فى كومونة الخضرة الدائمة (٢٧) ، وعاد بها منشراح الاسارير . وشعرت انه قد اعيد الى شىء اكبر من الساعة بكثير .

وفى ذلك الصيف شكلت وحدة ميليشيا فى المشتل ، واخذت تتدرب



كل يوم . فقدمت طلبا للانضمام اليها ، ولكن الآخرين قالوا اننى قد تجاوزت السن المحددة ، فأجبت معترضا : ” اننى فرد فى الاسرة الكبيرة لوطننا الام ، لذلك يجب ان يسمح لى ايضا بالدفاع عنها . “ والحجت على ذلك ، فسمح لى بالانضمام الى التدريب بصفة رجل ميليشيا فوق السن المحددة . وسرعان ما اصبحت قادرا على تحقيق طموح آخر ، فتظاهرت فى ساحة تيان آن من . وكانت المناسبة هى التجمع لدعم نضال الشعب اليابانى ضد ” معاهدة الامن اليابانية - الامريكية “ .

وكان هذا هو الوقت الذى بدأت فيه ابشر نشاطات اجتماعية جعلتنى اشعر اننى على نفس الجانب الذى يقف فيه شعب الصين كلها وبقية شعوب العالم المكافحة من اجل السلم والديمقراطية والاستقلال الوطنى والاشتراكية . فى ٢٦ نوفمبر ١٩٦٠ تسلمت بطاقة انتخاب عليها اسمى . وبدأت لى هذه البطاقة اثنى شئ امتلكته فى حياتى . وعندما وضعت ورقة الاقتراع داخل الصندوق الاحمر شعرت اننى اسعد انسان على وجه الارض . فأنا الآن ، مع ٦٥٠ مليون مواطن ، نمتلك ٩٦٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع من الارض . ان العون الذى قدمته هذه الارض للشعوب والامم المضطهدة فى العالم هى من الجسامة بحيث يمكن الاعتماد عليها .

وفى مارس ١٩٦١ انهيت مرحلتى التمهيدية وتسلمت الوظيفة التى بدأت اخدم من خلالها الشعب : فقد اصبحت عضوا عاملا فى لجنة المواد الادبية والتاريخية التابعة للجنة الوطنية للمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى . وفى هذه المهنة عملت فى المواد الادبية والتاريخية المختصة بأواخر اسرة تشينغ وفترة امراء حرب يييانغ . وكثيرا ما كنت امر بأسماء مؤلفة واحداث تاريخية كانت لها علاقة بى . ومعظم مؤلفى هذه المواد كانوا ممن اشتركوا فى هذه الاحداث او شهدوها ، وانا وهم كنا جميعا شهودا على تاريخ تلك الفترة . وتم لى التوصل الى رأى اكثر وضوحا فى تطورات ذلك التاريخ من خلال

هذه المعطيات الغنية . فالسيدة يهونالا ( الامبراطورة الارملة تسمى شى ) ويوان شى كاي ودوان تشى روى وتشانغ تسوه لين وجميع تلك الشخصيات التى نبذها التاريخ قد بدت فى ايامها تتمتع بسلطة قاهرة على كل شىء ، بينما الشعب الذى كان يجزر ويضطهد على ايدى هؤلاء الاشخاص قد بدا عاجزا . ان كتابا من امثال هو شى قد هلكوا لهؤلاء الاشخاص ؛ والمحافظين على القديم علقوا عليهم آمالهم فى اعادة الملكية ؛ وقد انتفخوا هم انفسهم زهوا وغرورا معتقدين ان القوى التى دعمتهم ستظل تدعمهم الى الابد . ولكنهم تكشفوا فيما بعد عن مجرد نمور من ورق ، وذلك عندما اجتاحتهم لهيب التاريخ ، والتاريخ هو الشعب . ” ان الرجعيين يبدو مظهرهم مخيفا ، لكنهم ليسوا فى الحقيقة بتلك القوة الجبارة . واذا نظرنا الى الامور من زاوية المستقبل ، وجدنا ان القوة الجبارة حقا ليست فى يد الرجعيين ، بل فى يد الشعوب . ” لقد جعلتني تجاربى اقر بهذه الحقيقة ، ورحت اعلنها على الناس من خلال عملى وقدرتى بوصفى شاهدا .

وواصلت ايضا تأليف هذا الكتاب .

وساعدنى مكتبى بطرق كثيرة وزودنى بكثير من المواد القيمة ، وبالمساعدة الحماسية التى قلمها لى كثير من الاصدقاء الآخرين تمكنت من استخدام كثير من الكتب والوثائق التى حصلت عليها من الارشيف كما استخدمت المعلومات التى التقطت خصيصا لهذه الغرض . ومن هذه المعلومات ما انتمخه لى اصدقاء لم يسبق لى ان رأيتهم ، ومنها ما تفحصه رفاق فى دور النشر قاموا برحلات طويلة لهذا الغرض ، ومنها ما سجله مسنون شهدوا الاحداث بأعينهم . وكثير من تلك المواد التى يتعذر الحصول عليها قد حصلت عليها من الارشيف والمكاتب ؛ وينبغى لى ان اذكر على نحو خاص الارشيف الوطنى ومتحف التاريخ ومكتبة بكين ومكتبة العاصمة ، حيث قام الرفاق بأبحاث وتصنيفات خاصة لى . ولقد دهشت لهذا القدر الكبير من الاهتمام والمساعدة

الذى تلقيته ، ولكن هذا فى الواقع ليس غريبا فى بلادنا ، حيث ان كل من يفعل شيئا نافعا للشعب ، او يعلن عن الحقيقة يحظى الاهتمام والمساعدة فى كل مكان ، ناهيك عما يحصل عليه من الحزب والحكومة .

وشد كتابى اهتمام كثير من الاصدقاء الاجانب . ولقد زارنى صحفيون وضيفو اجانب سألونى عن تجاربى ، ولاسيما الاصلاح الذى مررت به خلال السنوات العشر الماضية . وقال لى واحد من امريكا اللاتينية ان تجربتى قد بينت له ثمانية مدى عظمة افكار ماو تسى تونغ ، وحثنى على انهاء كتابى بسرعة . وقال صديق آسيوى : ”أمل ان ترسل لى نسخة من الطبعة الانكليزية لكتابك فور صدوره حتى استطيع ترجمته الى لغتى وافصح المجال امام ابناء بلدى لقراءة قصتك المذهلة .“

وفى عام ١٩٦٢ نجح نضالنا المر ضد الصعوبات الناشئة داخل بلادنا وخارجها نجاحا رائعا ، وحقت لى تلك السنة المزيد من السعادة . ودعيت لحضور اجتماع اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى ولسماع تقارير المجلس الوطنى لنواب الشعب حول بناء الوطن الام . وفى ١ مايو - ايار - انشأت انا وعروسى لى شو شيان بيتنا الصغير ، وكان هذا البيت العادى بالنسبة لى شيئا خارقا للعادة .

هذا هو الفصل الجديد . هكذا بدأت حياتى الجديدة . وحين افكر فى بيتى وبطاقتى الانتخابية والبشائر التى تمتد امام عينى الى ما لا نهاية لن انسى مطلقا كيف حققت لنفسى هذه الحياة الجديدة .

وهناك قصة اخرى يجب ان ارويها . ويجب ان اوردها فى هذا الكتاب كما قال ابن شقيقى روى الصغير . وهى المتعلقة بسياسة اعادة بناء المجرمين ، تلك السياسة التى اوصلتنى الى هذه الحياة .

فى صيف ١٩٦٠ ذهبت الى منتزه التل العطرى مع روى الصغير ، وتحدثنا

عن التغيرات الاولى المبكرة في تفكير كل منا وعما حركتنا في البداية .  
فمحدث روى الصغير عن قو الصغير وشيو الصغير اولا . لقد اهتز قو الصغير عندما رأى قطارا صينيا في محطة سويفنخه بينما لم تكن هناك في السابق الا قطارات اجنبية ، وان الذى جعل شيو الصغير يشعر ان حياته الماضية كانت لا طائل تحتها انما هو الاحتفاء الذى قوبلت به العامة التى فقدت احدى يديها . ثم تحدث روى عن نفسه . ” هناك اشياء كثيرة لم انسها . اولها انى كسرت زجاج نافذة وانا انظفه بعد ان بدأت العمل مباشرة . وفى اللحظة التى تساقط فيها الزجاج على الارض جاء احد السجنائين يركض . فذعرت ، ولكنى دهشت حين سألنى ان كنت قد اذيت نفسى . فقلت له اننى بخير ، علما اننى حطمت لوح زجاج . فقال ان قطعة زجاج ليس مهمة ، فالمهم ان اكون اكثر حرصا فى ان لا اسبب الاذى لأى انسان . “  
فأجبت : ” ان اشياء كهذه قد حدثت لى ايضا . كنت فى البداية منشغل الذهن فى مسألة ان كانوا سيقتلونى ام لا ، وشككت فيما اذا كانت سياسة اللين ستطبق على ام لا . ولكن الشئ الذى جعانى ارى الفرصة امامى ، ومن ثم بعث فى نفسى تدريجيا المزيد من التفاؤل ، هو الطريقة غير المتوقعة التى عوملت بها بعد تسليم المجوهرات التى كنت اخفيها فى كعب الحقيبة . وبمناسبة الحديث عن ذلك يجب ان اشكرك على المساعدة التى قدمتها لى حينذاك . “

فقال روى الصغير وقد جحظت عيناه :

— المساعدة ؟ أ لم يخبرك مدير السجن بما حدث حقا ؟  
— بلى ، لقد اخبرنى . فخلال فترة توجيه الاتهامات والاعتراف بالذنب كتبت نقدا ذاتيا حول ذلك وقدمته لمدير السجن بعد ان اعترفت من خلال استجواب قو الصغير لى فى الاجتماع الكبير . وبعد عيد رأس السنة اخبرت مدير السجن بأننى لم اذكر المذكرة التى ارسلتها لى مخافة ان اسبب لك

المتاعب . فأخبرني بأنه يعرف كل شيء عن ذلك وانه طلب منك ان تكتب المذكرة كي تساعدني على تسليم المجوهرات بمبادرة مني . لقد كان المدير حى الضمير ، ولكنك انت قد ساعدتني ايضا .

— انت اذن ما تزال تجهل التفاصيل . اننى لم اكن اريد كتابة تلك المذكرة ، بل كنت اؤيد تفتيشك ومصادرة هذه الاشياء منك ومعاقبتهك . وهذا شى لا بد ان اخبرك به ، ويجب ان تورده فى كتابك .

والآن فقط علمت القصة بكاملها . لقد افشى روى الصغير سرى الى مدير السجن ، وطلب منه ان يصادر تلك المجوهرات . فرفض المدير قائلا : ” سيكون من السهل جدا ان نجد هذه الاشياء ، ولكن ذلك لن يساعده على اعادة بناء نفسه . كن صبوراً . سيكون افضل بكثير له ان يبادر شخصيا الى تسليمها عندما يصبح اكثر وعيا على الصعيد السياسى . “ وبعد وقت طويل طلب روى الصغير من المدير ان يقوم بتفتيش . فكان جواب المدير بأن تفكير مختلف الناس يتطور بسرعات مختلفة وانه لا فائدة فى التسرع . لقد كان الحزب الشيوعى متأكدا من ان الغالبية العظمى من المجرمين يمكن ان يعيدوا بناء انفسهم عندما يكونون تحت سلطة الشعب على الرغم من تنوع اوجه العملية . كان المهم ليس المجوهرات او لوائح السجن بل ما هى افضل طريقة تساعدنى على اعادة بناء نفسى . وذكر لى روى الصغير ان المدير قال له بخصوصى : ” يجب ان تدرك انه بسبب خلفيته الفريدة يجد من الصعب ان يصدق على الفور سياسة اللين التى تنتهجها الحكومة الشعبية ازاء اولئك الذين يعترفون . اذا كنا سنقوم بتفتيش فسيفقد فرصة تفهم هذه السياسة . اترك المبادرة له . وبدلا من القيام بتفتيش مستعجل يجب ان تفكر بطريقة ما لتعجيل استيقاظه . “ ففكر روى الصغير حينذاك فى كتابة المذكرة . وعندما لم يحدث شىء بعد عدة ايام من تسليمها لى عاد الى المدير يستعجله وقال له : ” بو يى لن يستيقظ ، وليس عنده ادنى ادراك . لماذا لا نفتشه ؟ “

فكان جواب المدير : ” ان عدم التعجل فى هذه الفترة اهم بكثير من عدم التعجل فى السابق . “ وفى النهاية سلمت المجوهرات وانا يائس ؛ ومنذ تلك اللحظة بدأت ارى امامى طريقا جديدا .

وقال روى الصغير باهتياج : ” منذ ذلك الحين ادركت ان المدير قد آمن حقا بأن غالبية المجرمين يمكن ان يعاد بناؤهم . وانت نفسك تعرف انك كنت ما تزال تقاوم وتصر على خداع الحكومة ، ولقد عرفت سلطات السجن كل ذلك . وحتى قبل ان يأتى المحققون كنا قد اخبرنا الحكومة بكل شىء . ولكن منذ ذلك الوقت اقتنعت سلطات السجن بأنك يمكن ان تعيد بناء نفسك ، فاهتمت اهتماما شديدا بأن تضمن قيامك بالدراسة والاصلاح . “

كنا نقف على منحدرات التل العطرى ، نرسل ابصارنا الى مدينة بكين التى كانت تستحم تحت اشعة الشمس . وفكرت فى شىء تلو آخر من الاشياء التى حدثت فى السنوات العشر الماضية ، لقد استعدت ذكرى مدير السجن المسن الاشيب والخطاب الحيوى الذى القاه نائبه الاصغر . فكرت فى جميع السجنائين والاطباء والممرضات وفى افراد آخرين من العاملين فى السجن . عندما حاولت خداعهم ؛ عندما استخدمت جميع الوسائل المخزية لمقاومتهم ؛ عندما كشف جهلى وعدم صلاحيتى وغبائى ؛ عندما كنت فى يأس تام بخصوص حياتى وشعرت اننى لا احتمل ان اعيش اية لحظة اخرى ، فى تلك الاوقات كان هؤلاء الاعضاء فى الحزب الشيوعى متشبهين باعتقادهم بأن فى وسعى ان اعيد بناء نفسى ، كما كانوا يقودونى بكل روية لأصبح انسانا جديدا .

ان كلمة ” انسان “ هى الكلمة الاولى التى تعلمت ان اقرأها فى كتاب قراءتى الاول « كلاسيكيات المقاطع الثلاثة » ، ولكننى لم افهم معناها فى السابق مطلقا . اما اليوم ، وبمساعدة الحزب الشيوعى وسياسة اعادة بناء المجرمين ، فقد عرفت مغزى هذه الكلمة الرائعة واصبحت انسانا حقيقيا .

## ملاحظات

( ١ ) هذا القسم يعالج الشؤون السياسية والعسكرية في الشمال الشرقي .

( ٢ ) هذه قائمة بالخونة الرئيسيين الذين تسلموا مناصب في نظام ” امبراطورية

منشوريا “ :

رئيس الوزراء ووزير الثقافة والتربية : تشنغ شياو شيوى

وزير الشؤون المدنية وحاكم مقاطعة فنغتيان : تسانغ شى يى

وزير الخارجية : شيه جيه شى

وزير الدفاع ورئيس المجلس الاستشارى : تشانغ جينغ هوى

وزير المالية وحاكم مقاطعة جيلين : شى تشيا

وزير الصناعة : تشانغ يان تشينغ

وزير المواصلات : دينغ جيان شيو

وزير العدل : فنغ هان تشينغ

حاكم مقاطعة هيلونغجيانغ : تشنغ تشى يوان

رئيس المجلس التشريعى : تشاو شين بوه

رئيس مجلس الرقابة : يوى تشونغ هان

رئيس المحكمة العليا : لين تشى

رئيس مكتب المراقبة الاعلى : لى بان

نائب رئيس المجلس الاستشارى : تانغ يوى لين

اعضاء المجلس الاستشارى : تشانغ هاى بنغ ، يوان جين كاي ، لوه تشن

يوى ، قوى فو

رئيس سكرتارية مكتب الرئيس التنفيذى : هو سى يوان

اعضاء سكرتارية مكتب الرئيس التنفيذى : وان شنغ شى ، شانغ يان ينغ ،

لوه فو باو ، شيوى باو هونغ ، لين تينغ تشن  
رئيس مكتب الشؤون الداخلية : باو شى  
موظفو مكتب الشؤون الداخلية الخاصون : تشانغ يان تشينغ ، جين بى دونغ ،  
وانغ جى ليه ، دونغ جى شيوى ، وانغ دا تشونغ ، شانغ يان ينغ  
رئيس مكتب الامن : تونغ جى شيوى  
قائد الحرس : تشانغ هاى بنغ  
سكرتيرا مجلس الدولة : تشنغ تشوى ، تشنغ يوى  
( ٣ ) المدير السابق لسكة حديد جنوبى منشوريا وكان وقتذاك وزير الخارجية  
اليابانية .

( ٤ ) هذه المقاطعة الغيت عام ١٩٥٥ وقسمت اراضيها بين خبى ومنغوليا  
الداخلية ولياوينغ .

( ٥ ) الهة الشمس اليابانية آما - ثيراسو - او - مى - كامى . وتشكل عبادتها  
جزءا من ديانة شينتو اليابانية .

( ٦ ) ديانة شينتو اليابانية .

( ٧ ) كلاهما بقيادة الحزب الشيوعى .

( ٨ ) تمتع موظفو " امبراطورية منشوريا " المدنيون بمنزلة محتجزين ، بينما  
الضباط العسكريون اعتبروا مجرمى حرب .

( ٩ ) طبق صينى تقليدى يتناوله ابناء شمالى الصين فى عيد رأس السنة الصينية ،  
يتألف من عجينة رقيقة تحشى باللحم والخضار المغرومين وتغلى بالماء .

( ١٠ ) من مؤلفات ستالين - المترجم .

( ١١ ) طريقة قديمة لمعرفة البخت عند الصينيين - المترجم .

( ١٢ ) من الكتب البوذية المقدسة - المترجم .

( ١٣ ) حركة المكافحات الخمس حملة ضد رشوة العاملين الحكوميين والتحايل على  
الضرائب وسرقة املاك الدولة والفسخ فى المقاولات الحكومية وسرقة المعلومات الاقتصادية  
من المصادر الحكومية لاستخدامها فى المضاربات وكانت حركة المكافحات الثلاث  
حملة ضد الاختلاس والاسراف والبيروقراطية .

( ١٤ ) لاو تعنى كبير السن ، وهى لقب خطاب غالبا ما يستعمل لمن هم



- فوق الاربعين - المترجم .
- ( ١٥ ) من المكابيل الصينية - المترجم .
- ( ١٦ ) لقب الحكم الذى كنت استخدمه وأنا " امبراطور فى منشوريا " .
- ( ١٧ ) لاو تسى : هو مؤسس المدرسة التاوية فى الفلسفة وأحد الرواد فى تاريخ الفلسفة العام . وقد حول المشعوذون تعاليمه الفلسفية من بعده الى دين يقوم على الخرافة والسحر - المترجم .
- ( ١٨ ) لقب للنبيى المانشوى .
- ( ١٩ ) اعتبر المنهاج المشترك دستوراً مؤقتاً قبل اقرار المجلس الوطنى لنواب الشعب الدستور فى سبتمبر ١٩٥٤ .
- ( ٢٠ ) اطلق سراحه فى فبراير ١٩٦٣ قبل ان يمضى مدة حكمه الكامل .
- ( ٢١ ) يشير الى استخدام الجيوش الاستعمارية لفتيات مغلوبات على الرهن لاجل الترفيه - المترجم .
- ( ٢٢ ) سياسة " حرق الكل وسلب الكل وقتل الكل " التى طبقتها الغزاة اليابانيون فى الصين .
- ( ٢٣ ) الالعب النارية فى الصين تنظم فى خيوط فتتنفجر بالتعاقب محدثة دويماً متسلسلاً - المترجم .
- ( ٢٤ ) صنف من التمر ينتج فى الصين يختلف طعمه قليلاً عن التمر العادى ونواته نحيفة وغير مشقوقة فى الوسط - المترجم .
- ( ٢٥ ) شاعر من اسرة جين الشرقية ، عاش فى آواخر القرن الرابع واولى القرن الخامس بعد الميلاد .
- ( ٢٦ ) مفكر ومربى ( ٣٧٢ - ٢٨٩ ق.م. ) .
- ( ٢٧ ) كومونة الخضرة الدائمة ، او كومونة الفصول الاربعة ، تقع فى ضواشى بكين ، سميت بذلك لأنها تزرع الخضروات فى جميع الفصول دون ان تتقيد بالمواسم - المترجم .

مطبعة اللغات الاجنبية بكين  
توزيع  
الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب  
( كوزى شويان )  
ص . ب ٣٩٩ بكين - الصين

从皇帝到公民  
——我的前半生——

下 册

爱新觉罗·溥仪著  
阿卜杜·卡里姆译

\*

外文出版社出版  
( 中国北京百万庄路24号 )

外文印刷厂印刷

中国国际图书贸易总公司  
( 中国国际书店 ) 发行

北京399信箱

1985年( 大32开 ) 第一版  
编号: ( 阿 ) 11050—173B

00455

11—A—619PB

دار النشر باللغات الاجنبية بكين  
صدر منها

قصص لو شيون المختارة  
ديدان القز الربعية وقصص اخرى  
طلوع الشمس  
عاصفة رعدية  
الاسرة  
الفانية وصندوق المجوهرات  
الخنجر السحري